مذكرات الأمير عبد الله

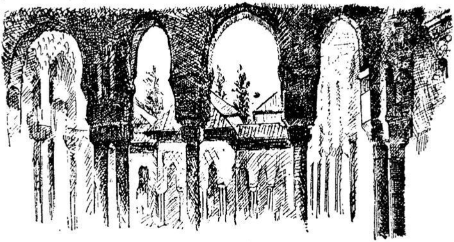
آخر ملوك بني زيري بغرناطة

(٤٦٩ - ٤٨٣)

نشره وحققه عن النسخة الوحيدة المحفوظة بجامع القرويين بفاس المستشرق ليفي بروفنسال - طبع دار المعارف

كان المؤرخون القدامى لا يشغلون أنفسهم فى أغلب الأوقات وأكثر الحالات بما نسميه فى عصرنا الحاضر بالحركات اللاشخصية والاتجاهات الاقتصادية والعوامل أو القوى الطبيعية التى تؤثر فى سير التاريخ ، وكانوا يكادون يقصرون اهتمامهم على علاقة الناس بعضهم ببعض ، وبخاصة هؤلاء الذين وضعتهم الظروف أو سمت بهم قدرتهم الفردية إلى المكانة الشماء والمنصب العالى ، والكثير من صفحات الكتب التاريخية القديمة يدور حول أخبار الملوك والوزراء وكبار القواد ، وأبناء القصور ورجال الحاشية وما تورطوا فيه من جرائم ، وما نصبوا من حبائل ، وما حبكوا من دسائس ومؤامرات ، وما دبروا من مكائد ، واصطنعوا من حيل فى التماس السلطة وتوطيد النفوذ والتغلب على المنافسين والخصوم .

ولا نزاع فى أن طريقة المؤرخين المحدثين التى تعنى باظهار أثر الحركات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وتقدر تأثير العوامل الطبيعية فى تكوين التاريخ ولا تكتفى بالنظر إلى الدوافع الفردية والأهواء الشخصية أقرب إلى الصحة ، وأدق فى البحث ، وأوفى فى تصوير الماضى ، ولكن هذا مع ذلك لا يقلل من قيمة عمل المؤرخين القدامى ، لأنه لا نزاع فى أن الميول البشرية والعواطف والأهواء والنزوات تلعب فى التاريخ الإنسانى دوراً مأثوراً ، وقد نأخذ على المؤرخين القدامى أنهم كانوا يكتفون بأن يشغلوا أنفسهم بهذه النواحى الشخصية وعلاقات الأفراد بعضهم ببعض ، ولكن يمكن فى الوقت نفسه أن يلاحظ أن بعض المؤرخين المحدثين يبالغون فى إغفال أثر العوامل الشخصية ، وذلك فى سبيل إبراز قوة تأثير العوامل الاقتصادية والطبيعية .



بقلم علي أدهم

ومما يعين على تقدير هذا العامل الشخصي المذكرات السياسية التي يكتبها بعض الرجال البارزين الذين اشتركوا في توجيه سياسة بلادهم سواء في الأوقات الحرجة والمواقف الحاسمة أو في أوقات السلم والاستقراء والأحوال العادية ، وقد تظهر هذه المذكرات في صورة تراجم ذاتية كما فعل المؤرخ الكبير ابن خلدون ، أو في صورة ذكريات وتأملات أو سرد تاريخي لبعض الأحداث التي يعلم عنها الكاتب أشياء قد لا يعرفها غيره ، ولا نزاع في أن الذي شاهد الحوادث عن قرب وعرف الكثيرين من الذين قاموا بها يكون لحديثه عنها قيمته ، ومما يجدى على دارس تاريخ أوروبا الحديث أن يقرأ مذكرات أمثال تالبران السياسي الفرنسي المعروف وفون بيلوف المستشار الألماني وأحاديث بسمارك الذي لعب دوراً كبيراً في تاريخ بروسيا وتكوين الإمبراطورية الألمانية في القرن التاسع عشر .

وتختلف قيمة المذكرات من الناحية الأدبية الفنية تبعاً لشخصية كاتبها ومدى حظه من القدرة على السرد الممتع والعرض الجذاب ، فبعض هذه المذكرات ممل غير شائق ، وبعضها جذاب يثير حب الاستطلاع ، ويلقي ضوءاً على الحوادث المروية ، ومن أشهر تلك المذكرات وأشدها إثارة للاهتمام تلك المذكرات التي كتبها الكاردينال دى ريتز في الأدب الفرنسي ويوميات إفلن وبيبز في الأدب الإنجليزي .

والمذكرات على اختلاف أنواعها في أكثر الأحيان مصدر معرفة شائقة لأنها تعكس صورة الحوادث التاريخية ، وتقدم لنا أمثلة من الحياة اليومية تجعلنا إلى حد ما نعاصر الفترة التي كتبت

فيها ، والبواعث التى تبعث الناس على كتابة المذكرات مختلفة ، فبعضهم يكتبها لتستعين بها ذاكرته غير مفكر فى استفادة الأجيال التالية منها ، والبعض يحاول بها أن يسوغ موقفه فى الحياة ويبرر بعض الأعمال التى قام بها ، وبعضهم يكتب المذكرات لتقويم أخلاقه وتثقيف نفسه ، وفريق آخر يكتب المذكرات بدافع من الرغبة فى التعبير عن النفس ، وقد بدأت فانى برنى كاتبة اليوميات المشهورة فى الأدب الإنجليزى تكتب يومياتها وهى فى الخامسة عشرة من عمرها واستهلتها بقولها : « إلى لا أحد » أى أنها كانت تقصد أن تكتب لنفسها .

ومن أقدم المذكرات السياسية فى الأدب العربى المذكرات التى كتبها الأمير عبدالله بن بلقين سيف الدولة صاحب غرناطة وآخر ملوك بنى زيرى ، وهى المسماة بكتاب « التبيان » وقد نشره وحققه المستشرق الفرنسى المعروف ا . ليفى بروفنسال نقلا عن النسخة الوحيدة المحفوظة بجامع القرويين فى فاس .

وقد جرى الأمير عبدالله فى كتابة هــذه المذكرات على الطريقة المألوفة عند أكثر كتاب المذكرات السياسية ، وهى النظر إلى الحوادث التى تقع تحت أبصارهم من زاوية النظر الشخصية ، ومحاولة تبرير موقفهم وسلوكهم .

وقد عاش الأمير عبدالله فى فترة خطيرة حافلة بأسباب القلق والازعاج وتوقع الأحداث الفاجعة ، وهى عهد ملوك الطوائف فى أندلس القرن الخامس الهجرى وبخاصة الجزء الثانى منه ، وحاول أن يدافع عن موقفه أمام الأخطار التى كانت تهدد مملكة غرناطة ، وهو يقدم لنا فى هذه المذكرات سرداً مفصلا لكل الحوادث التى أدت إلى استيلاء ألفونسو السادس على مدينة طليطلة عام ٤٧٨ هجرية ، وإلى تدخل المرابطين فى السنة التالية مما أدى إلى وقوع معركة الزلاقة الشهيرة التى كان لانتصار المسلمين فيها تحت قيادة الأمير يوسف بن تاشفين أثر كبير فى تأخير إخلائهم من شبه الجزيرة .

وليس من المألوف أن نجد فى تاريخ حوادث العالم الإسلامى أميراً يعنى بالكتابة عن الحوادث التى شاهدها وشارك فيها ، ولذلك تعد مذكرات الأمير عبدالله الزيرى من المذكرات النادرة التى كتبها أمير للدفاع عن نفسه وإفادة معاصريه والأجيال التالية .

والأمير عبدالله هو ابن بلقين بن باديس بن زيرى ، وهو الملك الثالث والأخير لمملكة غرناطة التى أسسها فرع منحدر من أسرة بنى زيرى البربرية الصنهاجية ، وقد ولد سنة ٤٤٧ ، وعين بعد وفاة أبيه سيف الدولة فى عام ٤٥٦ كولى عهد لجده الأمير باديس ، واعتلى بعده عرش غرناطة فى سنة ٤٦٩ بينما أصبح أخوه تميم المعز أميراً مستقلا فى مالقة .

ولم يكن عهد الأمير عبدالله سوى سلسلة من الاضطرابات فى داخل مملكته وخلافات مع جيرانه من ملوك الطوائف وملك قشتالة وقد اشترك عبدالله فى موقعة الزلاقة ومحاصرة حصن لبيط ، ولكن اتفاقه مع الملك النصرانى أدى إلى ضياع عرشه ، فقد أغضب ذلك أمير المرابطين يوسف بن تاشفين فحاصر غرناطة عام ٤٨٣ واضطر عبدالله إلى تسليم نفسه لأنه لم يكن له قبل بمدافعته وعزل وأرسل إلى

المنفى بمدينة أغمات فى جنوب المغرب الأقصى ، وفى هذا المنفى كتب الأمير عبدالله هذه المذكرات التى تلقى ضوءاً كاشفاً على بعض حوادث القرن الخامس الهجرى فى الأندلس ، وتزودنا بمعلومات عن كثير من الشخصيات التى برزت فى هــذه الفترة ، وهى توضح لنا آثار الانحلال الاجتماعى والسياسى الذى أصاب مسلمى الأندلس مما اضطر الأمير المرابطى إلى انتزاع عروش ملوك الطوائف لمعالجة الموقف وإصلاح الحال .

ومذكرات الأمير عبدالله برغم ما فيها من عيوب فى أسلوب الأداء لأن الرجل لم يكن من الكتاب البلغاء الذين رزقوا القدرة على التعبير الواضح والعرض المستساغ ، إلا أنها مع ذلك مرجع له قيمته فى فهم طبيعة عصره ونفسية الكثيرين من رجاله الذين اشتركوا فى حوادثه مثل المعتمد بن عباد ووزيره أبى بكر بن عمار وابن الأفطس صاحب بطليوس ويوسف بن تاشفين وابن صمادح صاحب المرية وغيرهم من أعيان ذلك العصر .

ويقول الأستاذ ليفى بروفنسال فى المقدمة التى صدر بها الكتاب : «إن مذكرات الأمير عبدالله وثيقة سيكلوجية من الطراز الأول تساعد بصورة أفضل من كتب التاريخ التى ألفت فيما بعد على الحكم على حالة الانحلال الاجتماعى والسياسى فى الأندلس قبل معركة الزلاقة وبعدها ، وعلى التقدم الذى حققه فى هذا الوقت أنصار استرجاع إسبانيا المسلمة إلى النصرانية ، ومن جهة أخرى إن قص الحوادث السابقة على حكم الأمير عبدالله نفسه هو أيضاً أمر جديد وهام جداً ، ويجب إذن أن نعتبر مذكرات ملك غرناطة كدليل مرشد لتأريخ الطوائف الغامض ، وذلك ابتداء من العصر الذى تنتهى فيه مؤلفات ابن حيان ، وإن هذه الفترة التى سأصفها بحول الله فى الجزء الرابع من كتابى «تاريخ أسبانيا الإسلامية» ستوضح بصورة أوسع وتحت ضوء جديد بفضل هذا الحصول السعيد على وثيقة غنية لا يرتاب فيها» .

وكان المعتمد قد جاز البحر فى سنة ٤٧٩ قاصداً مدينة مراكش إلى يوسف بن تاشفين مستنصراً به على الروم ، فلقيه يوسف – كما يروى لنا عبدالواحد المراكشى فى المعجب – أحسن لقاء وأنزله أكرم نزل ، وسأله عن حاجته ، فذكر أنه يريد غزو الروم وأنه يريد إمداد أمير المسلمين إياه بخيل ورجل ليستعين بهم فى حربه ، فأسرع أمير المسلمين يوسف إلى إجابته إلى ما دعاه إليه ، ويقول الأمير عبدالله فى مذكراته : «كانت رسل المعتمد قبل هذا قد وردت عليه تعلمه أن يتأهب للجهاد ، وتعده باخلاء الجزيرة الخضراء ، وأنه لا يصل إلى سبتة إلا ويضعها فى يديه ، فلما وصل متأهباً لذلك بمن احتفل من جيشه قدم رسله إلى المعتمد ، منهم عبد الملك القاضى وابن الأحسن ، فأمسكهم باشبيلية مدة طويلة ، وأمير المسلمين فى ذلك متقلق لورودهم ، فأرسل معهم من شيوخ إشبيلية من يقول له : «تربص من سبتة مدة من ثلاثين يوماً ، إلى أن تخلى لك الجزيرة» فأجابهم إلى هذا ، وسألوه خط يده وبالتربص ، فأشعر الأمير بذلك ، وقيل له : «لم يجعلك ابن عباد فى هذا الالتواء إلا لأنه يريد أن يرسل إلى ألفونش يعلمه بقدومك ، ولعله يتأتى له

منه ما يرغب ويهدده بك ، ويسأله أن يعاقده على أن يهبه الجزية أعواماً ، فان فعل استجاش عسكره على الجزيرة ، ومنعك الجواز ، فاسبقه إليها ، وإن كان النصرانى لا يتأتى له ، أرسل إليك فى الجواز » .

ويسترسل الأمير عبدالله فى مذكراته قائلا : « ولما انفصل الرسل عنه بنية التربص فى إخـلاء الجزيرة ثلاثين يوماً ، جهز عسكراً مقدماً من نحو خمسمائة فارس ، وأرسلهم فى أثرهم ، فلم تصل الرسل إلى الجزيرة آخر النهار إلا والعسكر فى أثرهم قد عدوا ونزلوا بدار الصناعة ، فالتفت القوم إلى خيل قد ضربت محلتها ، لم يدر متى أقبلت ، ولم يصبح لهم إلا وطائفة أخرى بعدها ، يزيدون ويترادفون ، حتى اكتمل العسكر كله على الجزيرة مع داود بن عائشة ، وأحدقوا حواليها يحرسونها ، ونادى داود بالراضى (ابن المعتمد) وقال له : « وعدتمونا بالجزيرة ! ونحن لم[1] نأت لأخذ بلدة ولا ضرر بسلطان ! إنما أتينا للجهاد ، فإما أن تخليها من هنا إلى وقت الظهر من يومنا هذا ، وإلا فالذى تقدر عليه فاصنع ! » .

ويرينا ذلك أنه كانت هناك عوامل تعمل على إيجاد سوء ظن بين المعتمد بوصفه أحد ملوك الطوائف وبين يوسف بن تاشفين أمير المرابطين ، وكان أمير المؤمنين مع ذلك فى بادئ الأمر يحاول إخفاء نياته وإدخال الطمأنينة على نفوس ملوك الطوائف وإيجاد الثقة به ، ومن ذلك أنه كما يروى الأمير عبدالله « خاطب أمير المسلمين ابن عباد يعلمه بما صنع ويقول له : «كفيناك مؤنة القطائع وإرسال الأقوات لأجنادنا كما وعدت ، فارسل المعتمد لابنه الراضى فى إخلائها لهم ، وحصل فيها داود ، وأتى الأمير إليها ودخلها ناظراً إليها ، ثم انصرف إلى سبتة إلى وقت إقباله ، وأمر داود بالتقدم إلى إشبيلية ، فاستوفت العساكر على إشبيلية » .

ويقول الأمـيـر عبدالله فى أعقـاب ذلك: « وعاقدنا أمير المسلمين على أن تتصل الأيدى على غزو الروم بمعونته ، وألا يعرض لأحدنا فى بلده ، ولا يقبل عليه رعيته بمن يروم الفساد عليه » .

هذه هى رواية الأمير عبدالله ، فهل كان أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ينوى حقاً أن يفى بهذه الوعود ثم اضطرته الحوادث بعد ذلك إلى أن يخيس بوعده وينكث عهده فيتدخل فى شئون ملوك الطوائف وينتزع الملك من أيديهم ويضم أملاكهم إلى دولته الشاسعة المترامية الأطراف ؟ كان يوسف من دهاة السياسة ومساعر الحرب ومن ذوى الطموح البعيد ، وأمثاله لا يكتفون بما فى أيديهم ، بل يميلون دائماً إلى الاستزادة والتوسع ، ولذلك أرجح أنه كان يعد ملوك الأندلس وفى نيته عدم الوفاء بالوعد ولم يكن هناك صعوبة فى إيجاد المسوغات التى ترضى نزوعه وتهدئ ضميره .

ويصف لنا الأمير عبدالله حالته النفسية ومخاوفه بعد عودته من محاصرة حصن ليط التى اشترك فيها مع يوسف بن تاشفين وغيره من ملوك الطوائف بالأندلس فيقول : « ولما وصلت وادى آش ، وقد

(١) فى الأصل «ونحن نأت لأخـذ بلدة ولا ضرر بسلطان» ولا يستقيم مضمون العبارة إلا بذكر «لم» النافية قبل «نأت» ولعلها من الأخطاء المطبعية أو التحريف الشائع فى بعض نصوص الكتاب .

ظهر إلى قبل فى ليبط من جفاء قرور وتخويفه لى ، وتهديدى على لسان الأمير ، والأمير عند ذلك غافل ، غير أنى حسبت ذلك من قبله لما رأيت من مكانته عنده ، فأدركنى من ذلك رعب شديد ، وعاينت مع هذا ما حل بابن رشيق ، وسمعت وعيد القليعى لى ، وجفاءه على ، وإزالة رقبتى عنه ، ما زادنى ذلك جزعاً ، لا سيما أن الجزع والسوداء متمكنة من نفسى ، وأجدها فى طباعى ، كدت أن أموت غماً ، ولم أر قبل ذلك ذلا ولا كدراً فأنكرت الأمور كلها مع السلطان على حسب ما كان يكرمنى سفرة بطليوس ، ورأيت ضد ذلك كله ، وقرور يناصبنى العداوة ، ويرسل المشاورين إلى هوانى ، ويأمرنى فى حال تلك الحرب بأوامر باردة ، يريد بها إذلالى ، ويظهر إلى فيها التعنيف والتعسف »

ويصرح الأمير عبدالله أن قروراً هذا الذى كان مقرباً من الأمير يوسف قد حصل منه على رشوة ليستدفع بها أذاه ، ويقول إن الرشى التى قدمت له أكثر من أن تحصى « وهو فى ذلك كله لا يزداد إلا نفاراً واستكباراً » ، ولما سأل أمير المسلمين الأمير عبدالله عما بينه وبين قرور لم يستطع أن يخبره بجلية الأمر .

ويشير الأمير عبدالله إلى مسألة خلعه من الملك قائلا : « لما حان انصرافنا من ليبط كلمنا أمير المسلمين فى عسكر يتركه عندنا بالأندلس خوفاً من الرومى أن يكلب علينا ، ويطالبنا بثأر تلك السفرة وغيرها ، فلا يكون عندنا بمن ندافع » فقال : « أصلحوا نياتكم تكفوا عدوكم » ولم يعطنا عسكراً ، فأيقنا أن الرومى لا يدعنا على هذه الفرصة دون طلب ، كالذى كان ، فلم يلبث أن احتفل وأتى طالباً للمال ، متجنياً على من خالفه أن يفسد بلاده ، وعاقد صاحب سرقسطة ومن يليه من الشرق ، فدافعوا شره ودفعوا إليه ما سلف عندهم ، وبلغنى الخبر ، وزاد ذلك فى غمى ، وعلمت أنى فيه كراكب الأسد ، إن أسلمت البلد ، ولا عسكر عندى ، هتك ولم ينجبر لى فيه درهم . . . وكان البرهانش زعيم جهات غرناطة والمرية وكان الفونش قد وكله أمر الجهتين من اتقاء أمره فيها لفساد على من تعذر له عنده شىء ، ولقبض مال وتوسط ما ينفعه فيها ، فأرسل إلى أولا عن نفسه ينذر بدخول وادى آش ، وأنه لا يرده عن ذلك إلا الفداء لها ، فقلت فى نفسى : « ومع من[1] أثق برأيه » ؟ أى مقدرة بنا على مدافعته ؟ لا عسكر ترك لنا ندافع به ، فكم يأخذ فى هذه النصبة من أسرى المسلمين وكم يفسد فيها من الأموال ؟ . . أليس من الصلاح إفداؤهم بما عز ، فنحن جدراء أن نفعل ذلك قبل رحلتهم دون فساد فى البلد ! ونحتسب ذلك الله تعالى ، وهو العالم بالضمائر ! فإننا لو فعلنا ذلك أسراً وبطراً ، وعندنا بمن ندافع لكان فيه الحجة علينا ! فاجتمع رأينا على إرضائه باليسير ، مع معاقدته على ألا يقرب لنا بلداً بعد أخذ هـــذه الدفعة ، فارتبط إلى ذلك ، فلما حصلت عنده قال « ها أنا قد صح جانبى ، والأوكد عليكم أمر الفونش ، الذى هو على الحركة عليكم وإلى غيركم ، فمن أنصفه نجا ، ومن حاد عنه فسلطنى عليه ! إنما

---

(١) فى الأصل « أتق رأيه » وسير الحديث يقتضى فى رأيى أن تكون « أثق برأيه » .

أنا عبده ، لا بد من اتيان مرغوبه ، والوقوف عند أمره ، ولا ينفعكم هذا الذى أعطيتمونى إن خالفتموه ، وليس بنافع إلا فيما يخصنى دون رئيسى إن حد لى ضده ! » فعلمنا أن قوله حق يقبله العقل فقلنا : « لا يمكن أن نوجه إليه نحن ونبدأه فنوقظه لأكلنا ، ولكن متى أرسل يأذن بذلك سنعتذر إليه ، فعسى أن يقبل رغبتنا » .

وتأهب ألفونس للحركة وطلب الجزية ، وقدم رسله بين يدى حركته ، فحار الأمير عبدالله فى أمره ، وبلغ منه الجزع إلى حد أنه اعتقد أن ألفونس لن يقبل الجزية وأنه مصر على الاستيلاء على غرناطة انتقاماً لمعاقدة المرابطين ، واضطر إلى أن يدفع « جزية ثلاثة أعوام لا ينقص منها شيء » ، ويقول الأمير عبدالله : « إن الذى دعانى إلى هذه المعاقدة المدافعة عن بلدى وأهل ملتى » .

ويقول الأمير عبدالله إنه خاطب أمير المسلمين فى هذا الصدد وقص عليه جميع ما وقع وذكر له أن الضرورة قد أرغمته على ذلك ، وكان يظن أن أمير المسلمين سيرضيه هذا السلوك وبخاصة لأنه دفع الجزية من ماله الخاص دون أن يرهق رعيته ، ولكن رد الأمير يوسف عليه كان مخيباً لظنه ، لأن « الأمور صورت عنده على غير حقائقها ، ومما زاد فى جزع الأمير عبدالله قول يوسف له فى رسالته إليه منذراً ومهدداً « أما مداهنتك وقولك الباطل قد علمناه ، وسنعلم عن قريب كيف ترضى الرعية ، وما تصنع إذ زعمت أنك نظرت لها ، ولا تسوف فان هذا قريب غير بعيد » .

ولم ييأس الأمير عبدالله برغم ذلك وظن أنه يستطيع اقتلاع الظنون السيئة من نفس يوسف ، ولكن خصومه من رعيته أمثال القليعى وأبى بكر ابن مسكن وغيرهما أكثروا من الوقيعة فيه ، وساء ظن المعتمد بن عباد به لاتفاقه مع ألفونس ، واتفقت الأقاويل عند يوسف على انحياسه للنصارى ، ويقول الأمير عبدالله : « إن[1] تلك القالة كانت سبباً للذى قدر ، ولو أن قضيتى تستوضح لوجد فيها ما لا مطعن فيه . . ولا إصرار فى ميل على مسلم ولا ادخال داخلة ، وكيف يصح هذا قبلنا ، وأول سيف سل على الروم إنما كان من قبلنا » .

وساءت أحوال الأمير عبدالله بعد ذلك وبدت نذر الكارثة « ومقدمات آذنت بالزوال » كما يقول ، فتنكرت له رعيته ، ولما عبر يوسف إلى الأندلس واجتمع فى قرطبة بالمعتمد ، وعلم منه مداخلة الأمير عبدالله للرومى أرسل إليه كتاباً يقول له فيه : « اقبل إلينا ولا تتأخر ساعة واحدة » فراب ذلك الأمير عبدالله وأخافه ، فاعتذر عن الحضور بتوجيه الرسل إليه ، فقرعهما وأمر بثقافهما فى الحديد ، وعاد إليه بعض الفرسان الناهضين مع الرسل على أسوأ حال مضروبين ملهوفين ، وأرسل بعد ذلك الأمير يوسف جيشاً إلى غرناطة يحرسها إلى أن يرد عليها بنفسه ، وحاول الأمير عبدالله فى خلال ذلك استرضاء يوسف ، فأرسل إليه يوسف يقول له[2] : « لا طاعة ولا صلح إلا بالخروج إلى » ولم يجد عبدالله مخرجاً من هذه الأزمة الحازبة إلا بالتسليم ليوسف، ويقول الأمير عبدالله فى ذلك : « فخرجنا إلى الرجل كأنما نساق إلى الموت لا ندرى ما نلقى إلا كالخاطر بنفسه متوكلين على القدر ، ولما لقيناه سر بذلك ، وأقسم لنا على الأمان فى أنفسنا وأهلنا ، ولنا منه المراعاة والكرامة ما بقى » .

ويصف لنا الأمير عبدالله فى صفحات مؤثرة كيف تم تفتيش القصر ونفض المخدات ، وتقليب التوابيت ، وحل طيات الثياب ، وحفر الأرض خوفاً من أن يكون قد دفن بها شيئاً ، وكان قرور هو الذى تولى ذلك التفتيش ، وكان يقول للأمير عبدالله « إن سلمت بروحك فما فى الأرض أوجه منك » .

---

(١) صفحة ١٢٩ (٢) صفحة ١٤٩

ونفى بعد ذلك الأمير عبدالله إلى المغرب الأقصى .

ويروى لنا الأمير عبدالله فى الفصل الحادى عشر من الكتاب لوناً من ألوان مخادعة الأمير يوسف لملوك الأندلس، فهو يقول: « وقد كان أمير المسلمين قبل مجيئه إلى غرناطة قد وعد المعتمد بها وقال له : « أنا رجل مغربى ، وليس قدمى أخذ مال ولا بلاد، وقد ترى ما رفع على صاحب غرناطة ، ونتوقع عليها من الرومى ، وليس غرضى أكثر من تخليصها فاذا صارت فى يدى ولا يمكننى إمساكها لبين بلاد الأندلس من العدوة وضعتها عند ذلك فى يدك فتكون أعلم بما تصنع بها ، وأقعد لما يصلح المسلمين ، ولم يشك المعتمد أن ذلك منه كائن » .

ويقول الأمير عبدالله إنه لما رأى تألب أضرابه من ملوك الطوائف فى الأندلس عليه مع الأمير يوسف خاطب كل واحد منهم بكتاب قائلا لهم : « هذا الأمر منجر إليكم ، واليوم بى وغداً بكم ! » . فعرضوا تلك الكتب على يوسف فحنق على الأمير عبدالله، وكتبت الأجوبة باملائه يقولون فيها : « إنما تريد أن تلطخنا بأفعالك، ونحن قد برأنا الله منها ! ».

ويبدى الأمير ملاحظة تسترعى النظر وهى قوله خلال حديثه عن ملوك الطوائف: « نحن لم يعن بعضنا بعضاً على الرومى فكيف على المسلم ؟ » .

ويعترف الأمير عبدالله بحسن معاملة الأمير يوسف له فى المنفى فيقول(1): « وأمرنا أن نستوطن أغمات ، فأتيناها ولقينا من أمير المسلمين كل جميل ، وأنزلنا بداره الصغرى فى الحريم ، ولم يزل يعتقدنا من أنعامه كيف ما هيأ الله على يديه ، ووجدناه بعد الله أرفق بنا وأحسن مذهباً فينا من الناس أجمعين ، ومن كل من سبق إليه منا إحسان » .

ويقول الأمير عبدالله فى الفصل الثانى عشر من مذكراته — وهو الفصل الأخير وقد ملأه بالعظات والتأملات : « ما بقى لنا من الآمال غير مال حلال للمعاش ، يغنى عن السؤال ، وعمل صالح للمعاد ينجى من العقاب ويوجب الثواب » .

وقد هجاه أحد شعراء غرناطة ، وهو المعروف بالسميسر بقوله :

صاحب غرناطة سفيه
وأعلم الناس بالأمور
صانع إذ فونش والنصارى
فانظر إلى رأيه الدبير
وشاد بنيانه خلافا
لطاعة الله والأمير
يبنى على نفسه سفاها
كأنه دودة الحرير
دعوه يبنى فسوف يدرى
إذا أتت قدرة القدير

وموجز القول أن مذكرات الأمير عبدالله على ما بها من عيوب فى أسلوب السرد ووصف الأشخاص والحوادث من الوثائق التاريخية القيمة التى تلقى الكثير من الضوء على ذلك العصر المضطرب المعروف فى تاريخ الأندلس بعصر ملوك الطوائف ودخول المرابطين إلى الأندلس .

على أدهم

(1) صفحة ١٧١

تأليف: محمد عطية الإبراشي

الناشر: مكتبة الأنجلو المصرية

عدد الصفحات ٣٢١ ص ١٧ × ٢٤ سم

الثمن ٦٠ قرشا

١ — هذا كتاب أخرجه للناس الأستاذ محمد عطية الابراشى ، مبيناً فيه مبادئ الإسلام ، المتعلقة بالعلاقات الاجتماعية بين الناس ، وتنقية القلوب ، وتربية الضمائر ، وإقامة مجتمع سليم يقوم على دعائم من المودة والرحمة والكرامة الإنسانية ، والمساواة العادلة التى تقوم على أساس من القسط ، والميزان المستقيم .

وإن الأستاذ الإبراشى قد تهيأ له من الأسباب ما يجعله من أقدر الناس على القيام بعبء العمل فى مثل هذا الكتاب الذى أخرجه ، فهو قد ابتدأ حياته الأولى بدراسة إسلامية خالصة ، حتى بلغ فى هذه الدراسة شأواً نال به إجازة دار العلوم ، ثم سافر من بعد ذلك إلى انجلترا ليتمم دراسته . فأتم فيها الدراسة فى علوم النفس والتربية ، وعاد مسلماً كما ذهب ، لم ينل إيمانه شك أو حيرة ، ولم يزغ قلبه كما زاغت قلوب بعض القلة ، ممن هجروا ماضيهم إلى غير حاضر أو مستقبل ، بل كانوا حائرين بائرين ، لا يملأ قلوبهم إيمان ، ولا يوثق عرا الأخلاق فيهم قومية رابطة ولا تدين حاكم .

وقد عالج نفوس الجماعات بالدراسات النفسية والخلقية المستمرة بين التلاميذ ، وسائر الشباب والمجتمعات ، كما اطلع على كل ماكتب الأوربيون فى الإسلام أو على الكثير منه ، وانتهى من اطلاعه إلى أن وجد التعصب يلقى غشاوة على الحقائق ، ويضع حواجز بين الحق وبين المثقفين فى الشعوب الأوربية والأمريكية وغيرها ، وهو فى كل ما يقرأ ويبحث ، ويدرس ويفحص ، يتلمس جوهر الإسلام وروحه مما كتب فى العربية ، وما اشتمل عليه الينبوعان الصافيان من كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وينتهى من دراسته إلى أن يقول صادقاً : « لو كلفت أن أختار الدين الذى أؤمن به إيماناً ثابتاً عن عقيدة راسخة فى

روح الإسلام

نصر

القلب ــ ما اخترت غير الإسلام ديناً لأنه دين الفطرة السليمة ، والطبيعة السمحة ، دين العقل والمنطق ، دين الدنيا والآخرة دين الحق والسلام دين (الديمقراطية) والعدالة الاجتماعية ، دين التضامن والتعاون والتكافل الاجتماعي ، دين الحرية والإخاء والمساواة ، دين العطف والرحمة الإنسانية دين الصفح والعفو عند المقدرة . : : . » :

٢ ــ وبذلك الصوت القوى الذى جلجل فى نفسه ، وبتلك الدراسات العميقة كتب كتابه روح الإسلام ،وقد اتجه فى هذه الدراسة إلى عرض الحقائق الإسلامية ، ومعانيها ، وحكمها وغاياتها ومراميها ، من غير أن يتعرض لشكلها إلا قليلا ، وإنه كان يقرن بالإسلام فى رجاله وأعمالهم وأخلاقهم التى اقتبسوها من أخلاق محمد صلى الله تعالى عليه وسلم .

وقد ابتدأ الكلام فى الفصل الأول بعنوان روح الإسلام ، فذكر السماحة والإخلاص والرحمة

بقلم : محمد أبو زهرة

والتعاطف التى اتصف بها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ودعا إليها ، ويذكر ما كان بين الصحابة رضى الله عنهم من إخلاص وإيثار ، ورغبة فى إقامة الحق ونصرته ، ويرى أن أصدق ما يتمثل فيه روح الإسلام قول النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : « أوصانى ربى بتسع ، أوصيكم بها ، أوصانى بالإخلاص فى السر والعلانية ، والعدل فى الرضا والغضب ، والقصد فى الغنى والفقر ، وأن أعفو عمن ظلمنى ، وأعطى من حرمنى ، وأصل من قطعنى ، وأن يكون صمتى فكراً ، ونطقى ذكراً ، ونظرى عبراً » .

ولقد بين فى هذا الفصل أن الإسلام يتجه إلى الإخاء والمساواة والحرية ، ونفذها بحق وصدق وعمل، وسبق الأوربيين الذين تنادوا بها بأكثر من أحد عشر قرناً ، وإن لم يتجاوز النداء حناجرهم ، ولم يصل إلى قلوبهم .

ويسترسل الكاتب الكريم فى بيان ما كان من النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه من أفعال فى تكريم الإنسانية عامة من غير تخصيص بلون، أو جنس، أو لغة ، أو إقليم ، وكيف حارب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم العصبية ليقتلع العنصرية من جذورها ، فيقول عليه السلام : « ليس منا من دعا إلى عصبية ، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية » . . . ويستمر فى استقراءاته لآيات القرآن الكريم ، وأحاديث النبى صلى الله تعالى عليه وسلم التى تدل على التعاون الإنسانى العام، ويثبت أن الإخاء والمساواة والحرية والتعاون والكرامة الإنسانية كلها معان نفسية .

ويقرر فى نهاية ما استنبطه من آثار وآيات وأحاديث : « أن الإخلاص فى القول والعمل والسر والعلانية عماد كل نجاح فى كل أمر دينى أو دنيوى » .

ويتأدى به البحث فى اتجاهه إلى أن روح الإسلام تتطلب العناية التامة من الراعى لرعيته ، لا فى الأمور الكلية ، بل فى الأمور الجزئية ، ويثبت أنه من تعرف الأحداث الجزئية يستطيع أن يقرر المبادئ العامة الصالحة ، لأن المبادئ العامة يجب أن تكون قريبة من نفوس الرعية ، ومثله كمثل الطبيب يعالج أسقام أجزاء الجسم ليسلم كله ويذكر فى ذلك ما كان من عمر بن الخطاب فى عسسه بالليل ، وتتبعه أحوال الرعية جزئيها وكلها .

وفى الجملة كان فى هذا الفصل من كتابه يتعرف روح الإسلام من أهله ، ومن القوامين عليه ، ومن وصايا النبى عليه السلام ، وأحكام القرآن الكريم ، ويبين ما يراه فى نثير من القول قد يكون جماله فى أنه جواهر منثورة لها بريق فى انتثارها ، كما أن لها جمالا فى انتظامها ، وإن كنا نميل إلى أن يتجمع الجمال فى عقد منظوم .

٣ — فى الفصل الثانى يتجه إلى أول مظهر للروح الإسلامية ، وهو الأخلاق الكاملة التى دعا إليها ، فبين ما دعا إليه الإسلام من تهذيب للأخلاق الشخصية ، وتنظم للسلوك الإنسانى العام ، فيبين ما حرمه من مساوئ الأخـــلاق من كذب وخيانة ونفاق وغش .

ثم يتجه إلى بيان الفضائل الإيجابية التى تكون مجتمعاً فاضلا فى كل عناصره ، فيبين ما دعا إليه من فضائل فى علاقة آحاد الأسرة بعضهم ببعض ، ويبين الفضائل فى علاقة الأبناء بآبائهم ، والأقارب بعضهم مع بعض ، والتبعات الملقاة على كل آحاد الأسرة فى التضافر بينهم .

ولا يضن على القرطاس بما يجب على الآباء والذين يتولون أمور النشء وهو لدن من تربيتهم على الأخلاق الفاضلة ، ويبين فى هذا المقام أن التربية يجب أن تقوم على تربية الخلق ، وتقوية الإرادة ، ووضع شكائم نفسية تضبط الشباب، والعود أخضر .

ويقول الكاتب فى ذلك : « إن الغرض الجزئى والكلى من التربية والتعليم يمكن أن يلخص فى كلمة واحدة هى الفضيلة بايجاد حيـــاة طاهرة مقدسة ملؤها الإخلاص ، وإن التربية الحديثة توجب علينا أن نذكر دائماً أننا لسنا فى حاجة إلى العلم فحسب ، ولكنا فى حاجة إلى كثير من الأخلاق الفاضلة » .

ويسترسل فى بيان صلة الفضيلة بالتربية مستشهداً بأقوال علماء الغرب الذين عالجوا النفوس ، ولكنه لا يستشهد بأقوال أولئك العلماء على أنها البناء الذى تقوم عليه فكرته ، بل يذكرها مبيناً سبق القرآن والسنة والمبادئ الإسلامية فى ذلك سبقاً بعيداً .

ويضرب الأمثال الكثيرة مما أثر عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من صفات وسجايا ، ومعاملة تسير على قانون خلقى مستقيم لا عوج فيه ، ولا اضطراب ، ويردد فى ذلك أقوال النبى عليه السلام فى الأخلاق الفاضلة والدعوة إلى التمسك بها ، ويعتمد على القرآن الكريم فى كل ما يورد من أدلة .

٤ — وينتقل من الأخلاق التى دعا إليها الإسلام لتنظيم العلاقات بين الآحاد ، ولتربية الضمير وتهذيب الوجدان ، لأن ذلك هو الأساس للترابط الاجتماعى الوثيق القائم على أساس من المودة والفضيلة إلى الكلام فى علاقات الأمم ، فيبين أن الأساس فى علاقة الأمم والشعوب هو السلام وليس الحرب والخصام ، ولقد أخذ ذلك من حياة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وعلاقته مع مخالفيه ودعوته لهم بالتى هى أحسن من غير مشاحة ولا شحناء ، بل بصبر على الأذى ، ومصابرة لهم ، وفى سبيل ذلك وضع الإسلام المبادئ العامة لاستقرار السلم فى الأرض بالدعوة إليه ، وإقامة العدالة التى لا يمكن أن يستقر سلم إلا إذا أقيم على دعامتها ، ثم يبين الدعامة الثانية للسلم ، وهى الوفاء بالعهود العادلة التى أخذت اختياراً ولم تؤخذ اضطراراً ، وخصوصاً عهود الأقوياء للضعفاء وكان حقاً عليه أن يبين فى هذا المقام ما دعا إليه الإسلام من نصرة الضعفاء من الأمم والشعوب ، ويستدل على ذلك بما قاله النبى عليه السلام فى هذا المقام من مثل قوله عليه السلام : « ابغونى فى ضعفائكم ، إنما تنصرون وترزقون بضعفائكم » ومن مثل تأييد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لحلف الفضول الذى عقد قبل بعثه عليه السلام ، وفيه تعاهدت طائفة من فضلاء قريش : « ليأخذن للضعيف من القوى ما بل بحر صوفه ، وما رسا ثبير وحراء » أى ما بقى الزمان .

ولقد بين فى هذا الفصل (الرابع) أن الإسلام لم تقم دعوته على السيف ، بل على الحجة وعلى الرفق بالضعيف ويسوق الأدلة التاريخية القاطعة فى هذا المقام ، ولا يضن على القرطاس بالبيان أثابه الله تعالى .

ويتكلم فى ذلك على الأخلاق النبيلة فى الحروب التى كان يضطر إليها المسلمون اضطراراً ، ولا يدخلون فيها اختياراً ، ثم يتكلم عن التسامح فى أعقاب الحروب التى ينتصر فيها المسلمون ، إذ يقولون رحمة بالمغلوب ، ولا يقولون : ويل للمغلوب .

٥ — وفى الفصل الخامس يتكلم عن الحرية فى الإسلام ، فيتكلم عن الحرية الشخصية ، بحماية النفس وحماية المسكن وحماية العقيدة ، وحماية الفكر ، والدعوة إلى التفكير المستقيم ، وحرية إبداء الرأى بالقول وحرية التعلم ، وهو فى إثبات تلك القضايا يغترف من معين لا ينضب ، وهو معين الكتاب والسنة وآثار السلف الصالح رضى الله تبارك وتعالى عنهم .

وفى هذا الباب يتكلم عن الرق فى الإسلام ، ودعوة النبى عليه السلام إلى العطف بالرقيق ويسترسل فى الكلام فى الرق ، فيأتى بتاريخ الرقيق ، ووجوده فى كل الأمم قبل الإسلام ، وإقرار كل الشرائع له من غير استنكار مع الاتساع فى أسبابه ، ويبين أن الإسلام لم يبتدئه ، ولكنه جاء فوجده ،

فضيق من أسبابه ، وخفف من معاملة الأرقاء ، وأعطاهم حقوقاً إنسانية كبيرة وفتح لهم باب العتق على مصراعيه ، واعتبره تكفيراً لكثير من الذنوب ، وجعله فى ذاته قربة من القربات ، وساق فى ذلك الأحاديث ، والآيات الواردة فى هذا الموضوع ، وبين أنه يمنع ضرب الأرقاء إلا لمعصية الله أى عقوبة لذنب ارتكبه فى جنبه ، لا لمخالفة له ، ويروى فى ذلك قول النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : « اضرب عبدك إذا عصى الله ، واعف عنه إذا عصاك » وبين أثر أوامر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وهدايته فى أصحابه ، ويروى فى ذلك قول على كرم الله وجهه : « إنى لأخجل من نفسى إذا استعبدت رجلا يقول الله ربى » .

٦ — ويتكلم فى الفصل السادس عن الديمقراطية فى الإسلام ، فيتكلم عن المشاورة فى الإسلام ، ويسوق فى ذلك الآيات الموجبة لها التى تجعلها دعامة الحكم الصالح الذى لا يرهق الشعوب من أمرها عسراً ، ويبين أن الإسلام لا يقر الحكم بالوراثة ، ثم يسوق الأخبار عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وعن صحابته فى أخذهم بالشورى ، والنزول عند حكمها فى إدارة شئون الدولة ، وتنظيم أساليب الحكم ، بل فى إدارة الحروب .

ويشير إلى أن أساس الديمقراطية رفع منزلة الضعفاء ، وتقدير آرائهم وتفكيرهم ، وتشجيعهم على القول والعمل .

ويبين الشورى فى اختيار نظام الحكم ، أى فى أصله ، ويسوق أخبار الصحابة من بعد النبى عليه السلام ، وتأسيهم به فى عملهم من بعده .

٧ — وقد تكلم من بعد ذلك فى الفصل السابع عن العدالة فى الإسلام ، وفى هذا الفصل يتكلم عن حال العالم فى حكم الأكاسرة وملوك الروم ، ويتكلم بعد هذا على العدالة فى الإسلام ، باعطاء كل ذى حق حقه ، ويتعرض — من غير إيغال — للعدالة فى المعاملات ، ويبين أن تحريم الربا من قبيل العدالة فى المعاملة ، ويذكر أمر القرآن والسنة بالعدالة مع الولى والعدو على سواء ، ويذكر من سيرة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وأعماله ما يدل على شدة إيمانه بالعدل ، وحث المسلمين قولا وعملا عليه ، ويبين فضل العدالة من الحاكم ، فيروى قول النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : « لعمل الإمام العادل فى رعيته يوماً واحداً أفضل من عبادة العابد فى أهله مائة عام أو خمسين عاماً » ، كما يروى الآثار المروية عن مغبة ظلم الحاكم الظالم ، فيروى مثلا قوله عليه السلام : « أشد الناس عذاباً يوم القيامة من أشركه الله فى سلطانه فجار فى حكمه » ، ويروى أخبار الصديق وأخبار عمر ، ويعقد لكل خليفة من الراشدين جزءاً من هذا الفصل يبين فيه عدله ، ويروى فيه كلامه .

٨ — ويتكلم فى الفصل الثامن عن المساواة ، ويوازن فى هذا بين ما جاء به الإسلام ، وما جاءت به الثورة الفرنسية ، ويبين أنه لا سيد ولا مسود فى الإسلام ، وأنه لا تفاوت إلا بالعمل الصالح ، وأن الحقوق والواجبات متساوية ، ويبين أن الغرور هو الذى يوسوس لبعض الناس بالتعالى على غيرهم ، والتواضع هو الذى يذهب بالغرور ، ويحقق المساواة النفسية الصادقة ، وأن التواضع يؤدى إلى كمال التعاون وإلى كمال المؤاخاة ، وإلى كمال التصافى ، ولذلك كان حث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم

على التواضع ، ونهيه عن الغرور فإن مداخل الشيطان إلى نفوس الآحاد والجماعات تكون منه .

ويبين المساواة فى تطبيق القوانين ، كما يبين أن المساواة أساس الديمقراطية ، وإنه يبين أن المساواة لا تقتصر على التعامل مع المسلمين ، بل تشمل غير المسلمين الذين يعيشون مع المسلمين ، لهم ما لهم ، وعليهم ما عليهم .

ويسوق فى باب المساواة المعاملة الخاصة بالخدم والرقيق ، ويذكر فى ذلك الأخبار الكثيرة الواردة فى هذا المقام ، غير مكتف بالأمثلة ، بل كان يحاول الاستيعاب .

٩ — ويتكلم من بعد ذلك فى فصول الكتاب الأخيرة على التعاون فى الإسلام ، أو الاشتراكية فى الإسلام فيتكلم على التعاون على البر والتقوى ، ويكرر الكلام فى عناية الحكام بشئون الرعية ، وعلى الأخوة الحق التى تربط المسلمين ، وأن التعاون مظهرها ، ثم يتكلم على حقوق الفقراء وعلى الضعفاء .

ويتكلم فى الفصل العاشر على التكافل الاجتماعى وكيف كانت المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ، ويتكلم عن الإحسان وتنظيمه ، وعلى غرس الروح الإنسانية فى الشعوب ، ويكرر القول فيما بين الأغنياء والفقراء ويتكلم عن العمل فى الإسلام ، وفضله وثمراته .

١٠ — ويختم الكتاب بفصل قيم فى التربية الإسلامية ، ويذكر فيه تحريض النبى صلى الله تعالى عليه وسلم على التعلم ، وحثه عليه ، ويبين الغاية من التعلم فى الإسلام ، وأثر العلم والتهذيب فى الجماعات الإسلامية .

ويطرق موضوعاً هو من أخص أهل الخبرة فيه ، وهو طرق التربية عامة ، وفى الإسلام خاصة ، ويخوض فى ذلك خوض العارف المتمكن ، ويذكر أوصاف المتعلم فى الإسلام ، وخواص المعلم المنتج ، وما يجب أن يتحلى به من صفات ثم يتكلم عن حقوق المتعلمين وواجباتهم ، ويخوض فى مبادئ التربية الإسلامية مبيناً مناحيها واتجاهها ، وما وصل إليه المفكرون فى الإسلام قبل علماء التربية الحديثة ، ويذكر فى ذلك حرص الإسلام على العناية بتربية الأجيال ، حتى ليقرر أن الإسلام فيه إن التربية للأبناء ، خير من الصدقة للفقراء .

ويبين فى هذا الفصل دراسات المسلمين للنفوس ويشرح ما سبق به ابن سينا من طرق العلاج للنفس ويشير فيما يكتب إلى كبار المربين فى الإسلام كابن خلدون ، والغزالى وابن الجوزى .

١١ — والكتاب فيه ثروة مثرية من الأحاديث الموجهة المربية ، ففيه قبسة نبوية نورانية تهدى أولى الأبصار ، ويبين عناية الإسلام بالمجتمع آحاداً وجماعات وشعوباً ، وهو فيما يكتب يستظل بظل القرآن ، ويهتدى بهدى النبى كاشفاً عن الجواهر المكنونة ، فيكشفها للناس ذات بريق مضىء .

والكتاب مكتوب بعبارات جزلة واضحة نيرة ، تعد من الكتابات بالفصحى التى لا تخالطها عجمة قط ، وهى نقية لا يشوبها خطأ فى نحو أو تسطير ، ومستقيمة فى مناهجها لا اعوجاج فيها ، فهى مثل للكتابة العلمية بالفصحى من غير توعر ، ولا مجافاة للمأنوس من الألفاظ والأساليب .

١٢ — ومع ذلك الفضل الذى امتاز به ذلك الكتاب القيم نلاحظ عليه ملاحظات لا تغض من من قيمته وهى كنقط سوداء فى ثوب أبيض ناصع البياض ، ولذلك تكون واضحة ، ولو كان دون ذلك نصوعاً ما وضحت فيه ، إذ تختلط اغبراره بسوادها ، فيتشابهان ، ويتشاكل الأمر ، ونذكر من هذه الملاحظات :

(أ) إنه لم يكن ترتيبه محكماً ، وتنظيمه منسقاً بل كان فيه اختلاط فى المعانى ، ولذلك كان فيه

تكرار فى كثير من الأفكار التى اشتمل عليها ، حتى إنه لتختلط المقاصد فى فصوله ، فلا يتميز كل فصل فيه بكيان خاص به ، بحيث يتبين منه مقصد قائم فى ذاته ، غير مدغوم فى غيره ، وإن ارتبط به .

(ب) وإنه فوق ذلك لم يكن دقيقاً فى بعض ألفاظه وعباراته ، ومن ذلك أنه يقول عن أسامة ابن زيد إنه كان عبداً ، فيقول : «كان أسامة بن زيد مولى لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم» ويقرن فى الهامش كلمة مولى بكلمة (عبد)[1] وهنا خطأ من ناحيتين : الناحية الأولى أن أسامة بن زيد كان حراً ابن عتيق ، فان النبى أعتق أباه ، وألحقه به ، حتى ألغى الإسلام التبنى ، وولد أسامة حراً على الحرية . والناحية الثانية من الخطأ ، أن تفسير المولى بالعبد غير صحيح ، وخصوصاً بالنسبة لأسامة رضى الله عنه ، بل إن كلمة المولى تطلق على السيد ، وتطلق على العبد ، وتطلق على العتيق وذريته ، ثم صارت تطلق فى بعض العصور الإسلامية على غير العرب من المسلمين .

وكذلك لم يكن دقيقاً عندما وصف عبادة بن الصامت بأنه عبد أسود ، فهو يقول عن عمرو بن العاص : «أرسل إلى المقوقس وفداً يرأسه عبد أسود يدعى عبادة بن الصامت[2] ، وهو من عظماء الصحابة المتفقهين فى الدين» فما كان عبادة بن الصامت عبداً إبان ذاك ، وما أحسبه إلا حراً لم يدخل نسبه رق .

ويقول : «قد أباح الإسلام أن يتزوج أمة سوداء ، ويستشهد بالآية : «ومن لم يستطع منكم أن ينكح المؤمنات . . .» وهذا النص عام يشمل البيضاء والسوداء ، فلماذا يخص السوداء بامتياز الإباحة ؟ أخشى أن يكون فى ذلك ما يوهم التفرقة باللون .

(١) الأصل والتعليق فى صفحة ١٤٠
(٢) صفحة ١٤٢

(حـ) وإنه ينقصه الاستشهاد المحكم ، فهو مثلا يستشهد على بغض الإسلام للنظام الوراثى[1] بما حكاه الله تعالى عن بلقيس إذ يقول «قال سبحانه : «إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها . . .» وترك قوله تعالى : «قالت ونسى أن الكلام فى حق نبى الله تعالى سليمان عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم السلام» وكان يمكنه أن يستشهد ، بغير ذلك .

(د) وإنه قد تكلم الكاتب فى الرق ، وبين عطف الإسلام على الرقيق ، وإعطاءه حق الإنسان كاملا وكنا نود أن يتكلم فى شرعية الرق فى الإسلام وأنه لم يجئ نص صريح فى القرآن باباحته ، وأن محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم لم ينشئ رقاً على حر قط ، فلم يسترق ، وأعتق كل من كان تحت يده من رقيق كان بحكم ما قبل الإسلام ، وكان عليه أن يبين أن الاسترقاق فى عهد الصحابة لم يكن إلا من قبيل المعاملة بالمثل فى الحروب أخذاً بقوله تعالى : «فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم» وأنه بتطبيق ذلك المبدأ لا يكون من حق المسلمين أن يسترقوا الأسرى إذا كانت الاتفاقات الدولية قد استقرت على أنه لا استرقاق ولو للأسرى ، لأن ذلك يكون من المسلمين اعتداء ، وقد نهاهم الله تعالى عن ذلك بقوله تعالى : «وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ، إن الله لا يحب المعتدين» .

ونقول فى ختام تعليقنا على ذلك الكتاب القيم إنه جدير بأن يقرأه كل مثقف ، ولا يغض من مكانته بعض مآخذ لا تنقص من قدره ، فلا كامل إلا كتاب الله ، كما قال تعالى : «ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً» .

وفق الله العاملين لخير الإسلام ، ورفعة شأنه ، وبيانه للناس .

محمد أبو زهرة

(١) صفحة ١٦٦

أضواء

وآراء

فى القومية والحرية والاشتراكية

بقلم
خيرى حماد

كان من دوافع حركة الإحياء للقومية العربية ، فى بداية هذا القرن العشرين ، حركة الاستعمار الصهيونى وتحالفه مع الاستعمار الغربى على احتلال فلسطين ، والتمكين للتحكم فى العالم العربى ، وحركة الطورانية أو التتريك العثمانى للعرب ، طمعاً فى استمرار استعبادهم بتجريدهم من القومية أمضى الأسلحة فى معركة النضال للحرية . . وقد واجهت حركة القومية العربية منذ البداية ، ولا تزال تواجه ، حرباً ضروساً من الاستعمار والصهيونية ، والمطامع الأجنبية فى وطننا الكبير الخالد . .

ذلك بأن القوى الاستعمارية القديمة من أوروبية وتركية ، قد عرفت أن القومية العربية ، ونتاجها الطبيعى بشقيه التقدم والوحدة ، من شأن انتصارها ، أن يعيد للعرب ماضيهم الحضارى العالمى ، ودورهم القيادى فى المجتمع الدولى ، وأن يسد الأبواب فى وجه الاستعمار والاستغلال الأجنبى .

وذلك بأن الصهيونية ، فى خطتها للعدوان على فلسطين العربية ، قد أدركت فاعلية المعانى القومية ، فابتدعت قومية ملفقة ، لا وجود لها فى التاريخ ولا سند لها من الواقع ، أسمتها القومية اليهودية ، وتكلفت كل جهد لكى تجمع من حولها المغامرين الصهيونيين الموزعين قوميات وأمماً فى مختلف أقطار

العالم ، وتهاجر بهم إلى فلسطين ، خدمة للأهداف الأجنبية العدوانية فى العالم العربى خاصة ، وفى العالم الأفريقى الآسيوى عامة . . .

وذلك بأن أعداءنا يعرفون تاريخنا ، ويعلمون حق العلم أن القومية أو الوحدة العربية ليست حركة جديدة ، بل هى حقيقة راسخة ، تضم أقسام وطننا الكبير جميعاً ، على اختلاف عروق أبنائه ونحلهم ، لا مجال فيها لتفوق جنسى أو امتيازى ملىء كما يعلمون حق العلم أن أبنـــاء الأمة العربية توحدهم مقومات اللغة والذهنية ، والتاريخ والحضارة ، والوطن بصوالحه وأهدافه المشتركة ، والأخطار والمطامع الأجنبية التى تهددهم جميعاً . . .

ولهذا لم يكن عجباً أن تتشابه أساليب الاستعمار ، على اختلاف ألوانه ، فى محاربة القومية العربية ، وفى محاولة القضاء على مقوماتنا الأساسية من اللغة والثقافة والفكر ، وفى تشويه تاريخنا وحركات نضالنا القومى المتصل عبر العصور والأجيال ، وفى أعمال التقسيم وإقامة الحدود المصطنعة والفواصل الشاذة بين البلاد العربية .

وصمدت القومية العربية فى نضالها ضد الاستعمار والصهيونية نحو سبعين عاماً ، وكسبت بعض المكاسب لكنها ظلت جزئية موقوتة ، لأن تحالف قوى الاستعمار الخارجى مع قوى الخيانة والتخلف الداخلية كان أشد بأساً ومكراً . ولهذا فان ثورات عرابى وكامل وزغلول وغيرهم فى مصر ، وثورات العراق وفلسطين وسورية ولبنان وليبيا وتونس والجزائر والمغرب ، لم تؤت ثمراتها المرجوة ، وإن هيأت لما بعدها ، وظلت أعلاماً هادية فى سبيل الحرية لأمتنا ولجميع الأمم المغلوبة على أمرها . .

وجاءت جامعة الدول العربية ، فى عام ١٩٤٥ أول تعبير رسمى فى هذا العصر عن القومية العربية ؛ لكن الالتفاف الاستعمارى الرجعى من حولها جعلها أبعد ما تكون عن تحقيق آمال أمتنا فى الوحدة . فقد احتفظت الدول الأعضاء فى ميثاق الجامعة بما أسمته خداعاً الاستقلال والسيادة ، على حين لم تكن أى منها مستقلة بشئونها ولا سيدة على أراضيها . وكأنما احتفظت فى الواقع للاستعمار الأجنبى بالسيادة على وطننا ، والاستغلال الجائر لثرواتنا وامكاناتنا ، وتعطيل مسيرتنا نحو الحرية والتقدم والوحدة . كما استطاع الاستعمار الجائر وأدواته فى الداخل تجميد الاتفاقات التى عقدت فى نطاق الجامعة ، والتى تحقق تنفيذها الوحدة العربية : سياسياً وعسكرياً واقتصادياً واجتماعياً . . .

لكن فجر القومية العربية الباهر ، قد تنفس بمطلع ثورة الثالث والعشرين من يوليو (تموز) لعام ألف وتسعمائة واثنين وخمسين . فقد نقلت ثورة مصر العربية القومية والوحدة نقلة واسعة المدى ، فأصبحتا قاعدتى السياسة الرسمية للدولة ، والدفع الثورى للشعب المصرى أكبر الشعوب العربية ؛ وحققت انتصارات تاريخية فى المجال القومى وعلى الصعيد الدولى ، وفتحت الأبواب واسعة لتصفية الاستعمار فى العالم ، وأعلت كلمة الحرية فى كل مكان .

وآمنت الثورة منذ البداية بأن الوحدة لا يمكن بلوغها إلا بتحرير الإنسان العربى من جميع مظاهر الاستغلال والاستعباد ، وبتحرير البلاد العربية كلها من ألوان الاستعمار والتبعية كافة . وفى السنوات الأولى حررت الثورة الإنسان العربى فى مصر من

الاستغلال ، كما حررت مصر من الاستعمار والتبعية العسكرية والاقتصادية .

وفى ذات الوقت حلت مشكلة السودان وفتحت له باب التحرر من الاستعمار البريطانى ، كما عملت مع حركة تحرير الجزائر يداً واحدة وقلباً واحداً ، وأسقطت حلف بغداد ، وآزرت استقلال تونس والمغرب والكويت . وعملت ، ولا تزال تعمل ، لتحرير فلسطين وعمان والجنوب المحتل والخليج العربى ، وبناء مستقبل اليمن على قاعدتى الحرية والتقدم . وذلك كله إيماناً بمبدأ الحرية العربية التى لا تتجزأ ، وتطبيقاً لهذا المبدأ فى أوسع ألوان التطبيق وأصدقها ، وخلقاً لفاعلية حاسمة فى ميدان القومية العربية لم يسبق للتاريخ أن جاء بمثلها .

وهكذا ، أصبحت حركة القومية والوحدة العربية ، حقيقة محركة فعالة فى المجال القومى ، يتنادى بها العرب أينما كانوا . كما أصبحت قوة معترفاً بها فى المجال الدولى تفرض نفسها دائماً ، وإن حاول البعض أن ينحرف بها أو ينال من قوتها التى لا يمكن النيل منها .

وفى يوليو (تموز) لعام ١٩٦١ ، استقرت الحركة الوحدوية على قواعدها الراسخة ، ألا وهى قواعد الاشتراكية العربية . فاشتراكيتنا ، بالاكتفاء والعدل ، درع الوحدة وأقوى حوافزها . وهى ، بما يتوجها من الإيمان وبما تنكره من صراع الطبقات اشتراكية قومية أصيلة ، ناجمة من حقائقنا وأخلاقنا وديننا ومثلنا العالية ، خالدة خلود هذه المقومات جميعاً . . .

وحركة القومية العربية ، حركة متطـــورة متجددة ، تفيد من التجارب بخطئها وصوابها ، ويسهر عليها جمال عبد الناصر الرائد القومى الحكيم ، أو رجل القرن الرابع عشر الهجرى كما أسماه المؤرخ الأمريكى المعاصر : جورج كيرك .

ولقد تبلورت حركة القومية العربية ، بعد نكسة الانفصال فى سبتمبر (أيلول) لعام ١٩٦١ ، والمؤامرات العدوانية المتصلة من قبلها ومن بعدها — إلى عملين متكاملين . ويستهدف العمل الأول الكبير توحيد القواعد الشعبية فى البلاد العربية على مبادئ الحرية والاشتراكية ، والالتقاء على نظم سليمة ، والتقدم من ذلك إلى الوحدة الشاملة المأمولة ، يحرسها شعب واع وفكر رشيد . وقد حقق هذا العمل فى بدايته انتصارات هادية فى طريق النضال القومى رغم ما يصادفها من عقبات ، وستحقق فى المستقبل لا ريب انتصارات أقوى وأعظم .

ويستهدف العمل الآخر ، دعم التعاون فى الميدان الرسمى : جامعة الدول العربية ، رغم ما يحيط به من صعاب وما يكتنفه من تناقضات . . وفى هذا النطاق دعا الرئيس عبد الناصر إلى مؤتمرات القمة العربية ، مواجهة للتحرك الاستعمارى الصهيونى الجديد ، فى نهاية عام ١٩٦٣ . واجتمعت مؤتمرات القمة العربية فى دورات ثلاث بالقاهرة والإسكندرية والدار البيضاء .

وأسفرت عن التزام بخطة للعمل العربى المشترك ذات قاعدة وأربع شعب . أما القاعدة فهى دعم التضامن القومى أساساً لا غنى عنه لوحدة العمل العربى . وأما الشعب الأربع فهى تنفيذ المشروع الموحد لاستثمار مياه نهر الأردن فى سورية ولبنان والأردن دفعاً للعدوان الإسرائيلى على المياه العربية ، وإنشاء القيادة العربية الموحدة مواجهة للمسئولية المشتركة ، وإبراز الكيان الفلسطينى قوة فى معركة تحرير فلسطين ، وتوحيد الجهود العربية سياسياً واقتصادياً وعلمياً .

وإذا كان التضامن العربى لا يزال مهلهلا ، والمشروع الفنى لاستثمار مياه نهر الأردن يتلكأ فى مسيرته ، وتوحيد الجهود الاقتصادية يمضى بخطى

وثيدة غير فعالة ، فان منظمة التحرير الفلسطينية وجيش التحرير الفلسطيني والقيادة العربية الموحدة ، والوحدة الاقتصادية ظهرت حقائق فى الوجود العربى وإن كانت لا تزال تفتقر إلى الدعم والتأييد الجماعى .

ومهما يكن من أمر المستقبل لوحدة العمل العربى ، فقد كانت تجربة ناجحة ، وستظل شأن غيرها من الخطوات الوحدوية التى تحققت فى الفترة الأخيرة علامات هادية فى سبيل النصر القومى الحاسم . فالتجارب التاريخية الناجحة لا تفنى أبداً ، ومن شأن العقبات والنكسات أن تزود قوى المؤمنين المناضلين بأسلحة جديدة للتغلب على العقبات والتحصن ضد النكسات ، وأن تضم إليها قوى جديدة تدعمها وتشد أزرها فى معركتها الطويلة المظفرة : معركة المستقبل والمصير العربى . .

* * *

هذه هى الأفكار التى خطرت ببالى ، قبيل اطلاعى على كتاب : « أضواء وآراء فى القومية والحرية والاشتراكية » ، للأستاذ خيرى حماد . .

وهذا دأبى منذ سنين طوال فى الكتابة والبحث ، أجيل فى خاطرى ما يمكن أن يتناوله الكتاب من عنوانه قبل مطالعته ، ثم أقابل بعد المطالعة بين تصورى وتصور الكاتب للموضوع .

وقد تبينت بعد الاطلاع على الكتاب أنه قد ضم مقالات ومحاضرات قيمة عن قضايا الأمة العربية ، وحركتها الصاعدة للحرية والاشتراكية والوحدة ، حتى عام ١٩٦٤ ، وحين كانت وحدة العمل العربى فى قمتها، ولم تلم بها انتكاسات عام ١٩٦٥ وما بعدها.

ويضم الكتاب اثنين وعشرين موضوعاً ، من العسير أن يجمعها عنوان واحد ، ولذا وردت بأرقامها تباعاً ، وإن حاول المؤلف أن يقسمها إلى أربعة أقسام أساسية :

القسم الأول فى القوميــة ، ويضم خمسة موضوعات عن القومية العربية ، والقومية المتفتحة والعنصرية المغلقة ، والثقافة بين المفهومين الاشتراكى والبرجوازى ، ودور الشباب فى المعركة العربية ، ودور العمال فى المجتمع الاشتراكى والبناء القومى .

والقسم الثانى فى الحرية والثورة ، ويضم ثلاثة موضوعات عن الحرية والديموقراطية بين المبدأ والهدف ، والثورة طريق التحول إلى الحرية ، وسياسة اللاانحياز أساس الحرية .

والقسم الثالث فى الاشتراكية ، ويضم ثمانية موضوعات هى الاشتراكية بين المبدأ والهدف ، والاتحاد الاشتراكى العربى نواة التنظيم الثورى العربى ، وبناة السد يصنعون الإنسان الاشتراكى ، والتعاونية الليبرالية بين الاشتراكية والرأسمالية ، والبرجوازية فى المفهوم الاشتراكى ، والتخطيط طريق الإنسان العربى ، وخطر البيروقراطية فى مرحلة التحول ، والضمان الاجتماعى فى النظــام الاشتراكى .

والقسم الرابع موضوعات عربية أخرى ، أو بلا عنوان ، ويضم ستة موضوعات هى الجزائر تواجه التحديات ، وموجات التحرر فى اليمن والجنوب ، وبعد قيام الكيان الفلسطينى ، وذكريات عن ثورة فلسطين ، والقصة السرية لوعد بلفور ، ومذكرة سرية إلى لجنة ملكية . . .

وهذه أول المآخذ على الكتاب . فهو يفتقر إلى وحدة الموضوع القائمة على التخطيط العلمى المدروس التى أصبحت أساساً لكل عمل علمى أو أدبى نافع ، وخاصة فى ثورتنا الحالية .

وعندى أن هذه المقالات والمحاضرات التى جمعت جمعاً فى هذا الكتاب ، تدور حول محور واحد قيم ، هو شرح مبادئ الميثاق الوطنى ، وتفسيرها وإيراد أطراف من تاريخها ، وأن خير

عنوان لها هو « نظرات فى ميثاق العمل الوطنى » . أما الموضوعات الأخرى التى استعصت على العنوان فكان من اليسر إدخالها فى باب الحرية والثورة ؛ فهى جميعاً من موضوعات الحرية السياسية والاقتصادية ، ومناهضة الاستعمار الصهيونى . . .

والمأخذ الثانى ، مأخذ طبيعى فى هذا اللون من المقالات والمحاضرات ، وهو العجلة بما تنطوى عليه من أخطار . . ويدفعنا إلى هذه الملاحظة أن المؤلف قد عاب فى عدة مواضع من كتابه الذين يخلطون بين المبدأ والهدف ، ولا يحددون ألفاظهم تحديداً دقيقاً . على حين اتخذ تفسيراً واحداً حاول فرضه ، وتكلف فى ذلك من الجهد ما لم يكن فى حاجة إليه . فالمبادئ والأهداف والمقدمات والنتائج ، والعقائد والمذاهب والنحل ، مصطلحات قد تتعدد مدلولات بعضها بتعدد الموضوعات التى ترد فيها ، ومن العسير تقييدها بتعاريف جامعة مانعة .



ومن المآخذ ، مثلا فى هذا ، قول الكاتب عن العقيدة إنها « هى التى تنبع من المبدأ وهو الذى يحولها بدوره إلى هدف متحرك ، يعبر عن حاجات المجتمع الإنسانى المعين فى مرحلة زمنية محددة معينة . . . بعقيدة تحمل طابع الشمول . . . يتحتم على العقائد النابعة من المبادئ أن تكون مرنة بحيث تتكيف مع الواقع الاجتماعى ، تكييفاً لا يخرجها عن الجوهر والأساس . . الخ » ومن العسير على الإنسان أن يجمع بين الشمول ، والتوقيت والمرونة . وإذا أراد بالعقيدة المعنى العام ، فالعقائد أبعد ما تكون عن المرونة ، ولهذا ينفر منها الفلاسفة فى أحاديثهم عن المبادئ الحرة . وإذا أراد الأيديولوجية ، فهى جماع الآراء وأساليب التفكير المميزة لجماعة أو جنس أو إتباع ملة أو مذهب سياسى . أو هى برنامج فلسفى . وهو تعبير ابتكره ديستوف دى تراسى لتحليل النظريات العامة إلى الأحاسيس التى تصدر عنها ، بديلا لأسلوب ما وراء الطبيعة . . . كما أنه من العسير أن يقتنع الباحث بقول الكاتب من بعد ذلك : « إن القومية . . . تستند إلى قانون علمى ثابت لا يتبدل ولا يتغير . . . » .

والحق أنى لا أريد الإيغال فى هذا اللون من النقد إلا بمقدار ما أشير إلى أن الحرية والاشتراكية والوحدة ، التى نؤمن بها ، أهداف واضحة صريحة لا تحتاج إلى كثير من التعقيد ، وأن المحاضرات أو المقالات فيها ينبغى أن تتسم بالبساطة واليسر ، وأن البحث الفلسفى فى نشأتها وتطورها ودواعيها يتعين أن يلتزم بأسلوب علمى سليم ، وأن يكون موضعه الدراسة المكينة لا المقالة العابرة ولا الخطاب السريع .

ومن المآخذ كذلك ما ذكره المؤلف فى حديثه عن الحركة العربية الواحدة ، إذ قال : « إنها لا تتحمل حتى وجود التجربة والخطأ والصواب لأنها لا تقل فى خطورتها عن خطورة اللعب بالنار » ، فذلك

قول أقرب إلى اليأس منه إلى الأمل الدافع إلى المزيد من العمل ، كما أنه يجافى طبيعة الأشياء وحركات النضال ، بل الحياة ذاتها . ثم قوله إن تنظيم هذه الحركة : « قد يكون سرياً ، بل يجب أن يكون كذلك فى بعض الأجزاء العربية . . » ولا ريب أن هذا يتنافى مع طبيعة الحركة وقواعدها القومية وأهدافها الحرة السامية ، كما يتنافى مع أسلوب العصر الذى ينكر السرية المطلقة فى أى سياسة ، ما دام نجاحها رهنا باقتناع الرأى العام القومى أولا ، وتأييد الرأى العام العالمى ثانياً . . .

وكلمة أخيرة أود أن أشير إليها ، وخاصة لاتصالها بما تحاوله الصهيونية من إضفاء المحامد والقدرات على زعمائها خاصة وعلى اليهود عامة . فقد ضرب المؤلف لاتفاق العلم والوطنية « مثل وايزمن ، الذى سخر علمه واختراعه فى الحرب الكونية الأولى للحصول على نفع سياسى لجماعته ، وهم اليهود ، متمثلا فى وعد بلفور الذى صدر فى عام ١٩١٧ » فوعد بلفور له مقدماته ومخططه الاستعمارى الأعمق من هذا العرض الطارئ ، وقد بان أن اختراع وايزمن لمركب الأسيتون أو (T.N.T.) خرافة روجتها الصهيونية ثم رددتها فى أعقاب العدوان الثلاثى دار هرست الأمريكية الخاضعة للنفوذ الصهيونى ، وأن وايزمن ذاته يشير فى مذكراته إلى أنها من الخيالات المسرحية التى أضفيت على أعماله . . .

وبعد ، فاننا أحوج ما نكون إلى النقد فى هذه المرحلة الحاسمة من تاريخنا . ولا أود مطلقاً أن يفهم هذا النقد على أنه انتقاص من الكتاب أو مكانة كاتبه . . فالكتاب مفيد أعظم الفائدة بما توفر لصاحبه من اطلاع واسع وإلمام وفير ، وبما يفيض به من إيمان بأمتنا وحريتها وبحاضرها المظفر وبمستقبلها الأغــر . . .

وهو لهذا عظيم الغناء للمكتبة العربية ، وخير دافع إلى إخراج المؤلف للمزيد من أمثاله . .

د . سيد نوفل

جولة بين الكتب

إسرائيل الزائفة

تاليف : فريد عبدالله جورجى

الناشر : الدار القومية — كتب قومية — ١٤٧ ص ١٧ × ٢٤ سم

ث ٥ قروش

يبحث الكتاب فى المسألة الفلسطينية من ناحيتين ، الأولى تاريخ الحركة الصهيونية منذ البدايات الأولى لها ، والثانية تفنيد ادعاءات اليهود وبيان بطلانها ، مع الرجوع إلى الكتاب المقدس نفسه .

مبادئ الراديو

تاليف : تشارلز هيلمان

ترجمة : د. محمد يوسف الأبيارى

مراجعة وتقديم : د. همام محمد محمود

الناشر : الأنجلو المصرية بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين ٤٢٨ ص ١٧ × ٢٤

ث ١٠٥ قرش

يتحدث الكتاب بأسلوب علمى مبسط عن الأسس الكهربية والعلمية التى يرتكز عليها الراديو والتليفزيون ، مع إيراد الكثير من التجارب والأمثلة العديدة ، لشرح أفكار الكتاب . وذلك فى عشرين باباً ، تضمنت الكثير عن النظريات الكهربية الأولية والتيار المتردد وأجهزة الإرسال والهوائيات وغير ذلك من الموضوعات التى تهم القارئ .



أتباع سان سيمون

فلسفتهم الاجتماعية وتطبيقها فى مصر

●

تأليف
الدكتور محمد طلعت عيسى

●

الناشر : الدار القومية للطباعة والنشر
سلسلة رسائل جامعية - الكتاب الأول
٣٥٢ ص - ٢٠×٢٨سم - الثمن ٧٠

قد يحق لقارئ عربي ، على غير صلة بالفلسفة الاجتماعية فى أوربا فى القرن الثامن عشر — أن يسأل هذا السؤال : من هو سان سيمون هذا ؟ وقد يحق لقارئ عربي مصرى أن يخطر على باله — على الفور — سؤال آخر : هل كان لهذا الرجل أتباع ومريدون ؟ وهل جاءوا إلى مصر ليضعوا فيها مجالا تطبيقياً لفلسفتهم الاجتماعية التى أخذوها من أستاذهم ورأس مذهبهم ؟ ومتى كان ذلك ؟ وهل جاءوا إلى مصر فرادى أم جماعات ؟

ونحن نتكفل هنا – من مادة هذا الكتاب العظيم نفسه – بالجواب عن هذه الأسئلة وعن غيرها مما يدور حوله موضوع هذا العمل العلمى الذى كان فى الأصل رسالة حصل بها صاحبها : الدكتور محمد طلعت عيسى ، على درجة الدكتوراه فى الآداب من جامعة القاهرة بمرتبة الشرف الأولى .

ولو أن الفيلسوف الفرنسى « سان سيمون » كان رائداً من رواد الفكر الاجتماعى فى فرنسا فى أخريات القرن الثامن عشر ، وفى الربع الأول من القرن التاسع عشر ، لكفاه ذلك أن يكون موضوع رسالة جامعية يطول فيها البحث ، وتتسع الدراسة ، ويتسع معها مجال التتبع . ولكن للرجل صفة أخرى تضفى عليه وعلى مذهبه وعلى أتباعه وتلاميذه أهمية خاصة ، وتجعل له بين الدراسات الفلسفية العربية مكاناً ممتازاً ، ومحلا جديراً بالتقدير والاهتمام .

فسان سيمون فيلسوف عملى ، بل هو – عند كثير من مؤرخى الفلسفة المعاصرين – أول داعية لنشأة علم الاجتماع ، الذى ينسبه آخرون – كثيرون أيضاً – إلى تلميذه وكاتم سره : « أوجست كونت » .

والذين يؤكدون فضل سان سيمون على نشأة علم الاجتماع الحديث ، بل ينكرون أبوة « أوجست كونت » له ، هم جماعة من صفوة المفكرين ، منهم برودون ، وكارل ماركس ، وإميل دوركهايم ، وماكسيم لروا ... إن برودون يقرر : (أن نظريات أوجست كونت الاجتماعية ليست إلا تكراراً لنظريات سان سيمون التى شوهها معاونوه) وكارل ماركس – على خطره فى الفكر الاقتصادى – كان يلجأ إلى عبارات بأكملها مما كتبه سان سيمون ليؤكد بها مذهبه ... وإميل دوركهايم يقرر فى كتابه عن الاشتراكية : (أنه يجب أن ننسب إلى سان سيمون – وحده – الشرف الذى ننسبه إلى أوجست كونت بأنه أنشأ علماً جديداً هو علم الاجتماع ...) ، وماكسيم لروا يقرر فى تأكيد : (أنه ليس أوجست كونت هو الذى أنشأ علم الاجتماع ، وإنما الفضل فى إنشائه يرجع إلى سان سيمون وحده ..) .

ولقد استطاعت آراء سان سيمون المفكر الفرنسى أن تجد لها ، بعيد وفاته سنة ١٨٢٥ بعقدين من السنين ، أنصاراً كثيرين ، ومؤيدين متحمسين بفضل تلاميذه وأتباعه الذين كانوا لا يستقرون بأرض – وسنرى عما قليل كيف جاءوا إلى مصر فى عهد حكم محمد على ، وكان الناس فى كل بلد حلوا فيه ونزلوا به يستمعون إليهم ، ويفتحون عقولهم وصدورهم لآرائهم – وهى فى الأغلب آراء أستاذهم ومعلمهم ..

وما ظنكم بالشاعر الألمانى الكبير « هاينى » يهاجر إلى فرنسا سنة ١٨٣٠ ، وما هو إلا عام واحد حتى يصبح فى عداد المستمعين المخلصين لأتباع سان سيمون ؟ وفى سنة ١٨٤٤ يصل كارل ماركس إلى باريس – أى بعد وصول « هاينى » إليها بأربعة عشر عاماً ، فيرشده هذا إلى معالم كثيرة من العاصمة الفرنسية ، ويعرفه بأتباع سان سيمون ، ويعقد الصلة بينه وبينهم ، فيتعرف إليهم ، ويتعمق دراسة مذهبهم ؟

وقد يكون هناك وجوه من الاتفاق أو التعارض بين أفكار سان سيمون ، وأفكار أوجست كونت ، ولكن من المؤكد أنه كان هناك خلاف مادى بين الرجلين : المعلم والتلميذ ، وصاحب المذهب وتابعه . فانفصل « كونت » عن أستاذه قبيل وفاته سنة ١٨٢٥ . ويروى لنا أوجست كونت قصة هذا الانفصال قائلا من رسالة له إلى أحد أصدقائه :

«لم يكن – يعنى انفصاله – فقط لأن سان سيمون قد حاول أن يقودنى لتحقيق مآربه الخاصة ،

ولكن الشيء الأكثر خطورة ، هو أنني تأكدت تأكداً لا مجال للشك فيه أنه صدم صدمة عنيفة عند ما رأى الجمهور ينظر إلى بنفس الاهتمام الذى ينظر به إليه وأن الممول الذى يرعاه قد بدأ ينظر إلى بعين العطف ، فأراد أن يجعل منى أداة لا حول لها ولا قوة فى يديه ... »

ولا ننظر إلى أثر هذا الانفصال فى واحد من الرجلين ، ولكن الذى لا شك فيه أن أوجست كونت قد استطاع بعد هذا أن يشق طريقه ، وأن يظهر واضعاً لعلم الاجتماع ومنشئاً له ، وإن كان الخلاف بين المعلم والتلميذ قد جر إلى لون من التعصب لهذا أو ذاك لم يتركها الدكتور طلعت عيسى دون أن يعرضها عرض الأمين المنصف فى غير جنف أو ميل . . .

والذى يلفت النظر فى آراء سان سيمون وفى سلوكه العملى فى الحياة كما عرضه الدكتور المؤلف هو ذلك التقلب والتغير الذى يكون سمة ظاهرة فى حياته .

ويبدو التقلب والقلق المادى فى عدم استقراره بأرض منذ نشأته ، فهو سريع التجوال ، كثير التطواف ، قليل المقام بأرض . . فحين قامت الثورة الأمريكية واندلعت نار حرب الاستقلال رأينا سان سيمون — وهو شاب ابن تسعة عشر عاماً — ينضم إلى صفوف المتطوعين من أشراف الفرنسيين ويرحل معهم إلى أمريكا سنة ۱۷۷۹ ليشترك مع آلاف المحاربين فى جيش التحرير . وهو بعد انتهاء حرب الاستقلال لا يشد الرحال إلى وطنه عائداً بعد أن أدى رسالته ، ولكنه يمضى إلى المكسيك ليعرض على حاكمها الأسبانى مشروع قناة تصل بين البحر والمحيط الهادى . . ويخفق فى مشروعه ، فلا يعود إلى وطنه فرنسا ، ولكنه يذهب إلى أسبانيا لغير سبب معروف تذكره لنا المراجع ، ولعله كان فى رأسه فكرة أو مشروع ! !

ويعود سان سيمون إلى فرنسا ، وتقوم فيها الثورة الفرنسية بعد فترة من الوقت ، ويشارك فى أحداثها ، ويرضى عن نابليون تارة ، ويسخط عليه أخرى ، فيضيق بأرضه ويتجه إلى الانطلاق نحو المجتمعات الأوربية ، فيبدأ بالخروج إلى ألمانيا « ليلمس عن كثب إلى أى مدى وصل الألمان فى ثقافتهم » ، ويخرج بعدها إلى انجلترا حيث يسجل فى مذكراته الخاصة عنهم أن « إنتاجهم ونشاطهم الفكرى لا يقوم على أى مبدأ أساسى جديد ، ولهذا فان الطريق مفتوح أمام من يريد أن يقيم دعائم المجتمع الجديد » .

هكذا كان سان سيمون يتقلب فى كل أرض ، ولقد اتجه إلى الغرب وإلى العالم الجديد دائماً فى أسفاره ، ولم يتجه إلى الشرق كما فعل أتباعه بعد وفاته . فان فكرة الاتجاه إلى الشرق عامة ، وإلى مصر خاصة ، لم تقم فى أذهان السان سيمونيين إلا بعد وفاة أستاذهم ومؤسس مذهبهم سنة ۱۸۲٥ . ونبتت هذه الفكرة بين جدران « سجن سان بلاجى » بفرنسا حيث كان « الأب أنفانتان » — أحد تلاميذ سان سيمون المخلصين — يقضى فترة العقوبة المحكوم عليه بها من أجل نشر هذا المذهب ، وما أكثر انجذاب الأب أنفانتان بسحر الشرق ومصر وهو يكتب عن ذلك فى مذكراته الخاصة :

« الشرق ! تلك الكلمة الساحرة المملوءة بالضياء والغموض !

الشرق الغامض غموض الصحراء ، الشرق معناه مصر . . مصر الساحرة . . أرض فرعون وموسى . . أرض النيل . . وما أدراك ما هى ؟ » .

وإذا كان سان سيمون قد تقلب فى أسفاره وتجواله بين العالم القديم والجديد ، فإنه قد تقلب فى حياته الطبقية بين الأرستوقراطية العالية ، والشعبية الوضيعة . . لقد كان بحكم مولده من طبقة النبلاء ،

فلما قامت الثورة الفرنسية انتخبه الفلاحون رئيساً لاتحادهم ، وهنا أعلن على الملأ تنازله عن لقب « كونت » واعتزازه بأن يكون مواطناً وحسب . . ولكن سلوكه فى خلال الثورة كان مشوباً بما أراب فيه العيون ، وشكك فيه الظنون . . فقد كان يغامر على صفقات مريبة بقصد الإثراء ، ووصل فعلا إلى حد أنه عد من الأثرياء . . . وكانت وظيفته فى أحد المصارف تمكنه من الصلات المريبة مع أصحاب الثراء . . . واتهم بأنه كان على اتصال بالمهاجرين وببعض أفراد الطبقة الأرستقراطية الذين لم يزالوا فى فرنسا ولم يخرجوا منها فراراً من الثورة . . . وانتهت الثورة الفرنسية ، وجاء بونابرت ، وكان لسان سيمون منه موقف . ولكن فى سنة ١٨٠٥ أخذ فيلسوفنا يعدل عن الأرستقراطية وما يلازمها من ترف وأبهة ومظاهر إلى حياة يغلب عليها البساطة والاقتصاد . واضطر أن يعمل مصححاً فى إحدى المطابع مرة ، وعاملا فى إحدى المكتبات أخرى . .

وكان سان سيمون يتقلب فى حبه وبغضه . .

فعند انتهاء الحكم إلى نابليون عقد عليه الرجل آمالا كباراً ، وكان عظيم الثقة فى مقدرته على إنهاء ما خلفته الثورة الفرنسية فى البلاد من فوضى . وكثيراً ما كان يعالن الناس بهذا الرأى . . ولكنه ما لبث أن تحول عن نابليون ، وانقلب عليه ، وصار من أشد خصومه عنفاً . . ولعل المبادئ الجمهورية التى تشبع بها فى الثورة الأمريكية كانت عاملا فى نظرته تلك إلى استبدادية بونابرت وحكمه المطلق . لقد بلغ به الحد فى خصومته لنابليون وحكمه الفردى الغاشم أنه كان يوازن بين ما قدمه هو أو غيره من أحرار الفكر للثورة الفرنسية من آراء تحررية ، وبين ما قدمه نابليون من أعمال تعسفية . . حتى لقد كان يعبر عن ذلك فى رسائله الخاصة إلى صفوة المفكرين الأحرار ، كرسالته إلى الأديبة الفرنسية المشهورة مدام دى ستايل التى يقول فيها : « إن مجرد الاعتقاد بأن سيدة مثلك تعيش تعيسة بسبب آرائها يثيرنى ويؤلمنى جداً . . هل استطاع هذا المدعو نابليون الذى حكم عليك بالنفى ، والذى يرى أن النساء لا يصلحن إلا للأمور التافهة ، أن يقوم بانتاج مثل ما قدمت من آراء لها أثرها فى تقدم الفكر الإنسانى ؟ لا ! . . . إننى أستشعر بالثورة على هذا الوضع » . ولكن سان سيمون المتقلب المتغير لم يصبر هذه المرة على الخصومة لنابليون ، فقد عاد إلى مسالمته بعد عودته من منفاه فى جزيرة إلبا ، خلال الأيام المائة التى قضاها فى الحكم بعد ذلك . . ولم يخف هذا التقلب والتناقض فى الرأى عند سان سيمون على أحد ، حتى من رجال عصره ، فقد لاحظوا ذلك وعابوه عليه ، حتى أن صحيفة فرنسا الرسمية الوحيدة فى ذلك الوقت — وهى المسماة بجريدة الإمبراطورية — كتبت فى عددها الصادر فى ٢١ أبريل سنة ١٨١٠ تقول : إن سان سيمون لا يتخذ مذهباً واحداً فى تفكيره ، ولكنه يعلن مذهباً للجمهور ، ويبطن مذهباً آخر يسره إلى أصدقائه وخاصته ...



وعلى الرغم من تقلب الأفكار والآراء عند سان سيمون كان ممتاز بالغرابة فى تلك الآراء

وطرافتها وبعدها عن مألوف ما يفكر الناس فيه . ولعل هذا هو السر فى كثرة تقلبه . . لقد كان كالنهر المتدفق التيار المتجدد دائماً لا يحب أن يرى ساكناً ولا آسناً . فهو لا يكاد يرى الرأى حتى يبدو له ما يخالفه مما يذهب فى الإصلاح والتقدم مذهباً أحسن وأقرب . . . ولعل نشاطه الذهنى الحاد مسئول عن هذا التقلب إلى حد كبير . .

ومن آرائه الطريفة الجديدة رأيه فى استخدام الموسيقى وسيلة من وسائل التثقيف الخلقى والصناعى عند العمال . فلقد بعث قبل وفاته بأربع سنين نداء وجهه إلى أحد رجال الصناعة البارزين فى فرنسا واسمه « برنو » يدعوه فيه إلى تنظيم فرقة أناشيد ، تقوم بانشاد « لحن الصناع » الذى ألفه الشاعر الفرنسى روجيه دى ليل . . وهو صاحب نشيد المارسيليز المشهور ... ومهما يكن المصدر الذى استمد منه سان سيمون فكرة النشيد العمالى فإن الدعوة إليه فى فرنسا تعد خطوة جديدة فى هذا السبيل .

ومن آرائه الطريفة الجديدة دعوته إلى كتابة التاريخ العلمى — أو تاريخ العلوم — وهو ذلك الفن الذى برع فيه مؤرخ معاصر من أهل زماننا هذا وهو العلامة جورج سارتون ، حتى صار حجة فيه — ويرى سان سيمون أن :

التاريخ فى نهجه القديم (يقصر نشاطه على تسجيل حياة الملوك) فى حين أن هذه الحياة لا تعنى شيئاً بالنسبة لنا ، ولكن التاريخ الحقيقى هو تاريخ العلوم الذى لا يزال طفلا فى المهد . فالتاريخ لا يعد دليلا كافياً للملوك ولا للأتباع ، وهو لا يعطى لفريق أو لآخر استنباط ما سيحدث مما حدث فعلا . فى حين أن الصفة التفسيرية للتاريخ ، والتى تعد حجر الزاوية للتاريخ العلمى هامة جداً ، إذ أنها تتيح التواجد فى التاريخ الحاضر ، ووضع الأسس التى تتبع فى المستقبل)

ومن مبتكرات آرائه السياسية ذلك الرأى الذى كتبه مشتركاً مع تلميذه وكاتم سره : أوجستين تيرى ، من ضرورة تجميع شعوب أوربا فى وحدة سياسية واحدة ، مع المحافظة على الاستقلال القومى لكل منها ، والفكرة الأساسية كما يعرضها الدكتور طلعت عيسى بقلمه هى أن فرنسا وانجلترة هما أكثر الدول تقدماً من الناحية الاجتماعية والسياسية فى ذلك الزمان ، لأنهما تعيشان فى ظل نظام نيابى وحكم ملكى دستورى وبرلمان من مجلسين ؛ وعلى ذلك فمن واجبهما أن توجها باقى الدول الأوربية فى نفس الاتجاه ، فيحل النظام النيابى محل النظام الطبقى الإقطاعى .

ومن طرائف آرائه فى الفن ووظيفته فى المجتمع ما نادى به أولا ، وتابعه مريدوه وتلاميذه وأتباعه بعد ذلك من أن الفن يجب أن يتجه وجهة اجتماعية ، حتى يؤثر فى الجماهير ، ويعاون على تماسك البنيان الاجتماعى .

ولقد بلغ من قيمة آراء سان سيمون المبثوثة فى رسائله ومؤلفاته التى يبلغ عددها خمسة عشر مؤلفاً ، أن الاتحاد السوفيتى قد قام فى سنة ١٩٤٨ بنشر طبعة جديدة لنخبة مختارة من مؤلفات سان سيمون ، تقع فى ثلاثة مجلدات ، وقد قام بالتقديم لها الفيلسوف « فوجلينيه » . وقد روعى فى هذه الطبعة أن تمثل آراء سان سيمون ، وتعطى صورة كاملة لأفكاره ، وبهذا يستدرك ما فى طبعة الأستاذ بوجليه من قصور فى تصوير هذه الآراء .

هذا هو سان سيمون كما عرضه الدكتور محمد طلعت عيسى فى شطر من كتابه ، أما أتباع سان سيمون ومدرسته والمذهب الاجتماعى لها ، وأما نشاط هؤلاء الأتباع فى مصر فى أوائل العقد الرابع من القرن التاسع عشر ، وتطبيقهم الاجتماعى للمذهب فيها ، فشطر آخر من هذا الكتاب .

والحق أن الشطر الثانى من الكتاب — وهو الذى يبدأ بالفصل الثالث — مبتدئاً بنشاط السان سيمونيين فى مصر — كان خليقاً أن يكون كتاباً وحده قائماً

بذاته ، ولكن الدكتور طلعت جعل الشطر الأول ، كالمدخل إليه والتمهيد له . فما كان معقولا أن يحدثنا عن أتباع سان سيمون فى مصر دون أن يمهد لذلك بالحديث عن سان سيمون ونشأته وتكوينه الفكرى وبيئته ونشاطه وفلسفته الاجتماعية ومؤلفاته ، والمذهب الاجتماعى لمدرسته ، والفلسفة الاجتماعية لأتباعه . فلما فرغ من كل هذا فى دقة وعمق فهم وحسن عرض ، بدأ يحدثنا عن نشاط هؤلاء الأتباع فى مصر وتطبيقهم الاجتماعى للمذهب فيها .

والحق أن هؤلاء السان سيمونيين قوم ذوو نشاط عجيب ، كما كان نشاط معلمهم الأول أعجب وأغرب ، فان الرجل لم يتلق ثقافة عالية ، ولكنه رأى أن يقرب إليه بعض خريجى مدرسة الهندسة والطب فى فرنسا ليتمكن معهم من تدوين موسوعة علمية تتخذ أساساً للاصلاح ، فقد كان يؤمن بضرورة تأليف موسوعة علمية تخضع العلم للملاحظة العلمية ، وتخلصه من التأثيرات الدينية . وعلى أكتاف هؤلاء الأتباع من المهندسين والأطباء قامت حركة المذهب فى مصر . وكان أنفانتان تلميذ سان سيمون والأب الروحى لدعوته يرى أن تجمع الأتباع فى مدرسة الهندسة بباريس عامل فعال فى نجاح الدعوة ، ويقول فى هذا : « يجب أن تصبح مدرسة الهندسة العسكرية المحرى الذى تسرى فيه أفكارنا لتشيع فى المجتمع الخارجى . . . » . ومن هؤلاء الأتباع المهندسين : هوار ، الذى جاء إلى مصر فى عهد محمد على ، وحاول إقناعه بضرورة شق قناة مائية بين البحرين : المتوسط والأحمر ، ولكنه لم يفلح فى هذا المشروع الذى تم فى عهدى سعيد وإسماعيل . ومنهم شارل لامبير الذى كان أول مدير لمدرسة الهندسة المصرية فى عهد محمد على كذلك ، وبرينو الذى كان مديراً لمدرسة المدفعية بطرة ، وبراكس الذى أسهم فى إنشاء الأسطول البحرى لمصر ، وديشارم الذى عهد إليه بادارة مصلحة الطرق والكبارى . . .

أما الأطباء من تلاميذ سان سيمون وأتباعه الذين جاءوا إلى مصر لرسالة معينة حددها لهم « أنفانتان » فكان منهم جالا ، ولاشيز ، وديلون ، وكونيا ، وشاريان ، وربجوا ، وفوركارد ، كما كان على رأسهم الدكتور بيرون الذى كان مديراً لمدرسة الطب التى سبقه إلى إدارتها فى أول العهد بانشائها : الدكتور ديفينيو ، والدكتور كلوت بك المشهور .

ولقد بلغ مجموع أتباع سان سيمون الذين وفدوا إلى مصر فى سبتمبر سنة ١٨٣٣ خمسة وخمسين رجلا ما بين مهندس وطبيب ورسام وحداد ومثال وتاجر وصحافى وأديب ومزارع . . . وكانت الباخرة التى أقلتهم إلى مصر ترفع على ساريتها شعار مدرسة سان سيمون ، وقد كانت هذه أروع مظاهرة يمكن أن يقوم بها مذهب فلسفى عملى للدعوة له . . .

وإذا كنا قد أشرنا قبل هذا إلى انجذاب الأب أنفانتان نحو الشرق وسحره ، ومصر وجاذبيتها — كما دون ذلك فى مذكراته — فان شارليتى يوضح لنا تعلق الأب أنفانتان بالشرق وغموضه ، وبمصر وسحرها ، فقد كان

(الشرق بالنسبة لأنفانتان ذا مظهرين : أحدهما أخلاقى ، والآخر سياسى . وكان يعتقد أن الجانب الأخلاقى فى الشرق أقوى وأوضح منه فى الغرب ، ولهذا يجب استغلال هذه الطبيعة الخيرة وربطها بالغرب برباط قوى ، يدفع بالانسانية إلى الوحدة والتماسك ...)

من أجل هذا جاء أتباع سان سيمون إلى مصر « ليضعوا فنهم وخبرتهم تحت أمرة الحاكم . جاءوا مدفوعين بحافز إنسانى ، ليجعلوا من وصل البحرين الأبيض والأحمر ببعضهما ، وسيلة للتقارب الثقافى

والاقتصادى والأخلاقى بين الشعوب . جاءوا إلى مصر لتحويلها من بلد زراعى إلى بلد يعتمد على الصناعة ومنتجاتها ، لتحقيق فكرتهم عن التصنيع ، واستغلال الإنسان للطبيعة بدلا من استغلال الإنسان لأخيه الإنسان . . . جاءوا أيضاً وهم يهدفون إلى تغيير نظرة الشرق المحافظ إلى المرأة ، باتاحة فرص التعليم والثقافة للفتاة ، وإقامة دعائم التربية الاجتماعية التى تعمل على توافر العدالة والمساواة إلى أبعد حد » .

ولا أرى قدراً من إحسان الظن بأتباع سان سيمون فى مصر كما أراه عند الدكتور طلعت عيسى فى كتابه هذا . ولعل الدكتور المؤلف معذور فى هذا ، فقد أتقن هؤلاء الأتباع — وعلى رأسهم الأب أنفانتان — طلاء دعوتهم بالإنسانية ، والوحدة ، والتماسك ، وحب الخير ، وتصنيع البلاد ، وما إليها من الألفاظ المموهة . . ولم يكونوا غير مغامرين فى الحياة ، كما كان أستاذهم « سان سيمون » مغامراً فى الحياة وفى الفكر ، كما يقول المرحوم الأستاذ يوسف كرم . وقد عرفنا مغامرات كبيرهم فى أمريكا ، وفى المكسيك ، وفى أسبانيا ، ومغامراته فى مصارف باريس وأسواقها المالية . .

ولعل فكرة شق القنوات المائية العالمية التى آمن بها سان سيمون ودعا إليها ، ثم دعا إليها بعده تلميذه أنفانتان هى من الأفكار الاستغلالية الجريئة ، فقد اتجهوا إلى الشرق فى مسألة شق القنوات بعد أن أخفقوا فى العالم الجديد . . . وكانت فكرة شق قناة السويس هى الحلم الذى يراود الأب أنفانتان حيث يقول : « السويس هى ميدان العمل بالنسبة لنا ، هناك سوف نحقق ما ينتظره العالم ، لكى يعترف بأننا رجال حقاً . . » . ولما لم تصادف فكرة القناة قبولا عند محمد على — لانشغاله بمشروع قناطر النيل — قام فرديناند دى لسبس بترويجها عند سعيد وإسماعيل ، ولم يكن دى لسبس إلا نائباً لقنصل فرنسا فى مصر الذى قام بتقديم الأب أنفانتان إلى محمد على فور وصوله . . . ولا أدرى لماذا يحسن الدكتور محمد طلعت عيسى ظنه بأتباع سان سيمون فى مصر إلى هذا الحد ؟ إنه يقرر أن هؤلاء الأتباع لم يستطيعوا أن يحققوا العدالة للشعب المصرى عن طريق التصنيع ، وأن الفلاح المصرى لم يرتفع شأنه تطبيقاً لسياستهم الاجتماعية ، بل هبط إلى مرتبة العامل الأجير ، ولم يعد يرى نفسه مرتبطاً بالأرض برباط المصلحة الذاتية ، فقل اهتمامه سواء فى انتقاء البذور ، أو إعداد الأرض ، أو العناية بالمحصول . وأن العدالة الاجتماعية لم تتحقق كما كان يهدف — أو يزعم — أتباع سان سيمون ، بل تأكدت سياسة الاحتكار . وأن أركان مبدأ التربية الاجتماعية فى مصر لم تتحقق على أيديهم كاملة .

وإذا كان كل هذا هو حصيلة التطبيق العملى لفلسفة أتباع سان سيمون فى مصر ، فهل بعد هذا الإخفاق ما يمكن أن يسمى إخفاقاً ؟

أغلب الظن ، بل أقرب إلى اليقين ، أن أتباع سان سيمون وجدوا فى دولة محمد على الجديدة مجالا محتملا ، وتربة قد تكون موافقة للتطبيقات العملية لمذهبهم ، فنجحوا فى بعضها ، وأخفقوا فى كثير منها : حتى « التصنيع » الذى قد يقال إنهم نجحوا فيه فى مصر الحديثة يرى المؤلف أنه بالطريقة التى لجأ بها إليه هؤلاء الأتباع لم يؤد إلى سعادة المجتمع المصرى ، بل كان من العوامل المضادة لسعادة المواطنين .

إن هذا الكتاب عظيم فى منهجه ، وطريقة البحث فيه ، عظيم بهذا الترتيب الذهنى المنظم ، عظيم بهذه الوثائق والمخطوطات التى تنشر لأول مرة ، والتى يحق للمؤلف أن يقول عنها إننا « نتفرد بنشرها على العالم لأول مرة » وهى وثائق كانت مطوية ، كالتقارير السرية التى استطاع الدكتور طلعت أن يهتدى إليها بصدفة حسنة من تلك المصادفات التى يهيئها الله للأمور حين يريد تمامها . وبعض هذه

التقارير كتبتها سلطات البوليس الفرنسي ، وبعضها كتبته سلطات الجيش الفرنسي ، أيام كانوا يتعقبون حركات سان سيمون وأتباعه فى فرنسا بكثير من الحذر ، لأنها أثارت فى البلاد ضجة فكرية عميقة .

ويمتاز الكتاب فوق هذا بلغته الواضحة ، ومنطقه السليم ، وتسلسل الأفكار فيه فى منطق وحجة ووضوح وقوة . إلا أننا كنا نود لهذه اللغة القوية المنطقية ، والعبارة المشرقة الواضحة أن تسلم من أخطاء ومآخذ لغوية ونحوية كثيرة تشيع فى الكتاب حتى تكاد تكون له طابعاً . . . ولعلها من العيوب التى تصيب الكمال حتى يوقى من العين ! ؟ ولا أدرى والله : هذه الدقة فى البحث ، وفى المنهج ، وفى التتبع التاريخى كيف تخطئها الدقة فى النحو ، ويفوتها التحرى فى اللغة ؟ وليس كتاب « أتباع سان سيمون » كتاباً فى الهندسة أو الطبيعة أو علم النبات — مثلا — حتى يحتمل الخطأ اللغوى فيه ، أو يجوز التساهل النحوى عليه . ولكنه كتاب فى الفلسفة الاجتماعية ، ولم يعودنا رجال الفلسفة عندنا أن يستهلوا باللغة والنحو العربى إلى هذا الحد المزعج ! فهذا المرحوم الأستاذ يوسف كرم ، ومصطفى حلمى ، وعثمان أمين — وهو أحد أعضاء لجنة مناقشة هذه الرسالة — لم نجد منهم إلا عناية باللغة ، ورعاية للنحو ، وحفاظاً شديداً عليهما ؛ وحتى رجال العلوم والهندسة والطبيعة يقبح منهم أن يستهينوا بلغتهم إلى هذا الحد . . .

ولن يرضى الدكتور طلعت عيسى عن مثل هذه المآخذ :

— صفحة ٢٣ — (لا يعتبره سوى اختراعا) . والصواب : سوى اختراع .

— صفحة ٥٠ — (ولا يرى سان سيمون فى نظام نابليون الاستبدادى سوى تفرغا) . والصواب : سوى تفرغ .

— صفحة ١٠٦ — (ويبلغ عددهم خمسة وخمسون . .) . والصواب : وخمسين .

— صفحة ١٠٦ — (ولم يواصل رسالة المدرسة فى مصر إلا نفرا) . والصواب : إلا نفر ، بالرفع

— صفحة ١١١ — (أن كلا الدينين لن يوصلان العالم) . والصواب : لن يوصلا ، بحذف النون .

— صفحة ١١٢ — (لن تتحقق إلا على أيد فريق) . والصواب : أيدى فريق .

— صفحة ١٥١ — (ولهذا فإن هناك هدف) . والصواب : فإن هناك هدفاً .

— صفحة ٦٢ — (فى مقدمته عدداً كبيراً من المحامين) . والصواب : عدد كبير ، لأنها مبتدأ مؤخر .

— صفحة ١٢٤ — (وكان يمثل ألمانيا والنمسا مهندسين كبيرين) . والصواب : مهندسان كبيران لأنها فاعل وصفته الفعل : يمثل .

ويذكر المؤلف — نقلا عن « شارلتى » أن أربان ، وجرانال التحقا بمدرسة الفنون الجميلة التى أنشئت لأول مرة فى مصر بمدينة كنكا Kanka ، ولو أنه كلف نفسه قليلا مشقة البحث عن قرية أو مدينة مصرية بهذا الاسم فى معجم جغرافى ، أو ثبت بأسماء البلدان ، أو أطلس عربى لما وجد هذا الاسم الغريب ، الذى اكتفى بقراءة حروفه اللاتينية ، وفاته أنه مدينة « الخانكة » التى كان لها شهرة فى عصر محمد على .

ولكنها هفوات ومآخذ إذا كان من الخير أن لا تشوه هذا العمل العلمى العظيم ، فإنها لا تنقص شيئاً من وزنه وقدره فى ميدان الدراسة الرصينة والبحث العميق .

محمد عبد الغنى حسن



الأسس المعنوية للأدب

تأليف
عبد الفتاح الديدى

الناشر : دار المعرفة
عدد الصفحات ٢٣٣ صفحة ١٧×٢٤ سم

هذا هو عنوان الكتاب الأخير الذى ألفه الأستاذ عبد الفتاح الديدى وأخرجته دار المعرفة بالقاهرة .

والأستاذ الديدى من كتاب المقالة المعروفين فى العالم العربى ، لكثرة ما نشر من مقالات تتصل بموضوعات فلسفية وأدبية . وقد حرص على أن يجمع هذه المقالات من وقت لآخر ويخرجها فى شكل كتاب . وهو بارع جداً فى اختيار عناوين كتبه ؛ فكتابه السابق كان يحمل عنوان « الخيال الحركى » ، وكتاب اليوم قد عرفنا عنوانه .

وليس هناك اعتراض — من الناحية الشكلية — على أن يجمع كاتب مقالاته المتفرقة ، أو بعض هذه المقالات ، فى كتاب ؛ فمعظم كتاب العالم يصنعون ذلك ، ولكن الشىء الجدير بالملاحظة فى مثل هذه الحالة هو أن تكون مرحلة جمع المقالات فى شكل كتب تالية فى حياة الكاتب لمرحلة إخراج الكتب التى ألف كل منها حول موضوع بعينه تأليفاً خاصاً ، أما أن يبدأ الكاتب مرحلة الكتاب فى حياته بجمع مقالاته المفرقة فأمر غير مفهوم . أقول هذا لأننى أقدر مواهب الأستاذ الديدى وإمكانياته ، وأعرف أنه قادر على تأليف الكتاب ذى الموضوع الموحد ،

وهو الكتاب الذى صار فى أيامنا نادراً فى ميدان التأليف .

قد تكون مقالة لامعة أهم من كتاب بأكمله . أعرف هذا جيداً ، ومع ذلك تظل طبيعة تأليف الكتاب مختلفة كل الاختلاف عن تأليف المقال . وأقل ما يلاحظ فى هذا الاختلاف أن المقال فى الغالب أشد ما يكون ارتباطاً بظروف راهنة أو ظروف عابرة ، وأن الإنسان يسمح لنفسه فيه بشىء من الحرية فى الحديث عن الذات ، وفى التعبير عن الانفعال الشخصى الناجم عما يلابس الموقف كله من اعتبارات وظروف .

ولذلك فإنه يتحتم على الكاتب الذى يفكر فى أن ينشر مجموعة من مقالاته فى كتاب مستقل أن يعيد النظر أكثر من مرة فى هذه المقالات ؛ حتى يستبعد منها ماكان صدى لظرف عابر ، أو أثراً لانفعال شخصى لم يعد له مبرر ، وعليه قبل كل هذا أن يستبعد موقفه الذاتى الصرف ، أو يخفف منه إلى أقصى الحدود ، وبما تفرضه الضرورة القصوى .

وإذا كان بعض المؤلفين الذين يجمعون مقالاتهم فى شكل كتب يتورطون فى هذه العيوب فقد كنت أتوقع من الأستاذ الديدى ألا يتورط فيها . ففى الكتاب أحاديث كثيرة عن الذات لا يرتاح لها القارئ ، وفيه آراء وأفكار قد صارت الآن ومنذ أمد بعيد أولية ، بل هامشية وإن ظنها الكاتب آخر ما قيل أو ما يمكن أن يقال . والسبب فى هذا راجع إلى أن المقالات التى يضمها الكتاب قد ظهرت على فترات فى مدى زمنى طويل .

وسأكتفى هنا بضرب بعض الأمثلة ، حتى لا نستنفد الحيز ونحن ما زلنا عند شكل الكتاب .

فى ص (١) يقول الكاتب : « ولكننى وجدت أن الحوار قد يقضى على رغبتى ككاتب فى اتخاذ موقف إزاء الأحداث الفكرية ، والانفراد بحمل المسئولية الروحية حيال المشاكل الملقاة على أكتاف أبناء هذا الجيل » . والذى يعرفه الناس أن الأنبياء أنفسهم لم يستطيعوا التفرد بحمل المسئولية الروحية ... الخ . وإنما كان معهم أنصار وحواريون يعينونهم على حمل هذه المسئولية .

ويقول فى ص (٣) : « ... سنخطو هنا خطوة أكثر جرأة من كل ما سبق تناوله فى مثل هذه الدراسة . سوف نضع نصب أعيننا أن نشعر القارئ بالخطوط الأساسية المعنوية لأهم التيارات والاتجاهات فى العالم العربى والعالم الغربى ، مؤيدة أو منقوضة بأحكامنا ... » . ألا تبدو هذه الدعوى عريضة ، سواء فى إلغائها لقيمة ما سبق من دراسات أو فيما تعدنا به من وعود ؟ !

ويقول فى ص (٣٥) : « ولن يستطيع أحد الاعتراض على ما نقوله هنا ، وهو أن عملية التعبير تحقق الدلالة وتحيلها إلى واقع حى ولا تكتفى بترجمتها » . لم هذا الاستفزاز للقارئ المسكين ؟ !

ويقول فى ص (٢٢٩) : « سألتنى إحدى الأديبات مستفسرة عما إذا كنت من أنصار الشعر الجديد أو القديم . واستغربت السؤال ، لأننى أعتقد أننى كنت قد وفيت الرد عليه ، ولأننى ظننت أن الشعراء يقرءون فى العادة ما نكتب بهذا الصدد » . فى هذا اعتداد بالنفس لا مبرر له ؛ فليس مقال يكتبه كاتب فى مجلة بحيث يصبح إنجيلا يتحتم على الناس أن يستظهروه ولا يسألوا صاحبه فيه عن شىء وقسوة الإنحاء على الأديبة هنا هى قسوة موجهة فى الوقت نفسه إلى قارئ الكتاب . وبديهى أن القارئ يرفض الكتاب الذى لا تتوطد أواصر المودة بينه وبينه . وبعد هذا يقرأ الإنسان الرأى الذى يدل به الكاتب على الناس وينهرهم من أجل غفلتهم عنه فاذا هو كلام تعميمى لا يقدم ولا يؤخر . يقول بعد

ذلك : « ولكنني رغم ذلك أجبتها مرة أخرى أنني أؤيد الشعر الجيد ، وأنني لا أعرف فى الشعر قديماً وجديداً ، ولكنى أعرف الجيد من الردئ » . عبارة لبقة يتخلص بها الإنسان فى المواقف الحرجة ، ولكنها من حيث النظر العملى لا تعنى شيئاً . ويكفى أن نعرف أن موضوع الجودة لا علاقة له بالقديم أو الجديد .

المهم أولا أن نقرر أن هناك قديماً وجديداً ، وأن الجودة وإن كانت مشتركة بينهما فإن هذا لا يلغى تميزهما ؛ لأن الجيد فى القديم ليس هو بعينه الجيد فى الجديد ولا هو يغنى عنه . الجيد فى القديم جيد بالقياس إلى القديم نفسه ، والجيد فى الجديد جيد بالقياس إلى ذاته . والقضية أوسع من أن نفصل فيها بعبارة بلاغية طنانة ، ثم ندل بها بعد ذلك على خلق الله .

ثم نعود بعد هذا إلى منهج الكتاب . يقع الكتاب فى مقدمة وستة فصول وخاتمة . هذا ما نلاحظه فى صفحة المحتويات . وهو تقسيم يوحى بأن الكتاب يبحث موضوعاً موحداً ومتماسكاً . فاذا تذكرنا مرة أخرى العنوان المغرى للكتاب زادنا هذا التقسيم إغراء . على أن القارئ حين يفرغ من قراءة الكتاب يتضح له أن الفصل الأول منه هو الفصل الوحيد الذى يرتبط حقاً بموضوع الكتاب . فالكاتب يتحدث فى هذا الفصل عن ثلاثة عناصر هى :

١ — الأسس المعنوية للأدب (وهذا هو عنوان الكتاب) .

٢ — جايتان بيكو والجمالية الأدبية .

٣ — ظاهرية التعبير الأدبى .

وسوف نعود إلى ما تضمنه هذا الفصل من أفكار ، بعد أن نستعرض سريعاً فصول الكتاب الأخرى :

الفصل الثانى من الكتاب يحمل عنوان : الشكل والمعنى فى الشعر ، ولكننا تحت هذا العنوان نقرأ أربعة عناصر ، أولها يتحدث فيه الكاتب عن تجربة الشعر العربى فى أواخر القرن الماضى وأوائل هذا القرن ، وثانيها يتحدث فيه عن مستقبل الشعر فى مصر ، وثالثها عن أهمية الموسيقى فى البناء الشعرى ورابعها نقد لقصائد العدد (٩) سنة ١٩٦٤ من مجلة الآداب البيروتية .

وتتلخص فكرة الكاتب فى العنصر الأول من هذا الفصل فى أن « الشعر العربى لم يعرف التجديد الحق إلا بعد الحرب العظمى ، أو لم تظهر تباشير التجديد ولم تبزغ شمس الفن الشعرى الصحيح إلا عندما جاءت صيحة البعث من جانب السياسة والسياسيين فى مصر ، وعقب معرفة الشعوب العربية أنها فى خطر » . والتمس الكاتب الأدلة التى يؤكد بها هذه الفكرة ، والتمس الظاهرة الدالة عليها فى الشعر نفسه ، فرأى أن الوعى السياسى أفهم الشاعر دوره الحقيقى فى الحياة ، ومن ثم نبذ فكرة المديح التقليدية من شعره .

هذا هو مظهر التجديد الذى سجله الكاتب للشعر العربى الحديث متأثراً بثورة ١٩١٩ فى مصر ، وزوال الحكم العثمانى . على أن المسألة تحتاج إلى إعادة النظر ، بخاصة إذا تذكرنا أن قصيدة المديح فى

الشعر العربى لم ترج إلا فى أحضان السياسة ، ونتيجة لارتباطها بها .

فقصيدة المديح فى حد ذاتها لا تتعارض مع الوعى السياسى إذا هى وجهت إلى أشخاص يتميزون بالوطنية والنزاهة وهذا المعنى يشككنا – على الأقل – فى اعتبار إقلاع الشعراء عن قصيدة المديح صورة للتجديد . أعنى أن التجديد قد يقع فى الشعر – وقد وقع فى تجربة الشعر الأخيرة – وإن بقيت فكرة المديح متحققة فى أشكال أخرى جديدة .

على كل حال فقد جعل الكاتب ثورة ١٩١٩ حداً فاصلا فى حياة الشعر العربى بين التقليد والتجديد. وقد نسى أن عبد الرحمن شكرى مثلا كان قد بدأ بنشر دواوينه قبل هذا التاريخ بعشرة أعوام . والأمر الذى يبدو أنه كان يهم الكاتب تقريره هو أن شوقى لم يصنع فى باب التجديد شيئاً . ومهما يكن رأينا فى شعر شوقى الآن فالمؤكد أنه كان يطمح إلى تحقيق شىء لم يسبق إليه . ربما حالفه التوفيق فى نواح وجانبه فى أخرى ، ويكفيه من كل ذلك فضل المحاولة والتجربة . ولكن الكاتب شاء أن يجعل من شعر شوقى آخر أنفاس الشعر التقليدى ، وأورد رواية لعلى الجارم تبين ولع شوقى بالشعر المملوكى لكى يستدل من ذلك على قضيته . وكان فى وسعه أن يفهم هذه الرواية من خلال مفهومه فى الربط بين الوعى السياسى والتجديد الشعرى . فشوقى يرى أن فتنتنا بالشعر العباسى ضيعت علينا كثيراً من مقومات بيئتنا المصرية ، « وشعر المماليك شعر مصرى صميم ، وإن فى ديوان ابن نباتة ، الذى نبذناه ، كبراً وتعاظماً ، العجب العجاب . الخ » .

وهذه الرواية – التى وجهها الكاتب ضد شوقى – هى فى الحقيقة لصالحه ؛ فقد أدرك أننا ظللنا واقعين فى أسر الشعر العباسى ونسينا شخصيتنا المتميزة ، فكان لا بد لإعادة النبض إلى الشعر من أن يستمد مباشرة منْ هذه الشخصية بكل مشخصاتها وخصائصها . وقد وجد فى شعر ابن نباته المصرى تعبيراً قوياً عن هذه الشخصية ، ومن هنا كان إعجابه به ، ورغبته فى تنمية اتجاهه . والواقع أن شوقى قد استطاع فى بعض أشعاره أن يلتحم بالروح المصرى فى ذكائه الخاص وخفته وبساطته العميقة ، مستغلا فى هذا خبرته بالشعر الذى يعبر عن هذا الروح ، وتمثله للقيم التعبيرية التى تتضمنها الأمثال الشعبية . وهذه الرغبة فى التعبير عن الشخصية المصرية – وهى ما يعنينا هنا – كانت ترتبط بنوع من الوعى السياسى الذى كان يهدف إلى استكشاف الكيان المصرى وإبراز هذا الكيان ، والذى كانت كتابات أحمد لطفى السيد وغيره تدعو إليه وتسانده .

ومن كل هذا يتضح لنا أن محاولات التجديد قد بدأت قبل ثورة ١٩١٩ ، وكان لشوقى نفسه نصيب منها . أما البارودى فيقول عنه الكاتب (ص ٥٤) : « فاذا ذكر محمود سامى البارودى فاننا لا نذكر التجديد والابتكار كما يزعم البعض من الكتاب » ، ثم يقول (ص ٥٦) : « هؤلاء الذين يسمون البارودى مجدداً مخطئون أشد الخطأ » . والغريب أن نقاد الشعر ومؤرخيه لا يتحدثون عن البارودى بوصفه مجدداً ، وإنما هم يضعونه فى موضعه الصحيح ، ويسمون الفترة التى مثلها بشعره فترة « الإحياء » ، أى إحياء الشعر العربى فى صورته القديمة النضرة . فحين يقرر الكاتب هذه الحقيقة يكون قد كرر رأياً شائعاً مشهوراً ، لا يحتاج الباحث لأن يثير حوله معركة وهمية .

أما العنصر الثانى من هذا الفصل، الذى يتحدث فيه الكاتب عن مستقبل الشعر فى مصر فانه يسجل فيه ملاحظات أولية قد تصدق على الشعر فى الربع

الأول من هذا القرن ، والمؤكد أن التجربة الجديدة فى الشعر المعاصر ، التى مضى عليها الآن ما يقرب من عشرين عاماً ، قد تجاوزت كل تلك المآخذ التى أخذها الكاتب على ما يتصور أنه الشعر المعاصر . وكان يتحتم على الكاتب لكى يتحدث عن مستقبل الشعر أن يفرغ أولا من دراسة هذه التجربة الجديدة بكل أبعادها الجمالية حتى تكون نبوءته مستندة إلى شواهد حقيقية من الواقع . وأغلب ظنى أن الكاتب لم يتمثل هذه التجربة ، بدليل أنه يتحدث عن عيوب الشعر المعاصر فاذا هى العيوب التى تخلص منها الشعر منذ زمن بعيد .

أما العنصر الثالث الذى يتحدث فيه الكاتب عن أهمية الموسيقى فى البناء الشعرى فيقوم على تصور أساسى لدى الكاتب ، هو أن الشعر الجديد قد تنازل عن قدر من موسيقية القصيدة التقليدية ، وأن « الغرض الفنى لا يتحقق بالتنازل عن موسيقية الشعر ، بل بالاستزادة منها » (ص ٩١) . ثم يكشف عن موقفه من تجربة الشعر الجديد فى إطارها الموسيقى القائم على أساس من نظام التفعيلة فيقول (ص ٩٢) : « ولا تؤدى التفعيلة فى وضعها الراهن داخل إطارها المتحلل فى الشعر الحر أى تكامل بنائى ... إن موسيقيتها تبقى على التجزؤ وتنفى النسب وتمحو الشمول الكلى » . وفى ظنى أن تصور الكاتب لموسيقية القصيدة الجديدة معكوس ؛ فالشعراء لم يلجئوا إلى هذا الإطار الموسيقى الجديد إلا ليحققوا التكامل البنائى والشمول النغمى للقصيدة بوصفها كلا . وليس هنا مجال الإفاضة فى شرح هذه القضية من واقع الشعر نفسه ؛ فقد سبقت كتابات كثيرة فى هذا الموضوع لم يلم بها الكاتب قبل أن يصدر حكمه .



أما العنصر الرابع من هذا الفصل ، الذى يعلق فيه الكاتب على قصائد العدد (٩) من الآداب البيروتية فلست أجد ما يدعو إلى الوقوف عنده .

ثم يأتى الباب الثالث يحمل عنوان « قضايا معنوية » . والعنصر الأول منه « رأى فى نظم الكلم عند عبد القاهر » : وهى كلمة موجزة تقع فى صفحتين ونصف صفحة ، ولا تتضمن أى بيان لنظرية النظم ذاتها . كل ماهنالك تجريح للدراسات المختلفة التى قامت حول هذه النظرية : « قل أن تجد من بين جملة البحوث التى عملت عنه — يعنى عبدالقاهر — بحثاً واحداً جديراً بالإشارة والالتفات» ! ثم نتوقع بعد هذا رأى الكاتب نفسه فى نظرية عبد القاهر فلا نجد شيئاً من ذلك ، بل لا نجد مجرد عرض لهذه النظرية ، وكل ما هنالك ملاحظات عابرة تحوم حول النظرية ولا تسجل جديداً ، ثم استكشاف لأهم شىء جاء به عبد القاهر ؛ « وأهم شىء هو إشاراته المستمرة إلى لطافة المعنى » (ص ١٠٧) . هذا الشىء الأهم (لطافة المعنى) عبارة تقليدية فى النقد العربى القديم كله وليست هى جوهر نظرية النظم .

أما العنصر الثانى من هذا الفصل فحول قضية الشعر والوضعية المنطقية ، وليس فيه سوى حديث

عن الدكتور زكي نجيب محمود وتمثيله لمذهب الوضعية فى مصر ، ثم دعوة إلى كتاب الصحافة الأدبية ألا يقحموا أنفسهم فى مجالات لا يحسنون الحديث فيها ، و « أن يتجه كل منا إلى الإنتاج فى فرع تخصصه » . ونحن حين نقر الكاتب على هذه الدعوة نطلب إليه أن يلتزم بما يدعو إليه .

ثم تأتى بعد ذلك فى هذا الفصل « حلقات » هى فى الغالب أحاديث إذاعية قصيرة أو تعليقات سريعة فى المجلات الأدبية ، ثم نقد لأبحاث العدد (٥) من الآداب البيروتية . ونحن نعفى القارئ من استعراض هذه المقتطفات والتعليقات ، لأنها لا تنتمى إلى موضوع الكتاب من قريب أو بعيد . ونفس الشىء يقال بالنسبة للفصل الرابع كله ، فهو قائم على التعليقات وأسئلة القراء فى موضوعات متفرقة وإجابات الكاتب عنها وما أشبه . وكل ذلك صورة مجافية لطبيعة تأليف الكتب من جهة ، ولا تتصل بموضوع الكتاب من جهة أخرى .

ثم يأتى الفصل الخامس تحت عنوان « حقيقة المعنى الأدبى » أو ما يسميه الكاتب « الأصول النظرية للمعنى » . ويبدأ هذا الفصل باشارة إلى ندوة عقدتها الجمعية الأدبية المصرية لمناقشة ديوان « قاب قوسين » للشاعر محمود حسن إسماعيل ، فيعرض لرأيين قدما فى هذه الندوة ، الأولى تناول الشاعر فى إطار الرومنتيكية ، والآخر يعبر عن منهج الشاعر فى استخدام الصور الحسية للتعبير عن الأفكار . وأحسب أننى كنت صاحب الرأى الأخير ، وإن كان الكاتب قد صاغه صياغة أخرى ؛ فالذى أذكره أننى ذهبت إلى أن محمود حسن إسماعيل « يفكر بطريقة شعرية » . ثم يقول الكاتب معقباً على هذا الرأى (ص ١٧٧) : « وهذا الرأى الأخير الخاص بالشعر قلت به فى كتابى عن عبقرية العقاد ، لشرح طبيعة العقاد الشعرية . ولذلك تعجبت لسماع عين الطريقة التى اتبعتها فى شرح شعر العقاد أمام شعر محمود حسن إسماعيل ، وبينهما ما بينهما من الخلاف والاختلاف » . ثم عاد فى (ص ١٧٨) ليقول : « وقد ساءنى ولا شك أن يخلط ناقد كهذا المتحدث الثانى بين معنى الحسية بالمعنى الحسى المادى ومعنى الحسية بالمعنى الحدسى الصوفى . وإذا كان قد استوعب كلماتى عن شعر العقاد ليطبقها على محمود حسن إسماعيل كطريقة فى النقد فهو لا شك مخطئ خطأ بليغاً » .

ولا أجد فى وسعى هنا ، والكلام يخصنى ، إلا أن أسامح الكاتب فيما توهمه . فرأيى الذى قلته فى يومها قد كونته قبل ذلك بأكثر من خمس عشرة سنة . وأعتقد أن علاقتى القديمة بالشعر العربى ، قديمه وحديثه تؤهلنى لأن أرى فى شعر محمود حسن إسماعيل رأياً دون أن أستعير رأى كاتب آخر فى شاعر آخر .

ما علينا من هذا ، فقد خلص الكاتب من هذا التجريح الشخصى إلى ظاهرة فى حياتنا الأدبية وهى ظاهرة اضطراب معانى المصطلحات . ولو أننى استعرت أسلوب الكاتب لذكرته هنا بمقالى المنشور فى مجلة « المجلة » (العدد ٣ — مارس ١٩٥٧) ، ولكن لا داعى لهذا ؛ فالمؤكد أن الموضوع الواحد من الممكن تناوله أكثر من مرة من جانب أكثر من كاتب . وقد استخلص الكاتب من دراسة هذا الموضوع حقيقة على جانب من الأهمية ، هى

« أن المعنى يتحدد وفقاً للشخص ولاتجاهه ولعصره ولسعة تصوراته عن الأشياء والموجودات والحياة . بل يرتبط المعنى بالاتجاه المذهبى ارتباطاً قوياً ، ولا يمكن أن يتشابه المعنى لدى شاعرين أو لدى كاتبين من عصرين مختلفين . والسبب فى ذلك هو أن للمعنى أبعاداً يقاس بها وأعماقاً وظروفاً لا تتشابه إلا على نحو عابر لا يجهل حقيقته الناقد المتخصص » . (ص ١٨١)

أما الفصل السادس فيحمل عنوان « معنويات الثقافة » ، عن « اشتراكية الثقافة » و « الثقافة والتربية » و « الثورة الثقافية العربية » و « التوجيه الثقافى » ، وكلها موضوعات طريفة ولا شك ، ولكن يصعب التماس علاقة مباشرة بينها وبين « الأسس المعنوية للأدب » .

ثم نعود إلى الفصل الأول الذى ينتمى انتماء مباشراً إلى موضوع الكتاب ، وعندئذ نتذكر قول الكاتب فى مستهل هذا الفصل (ص ١٠) : « ينبغى أن نشير هنا إلى أننا لا نود أن نقحم فى مجال الأدب تفسيراً منبعثاً من إحدى نظريات الاجتماع أو الفلسفة » . نتذكر هذا ونحن نطالع هذا الفصل فنجد أنه عرض لفكرة المعنى فى العمل الفنى يعتمد على نظريات وجودية وفينومينولوجية . وربما كان فى طموح الكاتب أن يستكشف أبعاد نظرية المعنى فى الأدب من خلال مصطلحات أدبية ، ولكنه مع ذلك لم يستطع ، لأن الشيء لا يستطيع أن يفسر نفسه ، وإننا ما دمنا نحاول تفسير الأدب فنحن مضطرون دائماً لاستخدام أدوات للتفسير غير أدبية وليس فى هذا أى افتئات على طبيعة الأشياء ، لأن الأدب كائن معقد تتعدد دوافعه وأبعاده . والاستناد إلى جماليات للأدب لا تأخذ فى اعتبارها طبيعة هذا الكائن المعقد ، بل تقتصر على الوجه الجمالى الصرف وحده مطلب عسير وغير مجد . وكان بودى أن أعرض الأفكار التى تضمنها هذا الفصل عرضاً مسهباً ، وأن أناقشها ، لما لها من أهمية خاصة فى تنوير بعض قضايا المعنى الأدبى وقضايا أخرى تتعلق بها أو تترتب عليها ، ولكننى — لضيق الحيز هنا — أترك للقارئ أن يلم بنفسه بهذه الأفكار ، وأن يناقشها مع نفسه ، لما قد يكون فى ذلك من نفع له .

الدكتور عز الدين إسماعيل

أضواء على السنة المحمدية
تأليف : محمود أبو رية
الناشر : مطبعة صور الحديثة
لبنان — ٣٧١ ص ١٧ × ٢٤ سم

دراسة جديدة وجريئة فى نفس الوقت للسنة النبوية ، ركز المؤلف فيها على الجانب القولى منها . وقد قصد المؤلف تنقية السنة من الشوائب التى دخلتها على مر العصور ، واعتمد فيها على كتب السنة قديمها وحديثها ، وما ذهب إليه المجددون فى الإسلام . والكتاب يتناول ما روى عن نهى الرسول عن كتابة الحديث ، والوضع الذى بدأ بعد وفاته ، وخاصة ما جرى من ادخال الإسرائيليات واستشهد على ذلك بأحاديث عديدة ، وتناول كتب الحديث المشهورة ، ثم ختم الكتاب برأيه فى تصحيح السنة .

الجدير بالذكر هنا أن هذا الكتاب قد أثار ضجة كبيرة عند صدور الطبعة الأولى ، أما هذه الطبعة الثانية ففيها الكثير من الزيادات والتنقيحات ، وسوف تظهر طبعته الثالثة قريباً .

السود
تأليف : نبيل بدران
الناشر : مكتبة يوليو — ٩٨ ص
١٤ × ٢٠ سم ث ١٥ قرشاً

العمل المسرحى الأول للأستاذ نبيل بدران فى فصلين . والمسرحية تتناول مأساة التفرقة العنصرية فى الولايات المتحدة ، من خلال أزمة فتى زنجى تطارده أشباح جريمة لم يكن هو السبب فيها . والمسرحية تنتهى نهاية تراجيدية لهذا الشاب لكنه لا يزال هناك أمل ممثل فى فتاة بيضاء تحبه . . قدم المسرحية ألفريد فرج وعلق عليها سعد أردش .



فن السينما

نصرت

تأليف : رودلف أرنهيم

ترجمة : عبد العزيز فهمى

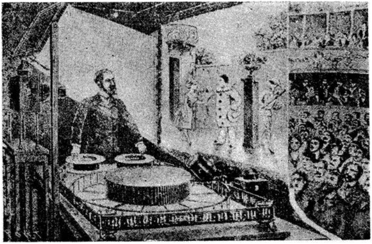
مراجعة

صلاح التهامى

وعبد الرحمن الشرقاوى

لما كان كتاب فن السينما (Film as art) الذى ألفه رودولف أرنهيم أستاذ « سيكلوجية الفن » بكاية سارى لاورنس (نيويورك) من الكتب الفريدة ، بل هو الوحيد الذى يتناول نظريات السينما من الوجهة السيكلوجية الفلسفية إلى جانب كتاب « جويدو أرستاركو » تاريخ نظريات السينما . هذا الكتاب « **فن السينما** » الذى اعتبره المرجع الأول لنقاد السينما العلميين . . كم سررت كثيراً عندما وصل إلى أسماعى ترجمة مثل هذا الكتاب القيم إلى العربية فبنى بذلك ركناً مفقوداً فيها .

ولا بد لى قبل الخوض فى عرض الترجمة وموضوع الكتاب وأهدافه ومراميه من أن ألم إلمامة موجزة بمؤلفه الفذ .



الناشر : الدار المصرية للتأليف والترجمة ٢٣٢ ص ١٧×٢٤ سم الثمن : ٢٣,٥ قرشا

لقد ولد رودولف أرنهيم فى برلين عام ١٩٠٤ (٦٢ سنة) وحصل على درجة جامعية فى علم النفس التجريبى . وهو باحث ألمانى كتب فى سنة ١٩٣٢ أهم كتاب فى نظريات الفيلم تحت اسم (Film als kunst) الفيلم كفن مطبقاً على السينما ملاحظات ونظريات وقوانين مدرسة الجشتالت (سيكلوجية المظهر (التى وضعها أستاذاه « ماكس ورثيمر وولفانج كوهلر » — كما افتتن أيضاً بالاتجاه الكنتى الجديد . وكان أرنهيم فى ذلك الوقت طالباً جامعياً ، يذهب كل مساء إلى السينما مخططاً نظرية للفيلم تتفق مع ما سمى بسيكلوجية المظهر والاتجاه الكنتى ، ونظريته هذه « المعاملات الاختلافية » ذات أهمية كبيرة — لأنها قد تعتبر الفريدة فى أنها تناولت التخطيط الحقيقى لمفهوم كلمة نظرية . وبعد ظهور كتابه هذا دعى إلى روما (١٩٣٣) عن طريق المعهد الحكومى للسينما التعليمية ليكون عضواً فى لجنة تأليف « موسوعة السينما » ولكن مما يؤسف له توقف هذا العمل الضخم فجأة نتيجة للقوانين الفاشية وأعمال السلب والنهب . ثم هاجر أرنهيم إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، فكلف بالعمل كأستاذ لسيكلوجية الفن » لطلبة كلية « سارى لاورنس » فى برونكسفيل (نيويورك) .

نشر كتابه الثانى « الراديو يبحث عن وضعه » (١٩٣٧) وهو يقوم الآن بدراسة « هيئة أو مظهر الفن عامة » ووظيفة الإحساس فى الفن ، كذلك ظهر من أبحاثه كتابه الجديد « الفن وإدارك المرئيات » (١٩٥٤) .

ويعتبر رودولف أرنهيم الأستاذ الأول للأبحاث الأيديولوجية الفيلمية فى تاريخ السينما العام .

أما عن موضوع الكتاب فقد تناول مذكرة شخصية كان قد كتبها فى الطبعة الجديدة لكتابه عام (١٩٥٧) . ثم تناول مختارات معدلة من كتابه الأول (Film als kunst) « الفيلم كفن» (١٩٣٢) وقسمها إلى أربعة أجزاء : أولها « الفيلم والواقع » وتناول فى هذا الجزء عدة نواحى منها :

١ — عرض المواد الجامدة على سطح مستوى .
٢ — اختزال العمق .
٣ — الإضاءة وانعدام الألوان .
٤ — تحديد الصورة والبعد عن الشىء .
٥ — فقدان الاستمرار فى المكان والزمان .

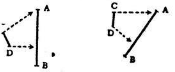


Figure 1 Figure 2

DIAGRAM 1

٦ – فقدان عالم الإحساسات غير المنظور .

أما فى الجزء الثانى وتحت اسم «صناعة الفيلم» فقد تعرض لجوانب أخرى هى :

١ – الاستخدام الفنى لعرض الصور على سطح مستوى .

٢ – الاستخدام الفنى لاختزال العمق

٣ – الاستخدام الفنى للاضاءة وانعدام اللون .

٤ – الاستخدام الفنى لتحديد الصورة والبعد عن الشىء .

٥ – الاستخـدام الفنى لانعـدام الاستمرار المكانى والزمانى .

٦ – الاستخدام الفنى لنقص التجارب على الإحساسات غير البصرية .

وتحت عنوان «إمكانيات أخرى لفن الفيلم» تحدث أرنهيم عن : الكاميرا المتحركة – الحركة إلى الخلف – الحركة السريعة – الحركة البطيئة – الصور الساكنة – تدرج الظهور وتدرج الاختفاء والمزج – الازدواج – العدسات الخاصة – التحكم فى ضبط بؤرة العدسة – صور المرآة .

ثم تناول فى الجزء الثالث تحت اسم «مضمون الفيلم» العقل خلال الجسم والمعنى والاختراع . أما الجزء الرابع فكان قاصراً على الفيلم الكامل . هـذه الأبواب جميعها كانت قد كتبت فى سنة ١٩٣٢ .

وقد علق أرنهيم على الجزء الأول من كتاب «الفيلم كفن» وهو الجزء الذى يشرح النظرية .. بأنه قد عاش فترة مقبولة ، وقد أعيد طبع هذا الكتاب بأكمله تحت عنوان «الفيلم والحقيقة» وأضاف له باباً عن «صناعة الفيلم» لكنه حذف قدراً كبيراً من بعض الفصول التى تورطت فى جوانب صارت تخصص لها الآن فنون تطبيقية قائمة بذاتها . ففى الفصل الاجمالى الذى كتبه بعنوان «تحليل المضمون» عن الأفكار النموذجية فى الأفلام ، وفى غيره من الفصول التى عالجت مسائل مؤقتة قد أجرى هذا الحذف . مثال ذلك العثرات الأولى التى وقع فيها الفيلم الناطق وهى التى صارت الآن فى طى النسيان . أما ما بقى بعد ذلك فقد راجع ترجمته الانجليزية جملة جملة ، وكم من عبارات محيرة قد نسبت إليه فى الطبعة السابقة قد أعادها الآن إلى معناها المقصود ، أما المقالات التى كتبها فى روما سنة ١٩٣٣ ، ١٩٣٤ ضمن مشروع «الموسوعة السينمائية» فانها تظهر فى هذا الكتاب لأول مرة بعد أن ترجمها من الأصول الخطية المكتوبة بالألمـانية وهى : «الأفكار التى جعلت الصور تتحرك» التى تناقش الأجهزة الفنية المتعددة التى أدت آخر الأمر إلى مخترعات لوميير وأديسون . (مثل المسرح البصرى لرينو ، المزودة به النسخة الإنجليزية .. كصورة ، لم تحظ النسخة العربية بها) . ولكنها بدلا من أن تعالجها فى تسلسلها التاريخى .. على نحو ما فعل كتاب آخرون بطريقة أكثر تكاملا .. اعتبرتها هذه النسخة كراحل فى عملية فكرية قد حدثت بطريقة جماعية فى عدة عقول .

ولقد سبق له أن نشر مقاله «مستقبل التلفزيون» فى عدد فبراير سنة ١٩٣٥ بمجلة أنترسينى التى ينشرها المعهد الدولى للأفلام التعليمية ، كما ترجم مقالة «التقويم الجديد» من أصل النص الإيطالى الذى ظهر عام ١٩٣٨ فى مجلة «بيانكو اى نيرو» وهى آخر فصول هذا الكتاب وتثير هذه المقالة القضية الجمالية الأساسية وهى كيف يمكن الربط بين وسائل تعبيرية مختلفة فى عمل فنى واحد .

ووجهة النظر التى يدافع عنها أرنهيم والتى من أجلها بحث وأنتج نظريات فيلمية هى : رفض ذوى الثقافة اعتبار أن الفيلم يمكن أن يكون فناً مدعين رفضهم هذا بأن الفيلم محدود بتسجيل الواقع بطريقة ميكانيكية ، وتتخذ هذه الجماعة من التصوير اليدوى نصيراً لها فى مأثورتها الخاطئة . فيقولون إن الصورة فى التصوير اليدوى تمر بمراحل من الواقع حتى تصل إلى عين الفنان ثم إلى جهازه العصبى وأخيراً إلى الفرشاة التى تصنع اللمسات على اللوحة فتنتج الصورة . أما فى الفيلم فان العملية ميكانيكية كلها ، فالأشعة الضوئية المنعكسة من الشىء المصور خلال العدسات توجه إلى الفيلم الحساس الذى ينتج تغيرات كيماوية تكون نتيجتها إنتاج الصورة الفيلمية .

كانت هذه هى المشكلة التى دافع عنها أرنهيم ومن أجلها قام بإعداد كتابه هذا . وكان رد أرنهيم على هؤلاء المثقفين فى بداية كتابه بأبسط وسيلة لإثبات عكس هذه النظرة الخاطئة . وكان دليله على ذلك أننا إذا أردنا أن نصور مكعباً فانه لا يكفينا أن نجعله فى متناول الكاميرا السينمائية ، بل الأهم من ذلك هو اختيار الوضع الذى نتخذه من الشىء أو المكان الذى نضعه فيه – حتى يعطى هذا الوضع معلومات صحيحة عن هـذا الشكل . ولما كانت العين لا تستطيع رؤية أشعة

الضوء المنعكسة من الشيء إلا باسقاطها على سطح مستو من الشبكية – فان إنتاج صورة مطابقة حتى لشيء بسيط تماماً ليس عملية ميكانيكية .

وبعد تلك المقدمة الأولية ذهب أرنهيم إلى أنه ينبغي على ذوى الثقافة الذين يحتقرون الكاميرا باعتبارها آلة تسجيل أتوماتيكية أن يدركوا أنه حتى أبسط أنواع التصوير لأبسط شيء ممكن كالمكعب مثلا يتطلب الأمر إحساساً بطبيعته وهو أمر أبعد مايكون عن أى عملية ميكانيكية.

بعد هذه الإلمامة العاجلة بالكتاب وكاتبه ونظريته يجيء دور الترجمة وها هى ذى بعض النواحى التى يؤخذ فيها على المترجم والمراجع ومخرج الكتاب عدم مراعاة الدقة الفنية والعلمية فيما نقلوا إلى العربية أوردها على سبيل المثال لا الحصر :

فالعنوان مثلا وهو بالأصل الألمانى
Film als kunst
وبالانجليزية Film as Art
وبالإيطالية Film come Art

كتاب بهذه اللغات الثلاث – الأصلية منها والمترجمة – فلا بد أن يكون ترجمته إلى العربية « الفيلم كفن » وليس « فن السينما » فالتسمية الأولى وهى الفيلم كفن هى التى قد خلق من أجلها الكتاب ليدافع عنها – وليدافع أرنهيم على أن عملية الفيلم ليست عملية ميكانيكية لتسجيل الواقع ، بل هى عملية فنية أصيلة . ويمكننا أن نرجع إلى ص ١٧ فى الأصل الإنجليزى وص ١٣ بالعربية لنجد رداً على هـــذه الترجمة .



كما وجدت بالصحيفة رقم (٩) بالأصل الإنجليزى تحت اسم « الإيضاح بالصور » أسماء صور فوتوغرافية من أفلام يستشهد بها أرنهيم فى بحثه ونظريته وكانت لأربعة وعشرين فيلماً تاريخياً . لكل من السينمائيين والمخرجين :

كارل درایر – لويس بونوى – مان رايز – بودوفكين – السكندر روم جاكوبيى فيدر – شارلى شابلن – والت دزنى – اميل رينو – دوجلاس فيربانكس – وآخرين ثم نجد فى نهاية الصحيفة رقم (١٠) بالأصل الإنجليزى أيضاً : « اعتراف » للمؤلف ورد فيه :

يشكر المؤلف مكتبة أفلام متحف الفن الحديث بنيويورك لمساعداتها السخية بتزويده بالصور الموضحة .

كما وجدت نفس النص بالترجمة الإيطالية لنفس الكتاب والمزودة بالصور الكاملة الأربعة والعشرين .

هذه الصور جميعها قد كتب بأسفل كل منها مفهوماً يعزز به المؤلف نظريته. (توجد هذه الصور بالنص الإنجليزى فى الصفحات المقابلة للصفحات التالية : ص ٣٢ ، ٣٣ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٨٠ ، ٨١ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٧٦ ، ١٧٧ .

كما وجدت بالصحيفة رقم (٦) فى الكتاب المعرب بالمذكرة الشخصية للمؤلف ما يلى :

« وفى ذلك الوقت كان أستاذاى ماكس وريثمر وولفانج كوهلر يضعان الأسس النظرية والعملية لنظرية الجشتالت فى معهد علم النفس بجامعة برلين ووجدت نفسى أستمسك بما يمكن أن يسمى « تحولا كانتياً فى المذهب الجديد » .

وكنت أود أن يتناول المؤلف أو المترجم تعريفنا بما هى مدرسة الجشتالت وما نظريتها الأساسية ليسهل على القارئ العادى غير المتخصص فى علم النفس هضم هذه النظرية ، كما كنت أود أن تترجم

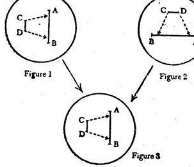


DIAGRAM 2

«تحولا كانتياً فى المذهب الجديد» بـ «الاتجاه الكنتى فى المذهب الجديد» وتعريفنا بما هى الكنتية «أو الفلسفة الكنتية» فى شكل هوامش يزود بها الكتاب الأصلى أو الترجمة، حتى يسهل على القارئ العادى الإلمام بتلك الجوانب الخفية التى كان من الممكن او وضعها المؤلف أن تفيده كثيراً ومثال تلك النقاط ما يلى :

الجشتالت : كان لظهور المدرسة الجشتلتية فى أوائل القرن العشرين أثر كبير فى أوساط مدارس علم النفس المعاصرة التى أهمها مدرسة علم النفس الترابطى على اختلاف مذاهبه . لأن نشاط فرويد ومكدوجال لم يكن من الانتشار فى أمريكا بحيث ينافس تجارب السلوكيين .

ويمكن إجمال أساس مدرسة الجشتالت فيما يلى : ذكروا أن الفرد يدرك الموقف ككل أو كوحدة . فأنت إذا رأيت صورة جميلة أدركتها كوحدة ذات معنى وأعجبت بها ككل ولا تدرك اللون وحده ثم الشكل والحجم . . الخ . ثم نجمع بين كل هذا فيما يسمى صورة . فالكائن ما هو إلا وحدة أو كل متكامل ولا قيمة للأجزاء فى حد ذاتها إلا فى ضوء ما تؤديه من خدمات للكل ، وللكل مميزات وخواص ليست للأجزاء ولا نستطيع أن ندرس خواص الكل من الجزء كما لا يمكننا دراسة خواص الماء من دراسة خواص الأوكسجين والأيدروجين اللذين يدخلان فى تركيبه .

أما عن الاتجاه الكنتى ولماذا اتخذه أرنهيم أساساً فى بحثه : فان المشكلة التى صاحبت دراسته وأبحاثه منذ أن كان طالباً حتى اليوم هى نظرية المعرفة من وجهة نظر بحاثة سيكلوجى .

وأما الاتجاه الكنتى الذى وضعه الفيلسوف الألمانى «ايمانويل كانت» Immanuel Kant والذى يعد من أعظم الفلاسفة جميعاً يتلخص فى : «أن المعرفة لا تتم إلا بالخبرة الحسية والمبادئ العقلية معاً وبمعنى أن جانب الخبرة الحسية يأتى لنا من الخارج منبعثاً من الأشياء لكنها إذ تأتى لا تجد نفسها بغير ضابط يضبطها ، بل يتلقاها فى العقل إطاراً ينظمها فى حدوده ، ومن ثم يكون كل جزء فى معرفتنا معتمداً فى مضمونه على خبرة الحواس وفى قالبه على فطرة العقل فى طريقة الإدراك وهكذا يكون كل جزء من معرفتنا حسياً وعقلياً ، إخبارياً وقبلياً فى آن واحد . ومن هنا يتضح لنا أن «كانت» قد وقف بمذهبه هذا بين الواقعية والمثالية لأنه اعترف بالإحساسات التى تأتى إلينا من الخارج كمادة أولية للمعرفة ولكنه من ناحية أخرى قرر فاعلية العقل واشتراكه فى صياغة تلك الإحساسات فى مدركات حسية .

وبعد هذا نجد أن الرسم التخطيطى الذى يفسر «الاستخدام الفنى لنقص التجارب على الإحساسات غير البصرية» لا مكان له بالأصل المعرب مع أن الترجمة التى يوضحها هذا الرسم التخطيطى ترقد فى الصحيفة رقم (١٠٩) بالنسخة العربية . فترى كيف يفهم قارئ العربية وجهة نظر ونظرية بدون الشكل الموضح لها . ومن الغريب أن تجد فى الأصل العربى قد كتب «إن الرسم البيانى رقم (١) يظهر الظروف الفعلية لهذه الحالة الشكل (أ ب) جسم إنسان مستقيم والكاميرا فى موضع (جـ د) مائلة بزاوية الشكل رقم (١) . . . الخ» . وأرجو أن يكون هذا الخطأ فى إخراج الكتاب ليس مقصوداً . وإتماماً للفائدة تجدها أيها القارئ العزيز فى مقالى هذا مطبوعة كاملة حتى تستطيع استرجاع قراءة هذه الفقرة من الكتاب وأظن أنها الآن أصبحت واضحة جلية بعد العثور على الرسم الذى يوضحها . (وهذا الرسم التوضيحى يوجد بالأصل الإنجليزى بالصحيفة المقابلة لصحيفة ٩٢) .

وأخيراً وبهذه المناسبة لا بد لى أن أشكر المترجم والمراجع على ما بذلاه من جهد مشكور لنقل هذا الكتاب القيم إلى العربية . وأود أن لا يكون هذا النقد البرىء مثار غضب فان النقد الصحيح إنما هو تعاون بناء يقصد به بلوغ الأهداف غير مشوبة بنقص أو قصور .

دكتور أنور محمد خورشيد



جان جاك روسو
(حياته وكتبه)

تأليف : الدكتور محمد حسين هيكل

لم يكن غريباً على كاتب « زينب » أن يكتب عن جان جاك روسو ، لا لأن زينب قصة تدور حوادثها فى الريف المصرى ، وجان جاك روسو ترجمة لحياة علم من أعلام الفكر الحديث ، ولا يعسر على كاتب القصة أن يكتب سيرة عظيم ما دام قد أوتى نبعاً من الثقافة التاريخية ، كما لا يعسر على مؤرخ التراجم أن يكتب قصة ما دام نبع الخيال فيه يفيض عن طاقته التاريخية فيلفح السيرة بنفحة من نفحات الفن وطلاوة العرض والبناء القصصى لهيكل التاريخ ، ولكن لأن المشاعر التى تحفل بها زينب لا نراها غريبة على مشاعر روسو فى « الهلويز الجديدة » ولا فى كافة ما كتب من وجد بالطبيعة وكلف بها نحسه فى وصف « هيكل » للريف المصرى ، ونلمسه فى نزعة إلى الرومانسية جاشت بها أحداث القصة .

فإذا كانت « زينب ثمرة الحنين للوطن » — كما يقول هيكل — وإن فيها كثيراً مما أحب « سواء لأنه دخل عالم الذكرى حتى لأعجز إن حاولت استعادته ، أو لأنه يمثل أحلام الشباب وخيالاته مما أبسم اليوم له كما أبسم لما أسمع من خيالات وأحلام لشبان هم اليوم فى مثل سنى يومئذ ، أو لأنه بعض عزم الشباب ومضائه . . . أو لأنه يشدو بموسيقى الصبا الحلوة العذبة المنبعثة من كل موجود فى الأرض أو فى السماء ، والتى تتغنى

بأهازيج الحب والوجد كما يعرفها الصبا خالية من كل ما يفجع ، طائرة على أجنحة من الأمل إلى جنات فيحاء كل ما فيها ورد وريحان وحور عين » . فإن جان جاك روسو – كما نعتقد – كان هو الآخر ثمرة الحنين إلى فرنسا وإلى أيام رأى « في مدينة النور ألواناً من الحياة تفسح أمام النظر آفاق التفكير ، وتزيد الإنسان إيماناً بحرية العقيدة والرأى ، وبأن التعصب ذميم ، وأن أول واجب على الإنسان أن يديم البحث عن الحقيقة ، وألا يكتفى بما يظن أنه وصل إليه منها ، بل يجعل دأبه تقليب هذا الذى وصل إليه ، فينفى عنه ما يعلق به من زيف ، ويرى من خلاله آفاقاً جديدة لهذه الحقيقة العظمى تترامى لنا من وراء الحجب ، فإذا هتكنا بعض هذه الحجب إليها ، بهرنا ضياؤها ، وجعلنا نقف أمام جلالها خاشعة أبصارنا من فرط هذا النور الذى تواجهنا به ، وإذا رجعنا إلى أنفسنا ، وحاولنا تصوير ما رأينا ، عجزنا عن هذا التصوير كاملا ، واكتفينا منه بما كان أشد لفتاً لنظرنا من هذه الحقيقة العظيمة ذات البهاء والجلال » .

وظهرت زينب عام ١٩١٤ بعد سنتين من الأوبة إلى الوطن الحبيب ، وظهر الجزء الأول من جان جاك روسو عام ١٩٢١ ، بعد تسع سنوات من لقاء امتد ثلاث سنوات بمدينة النور تركت فى نفسه من الأثر ما حمله على أن يعرض « على أبناء مصر والشرق صورة من قوة حيوية قامت فى الغرب لعل فى عرضها ما يجعل الصلة بين الشرق والغرب ممكنة على أساس التفاهم الحر المخلص ، لا على مجرد القوة الغاشمة المتحكمة بتعرف وجوه شبه ولو قليلة بين أبطال هناك وهنا تجعل المشابهة الظاهرية فى الوجود الإنسانى بين جميع سكان المعمورة دليلا على إمكان المشابهة الروحية والعقلية التى هى فى جوهرها أساس المساواة القائمة على المودة والتجاذب » .

لكن هل هذا وحده هو ما حمل « هيكل » على كتابة سيرة جان جاك روسو وعرض أفكاره وبعض كتبه ؟

إذن ما كان للهوى وما كان للحنين أثر فى الحافز الذى حمله على كتابة « جان جاك روسو » ما كان للحنين إلى مصر ، والهوى « إلى هذه الطبيعة الهادئة المتشابهة اللذيذة ، إلى هؤلاء الذين أحببت وأحب ، إلى بلاد بها ولها عشت وأموت ، إلى مهبط وحى الشعر والحكمة منذ الأزل » – كما يقول فى إهداء زينب – من حافز على كتابتها .

ولكنه يقول : « هذا إذن هو الدافع الذى حدا بى لبحث حياة روسو وكتبه ، ولكنى فوق ما قدمت لا أدعى استطاعة القيام بهذا البحث على وجه كامل . أولا لأنى لم أتخصص له ، وإنما هويته فأخذ منى وقتاً ومجهوداً كانا من خير الأوقات والمجهودات التى أنفقت فى حياتى ، فلم أشعر معهما بألم ولا بملال ، بل كنت أتنقل من تذوق أنواع من اللذة وأشعر فى أعماق روحى بدسم ما يصل إليها أثناءها من الغذاء » .

لم يكن الهوى وحده ما حمله على بحث حياة روسو وكتبه ، بل لتشابه ما بين الاثنين فى الفكر والخيال والمشاعر بل وفى طلاوة العرض والأسلوب المنغم الزاخر بالرؤى والمشاعر ... هذا التشابه الذى عبر عنه هيكل بقوله : « وقد كان ما حبب إلى روسو وجعلنى أميل إليه بوجه خاص أمران : الأول طريقة فى التفكير تكاد تكون شرقية والثانى شخصية المفكر الذى خلد على الدهر على ما كان عليه من فقر واضطراب نفسانى يقارب الجنون وعلل وأمراض ونقائص لا حد لها ولا نهاية ، وفوق هذا وذاك حببه إلى فكرة سامية قائمة على أساسين متينين من العدالة الاجتماعية والإيمان بالعمل » .

« فأما طريقته فى التفكير فتكاد تكون شرقية لأنها نوع من إجلال الطبيعة والإيمان بأنها مصدر الخير وأصل نعمة الحياة والحياة الناعمة ، وبأن ضمان السعادة فى القناعة بما تهبه ، وحسن عرفانه والمتاع بمنماه أكثر من المتاع بمادته ، ولو أنك رجعت إلى كبار المفكرين فى الشرق ومن جاءوا بالأديان من رسله وأنبيائه لرأيت هذه المعانى متجلية عندهم مع هذا الفرق دائماً ، وهو أن روسو يدعو إلى القناعة والتنعم ، فى حين يرى الأكثرون من رسل الشرق وجوب التخلى عن كل نعمة والانقطاع والترك والجهاد للخلوص من نير الحياة الدنيا على أمل الخلود هناك فى الحياة الآخرة » .

إذن فقد وجد هيكل فى روسو غذاء قلبه وروحه وصدى مشاعره وإحساسه ، على بعد ما بينه وبين روسو فى النشأة والتكوين الثقافى ، فقد عاش هيكل حياة طيبة مرموقة وينمى إلى طبقة ، وإن لقيت من عسف الترك ما لقيه كافة المصريين ، إلا أن الأمور انتهت إليها وكان هيكل من أقطابها النابهين ، بينما عاش روسو حياة مضطربة شريدة يلوذ بالطبقة التى يحل عليها ويلعنها ثم يتأبى عليها فاذا لقى من بعض أفرادها تكريماً نوه به وأعلى من شأن صاحبه عنواناً على المساواة التى ينادى بها .

وواصل هيكل الدراسة إلى أرقى مراميها فكان أول من حصل على درجة الدكتوراه من المصريين ، ولم يتلق روسو تعليماً منتظماً وكان معلم نفسه ، إلا أنهما اجتمعا فى محراب الفكر ووجد هيكل فى أفكار روسو هوى نفسه وصدى مشاعره

وكان « جان جاك روسو » أول محاولة لهيكل فى عالم السير ، وقد أوفى فيها من بعد على القمة من كتابة المعاصرين فكتب « حياة محمد » و « الصديق أبو بكر » و « الفاروق عمر » إلى عدد آخر من التراجم القصيرة لصفوة من الشرقيين والغربيين . وكانت محاولته الثانية فى عالم التأليف إذا استثنينا ما كان ينشر من مقالات وبحوث فى الصحف

والمجلات مدة اشتغاله بالمحاماة وقبل أن يتولى تحرير السياسة والسياسة الأسبوعية.

وظهر الكتاب في طبعته الأولى في جزءين الأول عام ١٩٢١ كما قلنا والثاني عام ١٩٢٣ .

وقصر « هيكل » الجزء الأول على حياة روسو منذ نشأته حتى رحيله عن فرنسا بعد أن صدر الأمر باعتقاله أثر نشر كتابه « أميل » ، واتهام البرلمان له أن فيه أفكاراً تخالف العقيدة المحترمة في المملكة ، وكان بوسع روسو أن يتجنب هذا لو أنه أصدر الكتاب دون أن يضع عليه اسمه كما كان يفعل ڤولتير . فإذا تعرض له رجال القانون أنكر الكتاب وأنكر نسبته إليه ، أما وقد صدر باسمه فقد تحمل أفكاره ، وغدا على الحكومة أن تحافظ على العقائد السائدة من أن يمسها أحد بسوء أو يعرض لها إنسان بفكر . مع ما حفل به هذا العصر من نقد للعقيدة وميل إلى الالحاد ، وكانت طائفة كثيرة العدد على رأسها ڤولتير تتعرض للعقائد بأكثر مما تعرض لها به روسو وتتهكم عليها وعلى رجال الدين بأكثر مما تهكم روسو ، ولكنها لم تكن تسفر عن تهكمها وتعلن ما يمكن أن يعد تحدياً لها ، وكان يكفي أن ينكر المؤلف نسبة الكتاب إليه لينجو من المؤاخذة ، مهما علم الناس طرا أنه صاحبه ، ومهما نوه بأفكاره أو اعتد بنسبتها إليه في مجالسه الخاصة .

وفي هذا الجزء يمضي هيكل مع روسو منذ مولده بمدينة جنيف « من أعمال سويسرا في ٢٨ يوليو سنة ١٧١٢ من أبوين من أواسط الناس هما اسحق روسو صانع ساعات وسوزان برنار ابنة رجل أنعم من زوجها حالا ويشتغل بمهنة التعليم » وقضى مولد الطفل على حياة أمه ، فبقى مع أبيه سنواته الأولى حتى بلغ السادسة من عمره ، فبدأ يعلمه القراءة « وجعلا يقضيان الليالي في قراءة روايات تركتها أمه ، ويصرفان في ذلك معظم الليل ، وكثيراً ما آذن الصبح وهما على هذه الحال فكان داعيهما إلى الهجوع والنوم » . وبعد سنتين حملت بعض الدواعي أباه على السفر فعهد به إلى خاله « برنار » الذي « أرسله مع ابن له إلى « بوسى » عند معلم يدعى المسيو لامبرسييه »

ويتتبع المؤلف مشاعر الفتى منذ بدأت تتفتح ، منذ ذلك الحين وهو يدرج إلى الصبا والمراهقة مما سيكون له أبعد الأثر في أفكاره وفي المتناقضات التي حفلت بها حياته . ويحدد النوازع التي أثرت في نفسه ، وحددت اتجاهات فكره فيصور ما كان من حبه في تلك السن الباكرة « لمدوازيل لامبرسييه » شقيقة معلمه وكانت في الأربعين من عمرها وتقوم على الطفلين قيام الأم وتعنى بتربيتهما ، هذا الحب الذي استعذب معه كل عقاب توقعه به ، « ولولا حبي لها ورقتي الطبيعية — كما يقول في اعترافاته — لما امتنعت عن استثارة ما يستحق العقاب ، فقد وجدت في الألم والخجل الذي يعقبه شيئاً من اللذة زاد عندي الرغبة في أن ينالني من التي أنا لتنبه على الخوف من أثره » .

ويقول هيكل أن حب روسو لمدوازيل لامبرسييه كان أحلاماً ، وتصورات لا يمكن لطفل في مثل سنه أن يصل إليها مهما بلغ من خياله ، « وقد استشعرت الفتاة ميله فلم تعد تسمح له ولا لابن خاله برنار بالنوم في غرفتها ، واعتبرتهما في سن لا يجوز ذلك معها » .



« وهذا النوع الخيالي من الحب هو الذي تخلل حياة جان جاك كلها وسيكون ذا أثر كبير في كتاباته ومؤلفاته ، وهو يرتكز على خيال قوى وعلى حياء كثير ، ولروسو حظ وافر من الصنفين ، كثيراً ما جعله يخطئ في النظر لنفسه وللأشياء فيعد إحجامه المبني على الحياء أنفة ، وخيالاته الموهومة حقائق وأفكاراً » .

وشطح به الخيال إلى حب جديد بعد انفصاله عن معلمه برنار ورحيله إلى « ينون » حيث يقيم أبوه ، فعلق قلبه بفتاة في الثلاثين وبأخرى في مثل سنه ، وكان له حيالها موقف مختلف ينم عن شطحات خيال عارم وعجز يحكمه الخجل حتى تنجيه الجماعة منه « فترجع إليه صبوته ونشوته » . كان حبه للكبرى مشوباً بالعطف والاستئثار وكان حبه للصغرى ممزوجاً بالخضوع والاذعان ، مما يفصح عن التناقض الذي شاب فكره وحياته من بعد .

وتمضي الحياة بالفتى مضطربة لا يستقيم فيها على منزع ولا يستقر على هدف ، فما أن يترك « نيون » ويعود إلى خاله « برنار » حتى يدفع به إلى أحد « الكتبة العموميين » ليأخذ عنه الحرفة ، ولكن العمل لا يروق لروسو فيطرده معلمه ، ليدفع به خاله مرة أخرى إلى معلم

لنقش المعادن يمده للعمل فى صناعة الساعات ، فكره المعلم لفظاظته وأحب العمل لميله إليه فأخذ يزاوله سراً بعيداً عن رقابة معلمه ، فلما عرف بأمره انهال عليه ضرباً وطرده . فكره عملا يقول عنه فى اعترافاته إنه ربما أحبه ، وحمله برذائل يبغضها من بينها « الكذب والكسل والسرقة » .

وارتحل عن جنيف بعد أن ضاق بمعلمه ،وكان فى السادسة عشرة من عمره ، وكان إلى هذا الوقت « يعيش تحت سيطرة أهله إن أباه أو خاله » وظن نفسه قد تحرر من ربقة الأسر « وأصبح قديراً على الوصول لأرقى الغايات » ، فيقول : « ودخلت العالم العظيم بكل ثقة آملا أن مواهبى متحف بى ، وأنى سأجد عند كل خطوة أخطوها أعياداً وغنائم وأصدقاء يرجون خدمتى ، ورفيقات كل غرضهن أن يعجبننى ، على أنى لم أكن أريد أن يشتغل بى العالم كله ، بل كنت مكتفياً أن تحيط بى جمعية جميلة تنسينى ماسواها ، ووقفت أطماعى على الوجود فى قصر تخصنى فيه عناية السيد والسيدة ، وتصبح البنية فيه رفيقتى والابن صديقى ، والمجاورون فى حمايتى » .

« هذه أطماعه يومئذ — كما يقول المؤلف — ومن خلالها يرى القارئ جان جاك الخيالى السابح فى بحار الوهم البعيد عن حقيقة ما يحيط ببنى آدم الذين يتشردون » .

ولقد شغل المؤلف عن تحليل هذا الخاطر فى تمسكه بالبناء القصصى للسيرة ، وكان من الممكن أن يدمج الاثنين معاً ، لولا أنه — كما نعتقد — قد آثر البناء القصصى تاركاً التحليل إلى موضعه حين يعرض لكتبه ، وإن لم يفته أحياناً أن يشير إلى ملامح سلوكه وخطرات نفسه ، ليهيئ للمعوقات التى تكون تفكيره عندما يعرض لها فى كتبه ، وإن كنا نرى فى هذا الخاطر ما يحملنا على الوقوف عنده متسائلين ، أكان داعية المساواة ، ينشد المساواة لذاتها أم يحمله إليها حافز نفسى أقرب ما يكون إلى مركب النقص ، وهل كان من اليسير على داعية المساواة أن يرى فيها رأيه هذا فيما لو اختلفت ظروف حياته ونشأ فى الطبقة الأرستقراطية السائدة ، وهذا ما أبرزه المؤلف فعلا فى مناسبة أخرى معللا إياه بالتناقض والاضطراب النفسى الذى ساد حياته .

وتحمله قدماه إلى « كونفنيون » فى بلاد السافوا ويلتقى هناك بقسيس البلدة « المسيو بنتفير » فيكرم وفادته أملا فى أن يحوله عن البروتستانتية إلى الكاثوليكية ، ويحمله رسالة إلى « مدام دى فارنس » فى « أنسى » لتحوله عن عقيدته فيراها « فى الثامنة والعشرين من عمرها ، وكان جمالها من ذلك الجمال الباقى ، لأنه فى الخلقة كلها لا فى القسمات منفردة ، لذلك كان جمالها لا يزال فى كل نضرته ، وكانت ذات روح مملوءة حناناً ، ونظرات كلها الرقة وابتسامة ملائكية ، وفم على قياس فمى ، وشعر نادر نوع جماله ، وكانت صغيرة الحجم نوعاً ، بل قصيرة متقاربة فى قوامها من غير تشوبه ، لكنها يستحيل أن نجد مثل جمال رأسها وصدرها ويديها وذراعيها » . وسرعان ما قامت بينهما صلة من الود والتوافق ، « ولولا أن راهباً لاحظ ما هنالك وبحث وراء إقصاء روسو ، واضطر مدام دفارنس ، محافظة على مركزها ، لتوافق على هذا الاقصاء لعاش روسو إلى جانبها من ذلك اليوم سعيداً ، لكن كأنما قضى عليه أن يغادرها بعد أيام من وصوله ، ليرجع إليها من جديد بعد زمن يمضيه فى البؤس والنحس فيتمتع بعد ذلك بحب يتعدى حب الخيال ويمازجه شيء من الخسة والخذلان » .

ويترك روسو « انسى » إلى «تورين» بصحبة ذلك الراهب ، ويلتحق بالدير ليتعلم الدين الجديد حيث لقى جماعة من الشبان يتجرون بالعقيدة ، وأراد أحدهم أن « يفسق به » فأذاع « الخبر فى الدير ، لكن الرهبان هناك انتهروه بحجة أن الأمر تافه ، لا يستحق كل هذا الاهتمام ، بل وأخبره أحدهم أنه فى صغره مر بالدور الذى أراد صديق روسو أن يخضعه له ، وأنه لم يجد فى ذلك ألماً ، وبعد ثمانية أيام ألبس ذلك الغلام الفاجر الثياب البيضاء علامة الطهر وصبت عليه كأس الكثلكة ».

ويعود إلى حياة التشرد ، ويقارف ألواناً من الشذوذ كأن يتصدى للنسوة فى أماكن قصية ويحملق فيهن ويأتى بأفعال منكرة ولا يصده عنها إلا بعد أن حصرنه وكدن يفتكن به فلم يخلص من أيديهن إلا على يد رجل أنقذه من فتكهن إدعاءه الجنون ، ثم يلتحق بخدمة الكونت « جوفون » وعلق بابنته كعادته فى الوقوع فى الحب ، فلم تلق إليه بالا ، واتخذه ابن الكونت سكرتيراً وخادماً « وجعل يعلمه اللاتينية وأتقن معه الطليانية » ، ولكنه أعفى من الخدمة بعد أن صادق شاباً لم يرض عن صداقته به أهل البيت .

ويمضى إلى « انسى » ويقابل « مدام دفارنس » وكان الود بينهما لم ينقطع فكان يكتب إليها وتكتب إليه طوال غيابه ، وتلقاه بالعطف والاشتياق فيمتلء قلبه بالرضا والطمأنينة ، ويثوى إلى نوع من الاستقرار . واتصل بينهما حب عذرى فى البداية ، وأرادت أن تجعل منه قساً ، بعد أن استشارت فى أمره صديقاً ، رآه وكلمه « فحكم بأنه لا يصلح لشىء ، فهو ضيق العقل ، أكثر ما يمكن أن يصل إليه مع التساهل فى الحكم أن يكون قساً فى قرية » . وكان هذا رأى الكثيرين فيه ، ويفسر روسو هذه المسألة بقوله : « يجتمع فى شيئان متضادان أو يكادان ، لا أستطيع أن أتصور اجتماعهما ، فاحساس شديد ، وعواطف قوية ، وشهوات متحكمة ، يقابلها أفكار بطيئة التبين ، لا تظهر إلا بعد زمن ، فكأنما فى قلب رجل وعقل رجل آخر ، فأما العواطف فتسرع إلى كالبرق تملأ كل

نفسى ، ثم لا تضىء شيئاً أمامى ، بل تغشانى وتتركنى محساً بكل شىء ، غير مبصر شيئاً ، ثم أبقى متبلداً يعوزنى الهدوء المطلق كيما أفكر » .

وتمضى به الحياة مع مدام دفارنس على تلك الوتيرة ، ويتوفى كلود آنيه ، فتصبح له وحده ، ويقضى وقته فى تعلم الموسيقى ، أو فى القراءة ، أو اجتلاء مفاتن الطبيعة ، وتنتابه هواجس المرض فيرحل فى طلب العلاج ، وفى سفره يلتقى بمدام « دلارناج » وعلى قصر ما بقى معها أسلمته نفسها وكتب يقول فى اعترافاته : « ولولا مدام لارناج لمت من غير أن أعرف الملذات » .

وحين يعود إلى مدام دفارنس تقابله ببرود ويعرف أن شاباً آخر قد احتل مكانه « وأصبح عشيق أمه المحبوبة لديه » فينتابه الأسى ويرفض ما عرضته من أن يكون شريكاً للعشيق الجديد . ويمضى عنها إلى عمل آخر لايمكث به غير عام ، ويرجع إلى مدام دفارنس فتقابله بفتور ورأى حالتها تتدهور فعزم على أن يعينها ، ووضع طريقة جديدة لرقم الموسيقى ذهب ليعرضها على الأكاديمية فى باريس ليجد من ريعها ما يقيم نفقاته ويعين به أمه ، ولكن طريقته لم تقبل ورفضتها الأكاديمية ، وبقى فى باريس يتصل بخدمة بعض سيدات المجتمع الراقى ، ويلتحق بخدمة رجل فى السلك السياسى يعمل فى البندقية . فيقيم بها زمناً حتى يختلف معه فينفصل عنه ويرجع إلى باريس ، يعرض شكواه على ذوى الأمر فلا يجد غير الصد والاعراض فتمتلىء نفسه وجداً على ما يقع من ظلم فى الحكومة .

ويتعرف فى المنزل الذى يقيم فيه بفتاة تدعى « تريز لفاسير » يربط حياته بحياتها رغم « عقلها الذى بقى على فطرته لا يعلق به تهذيب ولا تفيده تربية » مما يشير إليه فى اعترافاته فيقول : « ولست أخجل حين أعترف أنها لم تحسن أبداً القراءة وإن كانت تكتب كتابة مقبولة ، ولما أقمت فى شارع بتى شان . كان مقابل نوافذى فى قصر « بونتشارترن » ساعة كبيرة جاهدت أكثر من شهر لأعلمها فيها معرفة الوقت ، وهى الآن لا تكاد تعرفه ، وما استطاعت يوماً أن تفهم نظام الاثنى عشر شهراً السنوية ، وهى لا تعرف رقماً واحداً رغم المجهودات التى أنفقت لافهامها الأرقام ، فلا تعرف عد النقد ولا ثمن شىء ما ، والكلمة التى تنطق بها هى أغلب الأمر عكس ما تريد أن تقوله ، على أنها رغم مبلغها هذا من الغباوة – بل ومن البلادة إذا أراد القارئ – فلها نصائح ثمينة فى أحرج الأوقات ، وكثيراً ما رأت ما لم أره أنا أيام كانت تحيط بى الخطوب فى سويسرا وانجلترا وفرنسا ، وكثيراً ما انتشلتنى يومئذ من أخطار كنت أقدم عليها إقدام الأعمى ، ولقد أكسبتها إحساساتها وحسن نظرها وسلوكها الاحترام العام أمام أرق السيدات ، وأمام الكبراء والأمراء ، كما سمعت أنا من أجلها ثناء ظاهراً إخلاصه » .

ولم تعجب هذه العلاقة كل من كتبوا عن روسو وأسفوا لها ، ما عدا القليل الذى وجدها أمراً طبيعياً بالنسبة لرجل على شاكلة روسو . وجرت عليه هذه العلاقة وزراً أكبر حين تنازل عن أولاده منها لملجأ اللقطاء .



وفى باريس بدأ روسو يستقبل الشهرة فكتب أوبرا « الميز جالانت » أى الشيطانات الرقيقات ، فأعجبت ريشليو ومثلت أمام الملك ، ويثير الاعجاب حين يظفر بجائزة « أكاديمية ديجون » عن موضوع : « ما إذا كانت العلوم والفنون قد أصلحت الأخلاق أو أفسدتها » .

ويحمل روسو فى رسالته تلك على العلوم والفنون ، فيعارض الرجل الطبيعى المسترسل مع فطرته السعيد فى جهله ، القانع من حياته بما حوله ، بالرجل المتمدين المترف الذى يدعى لنفسه التفوق فى العلوم والفنون ، ويقرر « أن نفوسنا تفسد بمقدار تقدم علومنا وفنوننا إلى الكمال » . واستهدى أمثلته تاريخ المصريين واليونان والرومان وما كانوا عليه من شجاعة وكرم ونجدة وارتقاء ، معارضاً إياهم بما صار إليه أهل زمانه « المنغمسين فى الشهوات المتربعين فى دست الملاذ الملوثين فى حمأة اللهو وأدران التمدين » ويحكم بأن « الترف والانحلال والرق كان فى كل زمان الجزاء الأوفى للمجهودات المتغطرسة التى صرفناها للخروج من الجهالة السعيدة التى اختارها لنا العقل الأزلى » .

ولا يتفق هيكل مع روسو فى هذا الرأى ويعلل عجزه عن إدراك القيم العلمية والفنية وهى « أثر من آثار الاجتماع ، بل هى زينته وتاجه » بفشله الاجتماعى وما لقيته أعماله الفنية من سقوط وخاصة الموسيقى التى صادفه فيها النحس المستمر . ويرى أن « ابن الطبيعة الذى يدعو إليه روسو ويضربه مثلا أعلى للإنسان إنما هو روسو الفطرى الشهوانى الأنانى الضعيف العاجز عن أن يتبع قانوناً سوى ما يوحى له به قلبه من الالهام الوقتى ، هو ذلك المتشرد القديم القليل المعرفة بالحياة المدنية البالغ من الخجل منتهى درجاته ، والجمعية على النظام الطبيعى إنما هى تلك

الجمعية التى رآها فى قرى سويسرا ، والتى هى منتهى ما يتصور خيال رجل من العامة عدو للترف شديد الاعجاب بحياته البسيطة التى يستهين بها الرأى العام المدنى ويحكم عليها بالانحطاط ».

وعزا روسو العلوم فى أصولها إلى نقائص الإنسان . « فأصل الفلك الطيرة ، وأصل الفصاحة الطمع والكراهية والنفاق والكذب ، وأصل الهندسة البخل ، وأصل الطبيعة الطلعة الكاذبة ، وأصل كل العلوم والأخلاق التى ترتبت عليها إنما هو الكبرياء الإنسانية » .

ويعلل ما أصابته رسالة روسو من نجاح واستهواء ما كانت عليه الجمعية من ترف ظنه الكثيرون مصدر الشقاء لبلادهم وإن لم يجهروا برأيهم . فلما جهر به روسو بما فى بيانه من حرارة وثورة غطى خلل منطقه ، استقبله الناس بالتهليل والاكبار .

ويرى هيكل أن روسو لم يقصد الرجوع بالناس إلى ما يشير إليه خطابه « ولكنه رأى الإنسانية الوضيعة من جماعات العمال واضرابهم تبعث صيحات ألم عرف مضاعفتها لكثرة ما أصابه من مثلها » فخيل إليه أن ترف الأغنياء وصلفهم مصدرا لشقاء ، والعلوم والفنون هى التى أدت إلى الترف .

وقد عاد روسو إلى نفسه يراجعها أفكاره فلم ينكص عنها ، ولكنه فى دقة ومهارة خفف من غلوائه من غير أن يفصح عن ذلك ، فنراه يخاطب ستانسلاس قائلا : « ثم ماذا . أفيجب علينا أن نلغى من الأشياء كل ما ساء استعماله ؟ أجيب من غير تردد : نعم وبلا شك يجب إلغاء كل ما لم يكن مفيداً ، وكل ما كان الاغراق فيه أكثر ضرراً مما يأتى به استعماله من الفائدة ، ولكن حذار أن نستنتج مما تقدم ما يوجب علينا حالا أن نحرق كل المكاتب ، وأن نخرب كل المدارس الجامعة والأكاديميات فإنا إن فعلنا ذلك رددنا أوربا إلى الهمجية ، من غير أن تكسب الأخلاق من وراء فعلتنا شيئاً » .

وتصبح أفكاره أكثر أصالة حين يرد الترف إلى الثراء فيقول فى رده على ستانسلاس : « ربما قيل إن الترف والشرف ليس أصلهما العلم ، ولكنهما يرجعان فى كل زمان ومكان إلى الثروة . وما قلت إن أصل الترف العلم ، ولكنا قلت إنهما ولدا معاً ، وإن أحدهما لا يعيش إلا مع الآخر ، وإليك كيف رتبت المسألة ، فالأصل الأول للشر هو عدم المساواة ، وعن عدم المساواة تنشأ الثروة . والثروة تولد الترف والفراغ ، والترف أصل وجود الفنون ، والفراغ أصل وجود العلوم » .

واستقام روسو على هذا الرأى ودخل فى يقينه أن عدم المساواة هى مصدر كل شر حتى أصبح يردد هذا القول : « يطعم الترف مائة فقير فى مدننا ويكون سبباً فى هلاك مائة ألف فى القرى » . فاستهوى الناس إليه واقتعد عرش الفكر فى عصره .

وليست فكرة روسو عن الترف جديدة فقد أشار إليها ابن خلدون فيما يصيب الأمم المترفة من ضعف يجعلها فريسة سهلة لأمم البداوة القوية العارمة ، وعزا إليه « جيبون » سقوط الإمبراطورية الرومانية ، وإن عزا إليه روسو ما أصاب الإنسانية — دون الدولة كقوة — من شر وبلاء . وهى أصدق على الدولة منها على الإنسانية ولعلها إن صدقت على الإنسانية — كما يقول الدكتور هيكل — فهى « بالغة التطرف ، فإن ما يفسده الترف لا يتعدى طبقة خاصة من أغنياء أهل المدن ؛ أما سكان القرى ومتوسطو الثروة من أهل المدن فلم يفسد عليهم الترف شيئاً ، لأنه لم يحل بين أظهرهم ، وهؤلاء أفادتهم العلوم والفنون أجل الفائدة وينرت لهم من سبيل السعادة بما فتحت لهم من كنوز الأرض ، وخزائنها ، وبما أوضحت لهم ما فى الطبيعة من جمال وإبداع » .

والغريب أن يتميش الطاعن على الفنون من نقل نوت الموسيقى . ويفكر فى وضع « أوبرا » على نسق الموسيقى الإيطالية ، فأتمها ودعاها « آلهة القرية » ومثلت أمام البلاط الملكى فى فونتنيلو ولقيت من النجاح ما حمل الدوق « دمون » على أن يدعوه إلى مقابلة الملك عساه يجعل له فى خزانته رزقاً ، ويستوحش روسو فيرفض مقابلة الملك ويستغنى عن الرزق ، وبينما هو فى أوج انتصاره تعلن أكاديمية ديجون عن مسابقة أخرى وحددت موضوعها وهو : « ما هى أصول عدم المساواة بين الناس ؟ وهل يرضاه القانون الطبيعى ؟ » فلم يكن أسبق منه للنظر فيها والكتابة عنها ، وأطلق لخياله العنان متصوراً الإنسان الأول الذى يعتقده « طيباً بالطبع » ويمضى فى وصف هذا الإنسان وحياته الأولى البسيطة ، فاذا كانت القدرة على الكمال هى التى تميز الإنسان عما سواه ، وهى ميزة وهبتها الطبيعة إياه فلا يمكن أن تكون إذن ضد الطبيعة ، وإذا كان الحيوان يتقى عوادى الطبيعة بالبحث عن مأوى ، فإن الإنسان بفطرته يرتقى إلى حالة يجد فيها السعادة التى تصورها روسو فى حياة القبيلة التى لا تعرف الملكية ، وتتحقق فيها المساواة ، وينعم الناس فيها بالجهل وركود العقل والقناعة .

وبعد أن أظهر — كما يقول هيكل — أن عدم المساواة لم يكن موجوداً فى الحالة الطبيعية ، وفى الجمعيات الأولى غير المفكرة ، استطرد ليرى ما جاءت به المدنية من المصائب والأرزاء ، فظهر له أن أساس المدنية وأهوالها إنما هى فكرة الملكية . وكانت أول صيحة ارتفعت ضد الملكية وتقدمت الآراء الاشتراكية .

ولم تلق الرسالة على ما فيها من قوة ما لقيته الرسالة الأولى من تقدير الأكاديمية ولم تنل الجائزة .

ويستمر الدكتور هيكل فى بسط تاريخ السيرة فيذكر كيف آب إلى جنيف فى زيارة مع «تريز لتاسير» وكيف لقى مدام دفارنس وقد تغير حالها وذوى جمالها ، فأرادها على أن تهجر جنيف لتعيش معه يخدمها وتخدمه تريز فأبت ، فلما التقيا بعد ذلك وعلم بخلو جيبها أرسل إليها بعض المال مع تريز «وكانت هذه هى اللحظة التى يجب أن أقضى فيها دينى ، بأن أترك كل شىء لأتبعها وأن أبقى معها حتى ساعتها الأخيرة ، وأن أقاسمها حظها أيا يكون ، لكنى لم أعمل من ذلك شيئاً ، وأحسست أن ما كان بيننا من رابطة قد انقطع فلا يفيدها لأن رابطة أخرى ألهتنى عنها» .

ولا يرى هيكل فى حبه لمدام دودتو حب عشق أو حب رجل لأمرأة ، بل يراه حب فنان لمن يستوحى منها فنه وإلهامه . ويؤدى به هذا الحب إلى قطيعة مدام دنباى فيهجر صومعته لديها ، فى ١٥ ديسمبر سنة ١٧٥٧ ، إلى بيت فى «مو نمرنسى» حيث قضى أياماً مثقلا بالأمراض والمتاعب ، وبينا هو فى عزلته مقبلا على كتابة روايته ، طالع فى «الانسكلوبيديا» مقالا كتبه دالمبير بمشورة ڤولتير عن جنيف يقترح فيه إنشاء مسرح بها ، تمثل فيه «الروايات والقطع الهزلية» فحمل على المقال وكاتبه وعرض بڤولتير وبالتمثيل فى خطاب إلى دالمبير بحجة أن إنشاء المسرح يفسد أخلاق أهل جنيف ، فجلب على نفسه عداوة ڤولتير إلى الأبد وإن استثار خطابه أريحائة رد عليه ، ونال نجاحاً ما بعده نجاح .

وتعرف فى مقامه الجديد بدوق لكسمبور أحد مارشالات فرنسا وزوجته ، فأقام فى قصر صغير ملحق بقصرهما يقع بين «أشجار البرتقال من ناحية وبرك الماء من ناحية أخرى فوق عمد عديدة نظمت بحيث يتخللها الهواء ، ويذهب عنها الرطوبة ، فاذا أنت نظرت إلى هذا البناء من الجهة المقابلة للماء خيل لك أنه جزيرة مسحورة ، أشبه الأشياء بالجزيرة الجميلة Isola Bella فى البحيرة الكبرى من البحيرات الإيطالية» .

وعند هذا الحد يقف المؤلف من حياة روسو ينهى الجزء الأول ويبدأ الجزء الثانى بجولى أو هلويز الجديدة ، إلا أنه لا يضم غيرها وغير كتابه فى التربية .

وبعد نيف وأربعين عاماً تظهر هذه الطبعة التى نحن بصددها وقد ضمت الجزءين معاً وأضافت إليهما فصلا نشر بالسياسة الأسبوعية كما قلنا . نستطيع أن نعده ختاماً طيباً لكتاب عن روسو ، إنه إن أسهب فى عرض كتابيه هذين وأغفل كتبه الأخرى فإن ما عرض فيهما يعد كافياً للاستدلال على روسو ، ولم يكن فى استطاعة المؤلف أن يعرض لبقية كتبه عرضه لهذين الكتابين إلا أن يستنفد من الجهد والوقت ما تشغله حياته فى الصحافة والسياسة .

فلنتناول عرض المؤلف لهذين الكتابين وللمقال الأخير .

هلويز الجديدة :

يرى المؤلف أن رواية هلويز الجديدة التى تقع فى ألف صفحة هى بداية البناء الرائع الذى شاده روسو فى عالم الرومانتيسم أو الرومانسية الذى «حكم بسلطانه بعد ذلك على أدب القرن التاسع عشر» . وجمع فى دفتيها «العواطف الهائجة والمشاعر المضطربة والأفكار الثائرة والميول الفلسفية والأبيقورية الزاهدة والنزعة لتحكيم الشعور فى العقل ووضع ذلك كله بأسلوب موسيقى بديع» .

والرواية مجموعة ضخمة من رسائل عاشقين هما جولى وسان برى ، وبينهما وبين من كانت له صلة بهذا الحب ، فكان أن ظهرت طبعتها الأولى بعنوان «خطابات عاشقين يقطنان مدينة صغيرة فى سفح جبال الألب جمعها ونشرها جان جاك روسو» . ولم تسم باسمها الذى عرفت به إلا بعد ما انتشرت ونالت من الاعجاب ما جعلها علماً على الحب والغرام . وصنواً رائعاً لقصة هلويز دابيلار الخالدة ، وهى قصة غرام بين قس نابه هو ابيلار وتلميذته هلويز ، فلما حملت منه ذهب بها إلى بريتانيا وعاد فعرض على خالها «فلبير» أن يقوم بينهما زواج سرى على نحو ما كان شائعاً فى ذلك العصر بين القسس المحرومين شرعاً من الزواج ، وطرب فلبير لهذا الحل ولكن هلويز ترفض خشية الاضرار بمستقبل صاحبها وقالت : «أليس من الخطيئة أن تختص امرأة لنفسها رجلا خلقته الطبيعة ليكون للناس جميعاً» . وآوت إلى دير أرجنتيل ولم تنقطع المكاتبات بينها وبين أبيلار ولم ينقطعا عن اللقاء وارتشاف كئوس الغرام ، وأشاع فلبير أنهما ارتبطا بزواج سرى ليحملهما عليه ، ولكن هلويز كذبته فدس على أبيلار من خصوه ، واضطره بذلك إلى الاختفاء بدير سان دنيس ليدارى شينه ، ولكن هلويز أمعنت فى حبه وزاد تعلقها به ، وأعلنته فى الكنيسة ، وظلت الرسائل تترى بينهما بعد ما وهبا أنفسهما لله وعاشا فى حمايته ، ومات أبيلار سنة ١١٤٢ وعاشت بعده اثنين وعشرين عاماً مثالا للطهر والوفاء ، فنالت من أكرام القديسين والبابوات ما بلغ حد الاعتراف بقداستها وغدا قبرهما فى بير لاشيز مزار العشاق والمغرمين .

وسان برى صورة لروسو خالية من نقائصه دعته البارونة دتانج ليهذب ابنتها جولى وكانت يومذاك فى الثامنة عشرة من عمرها ، فوقعا فى الحب وكتماه واستمرا فى دراستهما ، وكتب إليها سان برى خطابين يبثها فيهما لاعج غرامه ووجده فلم تجبه ، فكتب إليها خطاباً ثالثاً أشار فيه إلى ضرورة ابتعاده عنها حتى لا يعكر صفو حياتها ، فأجابته مستبقية إياه قائلة له : «إن القلب الطيب الفاضل يعرف كيف يتغلب على هواه أو أن يكبته» . فلما علمت منه تصميمه على طاعتها بالتخلص



من حياته ، أفضت إليه بكل ما يحتويه قلبها من حب وضعف ، وتبادلا الرسائل جامعة كل معانى الوجد والجوى والحب العذرى مع بعض أفكار فى التاريخ والتعليم والأخلاق ، ولما فاض بهما الجوى تواعدا على اللقاء ليلا فى عوسج تضمه الأشجار على أن تكون معهما ابنة عمها كلير حتى لا يضلهما الحب .

وكتب لها سان برى يصف هذا اللقاء وما عراه من قبلتها ، فلما لمست ما بنفسها من ضعف كتبت إليه تأمره بالسفر ودفعت إليه ببعض المال فغضب وضاعفته وهددته إن رفض ، فبارح الديار من غير أن يراها ، واتصلت الرسائل بينهما ما بين حب وعتاب وغضب حتى حضر البارون دتانج وعرف ما أفادته ابنته من علم وحكمة ، وغضب إذ علم أن المعلم لم يتقاض أجراً ، وكبر عليه أن يتفضل عليه رجل من العامة ، وأمر أن يؤدى إليه أجر معين إن رفضه شكر عما قدم . وأرسلت إليه جولى تخبره بما كان من أمر أبيها .

ولا يرى سان برى سبيلا إلى فتاته غير الزواج ، ولكن البارون رفض أن يزوج ابنته من أحد العامة مهما كان علمه أو فضله ، ومرضت جولى فأرسلت إليه كلير تستدعيه ليراها ، فلما حضر كانت كلير قد غادرت « قشى » لزيارة مربيتها المريضة ، وتقابل المحبان ورفضت جولى أن تهرب معه ، ولكنها فى سكرة الهوى أسلمته نفسها وفقدت عفتها . واتصل اللقاء كما اتصلت الرسائل بينهما حتى حملت جولى وحتى اضطرت إلى اجهاض نفسها .

وتمضى أحداث الرواية والرسائل بين العاشقين تكشف ما يقعان فيه من تناقض بين الفضيلة والطهر وبين ما يعيان فيه من علاقة آثمة ، حتى يوسط صديقه ميلورد لدى البارون لعقد زواجهما ، ويثور الأب ويرفض ويحمل على ابنته وأمها فيصمهما بالمهانة والازدراء ويعلن أنه لن يزوج ابنته إلا من الشريف فولمار وغادر سان برى قشى بصحبة ميلورد إلى باريس بعد أن ألحت عليه كلير بذلك . وأقام فيها لا تنقطع رسائله إليها بوصف أهل باريس وما هم عليه من طيبة ورقة وظرف ، ولم يمض وقت طويل حتى وقعت الرسائل فى يد البارونة فاعتلت وانتهت بها العلة إلى الموت .

وترك موت الأم فى نفس الابنة آثاراً كادت تنسى معها سان برى ، وجاءها أبوها يعلنها بضرورة الزواج من بولمار ، فضعفت أمام الرجاء وأمام ما علمت من أن فولمار أصبح فقيراً ولم يثنه الجدرى الذى ترك بعض الأثر فى وجهها عن طلب يدها . فكتبت إلى حبيبها تسترجعه وعدها وحريتها ولم يتوان هو فى إجابة طلبها .

وفى رحاب الكنيسة استعادت هدوء نفسها ، وصار مجرد التفكر فى الذنب كافياً « ليرعشنى ويرعدنى » « وبدت لى طهارة الزواج وكرامته وقداسته مما وصف فى الكتاب المقدس ، وآمنت بواجبات الزوجة الطاهرة الرفيعة ، وبما لها من خطر فى أمر السعادة والنظام والسلام ، وبقاء نوع الإنسان » .

وعصف اليأس بسان برى وفكر فى الانتحار بعد أن أعلنته جولى بانقطاع ما بينهما ، فاذا شاء أن يكتب لها ، فليكتب إلى « مدام دورب » ابنة عمها ، وكتب إلى ميلورد يفند فى هدوء وطمأنينة حجج من يعتبرون الانتحار جبناً ومروقاً على الله . إلا أن كلمة من صديقه ردته عن عزمه ، فطفق يجوب البحار طلباً للسلوان مدى ثلاث سنوات متتالية . وجولى سعيدة ببيتها وزوجها وأطفالها ، لا يؤرقها غير أنها تخفى على زوجها ما كان ماضيها مع سان برى ، وفى موجة من إلحاح الضمير كشفت لزوجها عما كان منها ، فما كان منه إلا أن كتب إلى سان برى — وكان قد عاد من تجواله — يدعوه لزيارته ويقول : « كشفت أحكم الزوجات وأعزهن لزوجها السعيد عن مستور قلبها ، وهو يحسبك جديراً بما كان من محبتها إياك ، ويفتح أمامك بيتاً لا يسود فيه إلا الطهر والعفاف . وإنك لواجد فيه الصداقة والإكرام ، فراجع نفسك ، واعلم أن ليس ثمة ما يخيفك ، فاحضر ولا تثريب عليك ، وإنك لن تتركنا إلا بعد أن تترك لك صديقاً — ڤولمار » .

ويجتمع الثلاثة ومعهم « كلير » التى توفى عنها زوجها من قبل ، « وظلوا جميعاً سعداء بهذا العيش لا تلعب دوافع الشهوة بنفوسهم ، ولا يحس المسيو ڤولمار غيرة من هذا الضيف الذى فتك فى الماضى بعفاف جولى ، بل تجمع الفضيلة بينهم على نحو ما يريدون ، ولا غرابة فى قهرهم كل نزعات الحس فقد كانت إرادتهم فى متناول أيديهم ولم تكن قلوبهم من قلوب البشر » .

ويأخذ هيكل على روسو هذا الموقف كما يأخذه عليه كل خصومه ومحبيه . وليس وجه الغرابة فيه أن يجتمع الكل فى مكان واحد فلم يكن ذلك غريباً على هذا العصر ، وإنما الغريب فيه أن يكونوا جميعاً معاً ، ثم « يكونون من الطهر ، ومن الفضيلة بما لم يطمع فيه بفنوس فى قصة تاييس على ما كان من خلوص نفسه وقداسته » . ويرى أن روسو أراد أن يبرهن لعصره على أن القلب الطيب والإرادة الحسنة » يكفلان الطهر والفضيلة ، كما يرى أن روسو قد استجاب فى الأولى

لنزواته ونزعاته وفى الثانية لآرائه ومبادئه .

وتسير أحداث الرواية إلى النهاية التى اختارها روسو ، فيسافر ميلورد وسان برى إلى إيطاليا ويقع ميلورد فى غرام برى سان يرى فيه ما يحط من قدر صديقه كشريف من أشراف انجلترا ، ويحمل الفتاة على دخول الدير حتى يحول بين زواجهما ، وتحاول جولى أن تزوج « برى » من كلير حماية لنفسها ، فيأبى ويحلل عواطفه نحو الاثنين تحليلا بديعاً ، وتقترب القصة من نهايتها حين تخرج جولى للنزهة مع أهلها على شاطئ البحيرة ، فيندفع ابنها إلى الماء فترمى بنفسها وراءه وتنقذه ولكنها تصاب بمرض يقضى على حياتها . . وتنتهى الرواية بموتها .

ويسوق هيكل فى عرضه للرواية — هذا العرض الذى استوعب سبعاً وثلاثين صفحة من صفحات الكتاب — تحليلا رائعاً لمشاعر روسو ، وللصور والأحاسيس والقيم التى تجيش بها الرسائل ، وما كان لأسلوب روسو العذب الرقيق من تأثير على أدب العصر ، « فما زلنا ولن يزال من بعدنا يعجب بما فيها من صور بز بها روسو أدباء عصره وكتاب القرن الثامن عشر فى التمثيل والحس والخيال ووصف الطبيعة » .

أميل أو التربية :

ويستوعب عرضه لكتاب روسو فى التربية مائة وتسع صفحات ، يستهلها بقوله : « الإنسان طيب بفطرته ، وإنما أفسده الاجتماع الذى غشى على تلك الفطرة ، بما أوغل فيه من صور الحضارة وبابتعاده عن الحال الطبيعية وإمعانه فى ذلك حتى بلغ غاية التدهور فى القرن الثامن عشر ، ولا سبيل لإصلاح هذا الفساد إلا بوقف تياره ، والعودة بالأخلاق والعوائد والعقائد والقوانين وكل ما فى الاجتماع إلى أحضان الطبيعة ، والسير على نظامها وسننها ، يومئذ تزول من الاجتماع سمومه ويرجع الإنسان طيباً بالطبع كما كان » . ويوجز بهذا مضمون الكتاب وخلاصة تعاليم روسو فى التربية والاجتماع.

وقد عالج روسو بعض أفكار هذا الكتاب فى كثير من كتاباته ، التى عرض لها فى رسائله الخاصة ، وتناولها بايجاز فى مقال له عن « الاقتصاد السياسى » وأسهب فى شرحها فى « الهلويز » وعاد إليها بعد صدور « أميل » فى « خطابه عن حكومة بولونيا » .

ولم يكن روسو أخلاقياً لا بطبيعته ولا بتعليمه ، وكانت نشأته الأولى مثلا أعلى لسوء التربية ، عانى الفقر والبؤس والتشرد وضعة النفس وخدمة الغير ولوث نفسه بخبائث الكذب والسرقة وعدم الوفاء ، مما ينأى به عن رسالة المصلح الأخلاق الداعى إلى الفضيلة والتربية المثلى ، ويرى هيكل ، أن المصادفة وحدها هى التى جعلت منه أخلاقياً ، والمصادفة وحدها هى التى أدت إلى نجاح رسالته عن العلوم والفنون والفوز بجائزة أكاديمية ديجون فينبرى له المعارضون ، ويصمد لهم ، ويتحمس لفكرته فى « الرجعى إلى الطبيعة » وتأخذ عليه حسه وتملأ كل وجوده فيقلبها على كل وجوهها ويلون بها آراءه وأفكاره ، وتستهوى أفكاره الناس فيمضى فيها إلى النهاية مع قدرة على التحدى والمجالدة .

ولا يسلم هيكل بكل ما يرى روسو فى التربية فينكر عليه دعوته إلى التحرر من نير الوطنية ويراها فكرة عارضة عليه، سرعان ما رجع عنها وقال بعد ذلك بضرورة تنشئة الطفل على حب وطنه مع الإيمان بفكرة الإنسانية عامة ، ويأخذ عليه إهماله الدعوة إلى تعليم المجموع ورسم طريق لها ، ويبرز تناقضه فى كتابه هذا مع ما أشار إليه فى مقال « الاقتصاد السياسى » ورسالته « حكومة بولونيا » من ضرورة تعليم الأطفال جميعاً من غير تمييز بين أبناء الأشراف وأبناء العامة ، وإن اتفقت آراؤه جميعاً على وجوب فصل الناشئة عن الجماعة ، بل وعن العائلة ، وقاء لهم من أوضار الجماعة ، مما ينكره هيكل مؤمناً بأن الجماعة لا ينفك تأثيرها فى الطفل قائماً ولا سبيل إلى الخلاص منه ، وبأن حرمان الطفل من عواطف الأبوة والأمومة حرمان له من أرق معانى الحياة.

وأبدع ما يراه هيكل من فصول الكتاب ، الفصل الأول وهو الفصل الخاص بملاحظة الطفولة فقد عنى روسو فيه بنقد ما يتبع بتقييد الطفل بكل أنواع القيود وينادى بتركه حراً ، كما أبدعه الخالق حراً ، فلا يمنع من الحركة والتعبير ويترك لنفسه يستوحى سلوكه مما يحيط به ، وهو ما يسميه روسو « بالتربية السلبية » التى يجب اتباعها مع الطفل فى سنيه الأولى ، ولكنه ينقد فيه غلوه فى هذا النوع من التربية ويرى أن روسو قد استوحاه من طفولته المشردة . ويشير إلى ما يقع فيه من تناقض حين يعزف بالطفل عن قراءة الكتب لما فيها من أكاذيب ، ثم يرتب له ترتيباً مفتعلا ما يظنه هادياً لعقله وأحاسيسه .

فاذا بلغ الطفل الثانية عشرة من عمره ، فتفتق ذهنه واتسع إدراكه ، لم يعد ممكناً حصره فى دائرة التربية

الناشر : مكتبة النهضة المصرية
الطبعة الثانية - ١٩٦٥
٣٥٦ صفحة - قطع كبير

السلبية ، وحق البدء فى تعليمه ، لأنه فى هذه السن دون سنوات العمر كله يملك من القدرة ما يزيد على رغائبه وشهواته . فغريزته الجنسية لم تنفجر بعد ، ونمو بدنه المطرد يمنع عنه أى ضعف ، وما استوعبه من مشاهداته السابقة فى حاجة إلى الترتيب والتصنيف ، ووسيلتنا إلى ذلك أن نلهمه الحقائق المحسوسة من غير أن نعلمه اياها ، وأن نثير شغفه بما يقع عليه ونترك له حلها ، فليس له أن يتعلم ما يقال له وإنما ما يفهمه ويدركه ، وإذن « فهو لا يتعلم العلم ولكنه يبدعه » . ولنسمح له بقراءة بعض الكتب مما يكون فى متناول يده ويستطيع الحكم عليها حكماً صحيحاً .

ويسير روسو مع تلميذه إلى سن المراهقة حيث يقف بين الطفولة والرجولة ، ويبدأ الفرق الصحيح بين الجنسين ، فيتضاعف واجب المربى بعدها ، إذ على الطفل وقد بلغ مرحلة الصبا أن يتربى تربية خلقية وسياسية ولا يفصل روسو بين الاثنين فان « الذين يريدون أن ينظروا فى السياسة وفى الخلق منفصلين لن يفهموا أياً منهما » . ويناقش فى هذا الصدد قواعد الأخلاق والدين والعقائد وما يجب لإدراك التلميذ لها ، مما يسوقه إلى التعرض للعقيدة فلا يشذ عن إيمانه ، ولا يقبل ما يناقض تفكيره ، ويدعو إلى الديانة الطبيعية على لسان قسيس السافوا ، مخافة أن يؤخذ هو به ، ويدان بجريرته ، وقسيس السافوا إن هو إلا روسو نفسه ، ولكنه عنى به هذا القسيس « جيم » الذى لقيه فى دير تورين وهداه إلى عقيدته . فيناقش على لسانه النظرية الالهية ويراها حقاً ونبعاً لكل الفضائل فيؤمن بها إيماناً يقره العقل ويهدى إليه نور النفس ، ثم يناقش نظرية الاختيار فى الحياة وخلود الروح ، وينكر الوحى والنبوة والرسالة وتعدد الأديان ، ويدعو إلى هذا الدين الطبيعى الواحد الذى يقوم على وحى الضمير وهدى البصيرة .

وإلى هنا عرف أميل الوجود وما فيه بعد أن تكونت ملكاته تكويناً يمكنه من الحكم عليه ، وفى هذه يغدو التلميذ صديقاً لأستاذه ، يلازمه ويبحث معه كل أمر من الأمور بما يضمن ابتعاد التلميذ عما يمكن أن يناله من وسط سيء . أما التربية القويمة قد كرهت إليه الفجور فلا محيص له من البحث عن رفيقة حياته ، فيصف له روسو من يراها تصلح له ويدعوها صوفيا ، ويذهبان للبحث عنها يواجهان المجتمعات لا يخشى عليه منها فقد غدا التلميذ وله قدرة الحكم عليها دون الاندماج فيها ، ويطوف روسو بتلميذه صالونات باريس دارساً أخلاق الرجال والنساء بحثاً عن « صوفيا » .

ولما انقضى الوقت الذى رآه روسو لازماً لسياحات أميل عاد به إلى صوفيا واقترن الشاب بالفتاة ، ولكنه ظل على مقربة من أستاذه .

وتمضى ما يقرب من أربعين سنة على ظهور « جان جاك روسو » أول مرة ، فلا نرى كتاباً عنه خلال تلك المدة الطويلة يفوق ما كتب هيكل عنه أو يعلو عليه ، مع أنه كان حينذاك البداية لشاب يطرق مغاليق الفكر فى عزم ، استوى معه على القمة بين أعلامه فى النهاية .

د . حسين فوزى النجار

أسس الاشتراكية العربية

تأليف : د. عصمت سيف الدولة

الناشر : الدار القومية ، ٤٢٧ صفحة ١٧ × ٢٤ سم

ث ١٠٠ قرشاً

دراسة قيمة فى سبعة فصول للاشتراكية العربية ، وموقفها بين الاشتراكيات العالمية . أوضح خلالها المؤلف أصالة الاشتراكية العربية ، وتناول ما يرتبط بها من مفاهيم الجدل والحرية والقومية والوحدة ، مع مقارنتها بالاشتراكيات الأخرى والنظريات السياسية والاقتصادية المختلفة .

لماذا يشقى الإنسان

تأليف : على أدهم

الناشر : نهضة مصر ٢٦٤ ص
١٧ × ٢٤ سم ث ٢٥ قرشاً

ألوان من المقالات فى فروع شتى من الثقافة ، ما بين أدب وسياسة وتاريخ واجتماع وفلسفة ، جمعها عنوان واحد هو عنوان إحدى مقالات الكتاب . فننتقل خلال هذا الكتاب بين عوالم مختلفة من الفكر الإنسانى قديمه وحديثه ، تناولها المؤلف تحليلا ونقداً بأسلوب العالم المفكر فيه كثير من الأصالة والجزالة والسمو ، يزود القارئ بمتعة عقلية ومتعة نفسية معاً .

الاشتراكية والتطبيق الاشتراكى

تأليف: حمدى حافظ

إن « الاشتراكية » فى مجتمعنا حديثة العهد من جهتى الاعتناق والتطبيق ، وإذا كانت الاشتراكية – كمذهب اجتماعى واقتصادى وسياسى – يحتاج فى حد ذاته إلى شرح وإيضاح ، كشأن كل مذهب له قواعده ومبادئه وملامحه ، فان الاشتراكية العربية أشد احتياجاً لدى القارئ إلى الشرح والإيضاح ؛ لأن هذه الاشتراكية العربية نمط خاص بين الاشتراكيات الأخرى ، إذ لها ملامحها وخصائصها ، ولذلك نجد القارئ العربى ما زال بحاجة إلى أن يقرأ عن الاشتراكية بحوثاً موضوعية كاشفة ، لا تكتفى بمتابعة الحوادث أو رصد الوقائع ، بل تأخذ صفة التحليل والإيضاح ، حتى يتوافر لكل قارئ عربى الاقتناع الذاتى المأمول بأن الصبغة الاشتراكية القومية للمجتمع العربى الناهض، هى الصبغة التى توافق معتقداته ومواريثه الروحية والحضارية ، وتناسب ظروفه البيئية والاجتماعية ، وتعالج مشكلاته الفردية والجماعية .

ولعل هذا هو ما دعا الرئيس جمال عبد الناصر إلى حث المفكرين والباحثين على تقديم المزيد من الدراسات الكاشفة الوافية عن الاشتراكية عامة ، وعن الاشتراكية العربية خاصة ؛ ومن واجب هؤلاء أن يحققوا أمل الجمهور القارئ فى تقديم هـذه الدراسات ، وبذلك يكونون قد استجابوا لذلك التوجيه الكريم ؛ وبوحى من التلبية الطيبة لهذا النداء أقدم الأستاذ الكبير حمدى حافظ على إصدار كتابه « الاشتراكية والتطبيق الاشتراكى فى الجمهورية العربية المتحدة » الذى نشرته الدار القومية للطباعة والنشر بالقاهرة فى أكثر من ثلاثمائة وخمسين صفحة من الحجم الكبير .

الناشر: الدار القومية للطباعة والنشر ٣٥٠ ص ١٧×٢٤ سم - الثمن ٥٠ قرشا

ولقد استعان المؤلف الفاضل فى كتابه بالمراجع العلمية والكتب العالمية والبحوث الأجنبية، كما جعل فى طليعة مراجعه أقوال الرئيس جمال عبد الناصر فى الاشتراكية، وأقوال الدكتور محمد عبد القادر حاتم نائب رئيس الوزراء للثقافة والإرشاد القومى، ومن بين المراجع الأساسية التى اعتمد عليها «موسوعة العلوم الاجتماعية» طبعة سنة ١٩٦٤ لما فيها من اتساع وشمول، وكذلك كتاب: «الأنظمة الاقتصادية المعاصرة: الاشتراكية» للكاتب الأمريكى وليام كوكس، وقد تمت ترجمة هذا الكتاب ومراجعته بمعرفة المؤلف نفسه وهو الأستاذ حمدى حافظ.

وقد جعل المؤلف البحاثة الفصل الأول من كتابه عن «نشأة الفكرة الاشتراكية وتطورها التاريخى»، فأبان لنا كيف أن لفظة «الاشتراكية» استعملت بمعناها الحديث لأول مرة سنة ١٨٢٧ فى مجلة «التعاون» الإنجليزية، كما أبان لنا الفروق التى ظهرت فى استعمال هذه اللفظة على أقلام المفكرين والباحثين، وكيف أطلقت كلمة «الاشتراكية» أحياناً على نظم لا تتمثل فيها «الاشتراكية»، بل لعل بعضها كان اتجاهاً رجعياً معاكساً للاشتراكية نفسها. وبعض المناهج لبعض دعاة الإصلاح كانت تفسر خطأ على أنها مناهج اشتراكية. وقد وصف بعض كبار الأساتذة الألمان فى الثلث الأخير من القرن التاسع عشر تعاليمهم واتجاهاتهم بأنها اشتراكية، بحجة أنهم كانوا ينتقدون مظاهر الحرية المطلقة فى النظام الرأسمالى ويطالبون بتقييدها.

وليس من السهل أن تطلق صفة الاشتراكية على دعاة التضامن الفرنسيين الذين يقترحون تنمية الطابع التعاونى فى النظام الاقتصادى دون رفض النظام الرأسمالى، حتى يمكن تحسين أحوال المجموعات التى لا تمتلك شيئاً، وذلك لأنهم لم يدعوا إلى مبادئ جديدة أو إلى تحول اشتراكى، ومثل هذا يقال عما سموه «الاشتراكية الداروينية» المنسوبة إلى تشارلس داروين العالم الطبيعى البريطانى صاحب نظرية «النشوء والارتقاء».

وفى هذا الفصل أبان المؤلف الفاضل اختلاف نظرات الاشتراكيين إلى «الدولة» باختلاف اتجاههم الاشتراكى، وكذلك اختلافهم حول الوسائل المؤدية إلى تحقيق المبادئ والمثل الاشتراكية، فمنهم من يرى تحقق النظام الاجتماعى الجديد بطريق الاختراعات الاجتماعية الجديدة، ومنهم من يرى أن العناصر الحيوية للنظام الجديد تتطور بصورة تدريجية داخل الحضارة الرأسمالية، ومنهم من يرى أن ذلك لا يتحقق إلا بالثورة العنيفة... الخ.

وهنا نتعجل فنقرر حقيقة ملموسة فى الكتاب: هى أن مؤلفه لا يهيم بقارئه فى متاهات الاستعراض للنظريات والأفكار شرقية كانت أو غربية، دون أن يربطه بمجتمعه العربى واشتراكيته العربية، بل هو يوفى هذا الاستعراض حقه، فيحلله ويفصله ويصوره، ثم يفئ بقارئه العربى إلى طريقه العربى، ليبين له أين يكون هذا الطريق الواضح المستقل المتميز بين الطرق المختلفة المتناثرة هنا وهناك.

وفى الفصل الأول أيضاً يتحدث المؤلف عن الاشتراكية الماركسية، والثورة الفرنسية وما فيها من لمحات اشتراكية، والاشتراكية فى القرن التاسع عشر، ويلاحظ الباحث أن هذه الاشتراكية تتميز عن اشتراكية القرن الثامن عشر بأنها تقوم على أساس الرغبة فى إيجاد التفاهم بين الطبقات، وكانت دعوة الاشتراكى البريطانى روبرت أوين تمثل هذا الاتجاه خير تمثيل، حيث قال: «إن جوهر الحكمة يكمن فى أن تتعاون الطبقات التى تتمتع بالامتيازات تعاوناً مخلصاً وودياً، مع أولئك الذين لا يرغبون

فى مساس ذرة واحدة من الامتيازات المفترضة التى يتمتعون بها حالياً » .

كما تتميز بأنها تمثل فكرة منعزلة متعددة المذاهب ، وتحبذ إقامة المستعمرات الاشتراكية ، وترتبط ارتباطاً وثيقاً بالقيم الدينية والأخلاقية .

وفى خلال حديث المؤلف أعطانا صوراً عن أفكار كثير من رجال الاشتراكية وباحثيها منذ أقدم العصور ، من أمثال أفلاطون ، وسان سيمون ، وفورييه ، وبرودون ، ولوى بلان ، وتشارلز هول ، ووليام تومبسون ، وروبرت أوين . . الخ .

وهنا ينبغى أن ننص على حسنة من حسنات هذا الكتاب القيم ، وهى التعريف السريع المركز بالأشخاص الذين يرد ذكرهم فى الكتاب ، والتعريف السريع المركز كذلك بالمراجع التى أشير إليها فى أثنائه ...

* * *

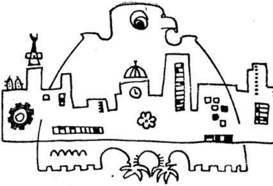
ومن المواضع التى تستحق الالتفات تعليل المؤلف لعدم انتصار الاشتراكية فى البيئة الأمريكية فهو يذكر أن الاشتراكية لم تحرز أى تقدم ملحوظ فى الولايات المتحدة الأمريكية لعدة عوامل ، أهمها الفرص المتاحة أمام كافة أفراد الشعب لصعود درجات السلم الاجتماعى حتى قمته ، وارتفاع مستويات المعيشة بشكل عام ، وخلو المجتمع الأمريكى من أدران الإقطاع الزراعى ، وعدم شعور طبقة العمال بمركب النقص الذى كان يشعر به أترابهم فى أوربا أمام استعلاء الطبقة البورجوازية وكبريائها ، وكذلك توافر مساحات كبيرة من الأرض لمن يرغب فى امتلاكها . فكل هذه الاعتبارات مجتمعة جعلت فكرة الصراع الطبقى لا تجد قبولا لدى الرأى العام هناك .

ومع هذا فقد تأثر المجتمع الأمريكى — إلى حد ما — بآراء فورييه ، وأوين ، وكانت وبرودون ؛ وتأسست بالفعل عدة مستعمرات اشتراكية مثالية ، وقامت أول حركة على نمط اشتراكى بين عامى ١٨٧٧ و ١٨٨٧ باسم « فرسان العمال » ، وكانت متأثرة إلى حد بعيد بحركة الميثاقيين فى انجلترا وشبيهة بها ، ولكن هذه الحركة سرعان ما انهارت ، وأصبح الاتحاد الأمريكى للعمال هو المحرك الأول لحركة نقابية عمالية على النسق التقليدى ومع ذلك فان السياسة المسالمة التى درج الاتحاد الأمريكى للعمال على اتباعها فى تحقيق مطالب الطبقة العاملة عن طريق المساومة وقبول أنصاف الحلول ، لاقت معارضة شديدة من جانب حركة النقابات الصناعية الجديدة التى تزعمها « دانييل دى ليون » .

وكان المؤلف موفقاً حين قال بعد أن أطال فى بسط الحديث عن الاشتراكية الماركسية وتأثراتها وتأثيراتها وتطويرها وتعديلها : « إن الاشتراكية الماركسية — مثلها فى ذلك مثل جميع النظريات الاشتراكية السابقة واللاحقة — لا يمكن أن تعتبر فى ذاتها نمطاً وأسلوباً مقدساً صالحاً للتطبيق فى جميع المجتمعات وتحت جميع الظروف ، وإن التطورات التاريخية والظروف الاجتماعية والاقتصادية والقومية ، وكذلك القيم الروحية الدينية التى يؤمن بها كل مجتمع فى مراحل التاريخ المختلفة هى التى تقرر أصلح النظم التى تضمن رفاهية المجتمع الذى يعيش فيها .

ومن هنا كانت اشتراكيتنا العربية سليمة المبنى لأنها لم تعمد إلى التقليد والاقتباس الأعمى ، بل إنها جاءت وليدة تطورات سياسية واجتماعية واقتصادية وقومية نابعة من ظروف العرب الخاصة ، وبيئتهم المتميزة عن غيرها من البيئات » .

* * *



وفى الفصل الثانى تحدث المؤلف عن « الفكرة الاشتراكية عند التطبيق ، والأحزاب الاشتراكية فى العالم » ، فرسم لنا صورة هذه الفكرة عن طريق الاستعراض للأحزاب الاشتراكية فى العالم ، فبين المؤلف وجوه الاتفاق والاختلاف بين هذه الأحزاب ، والظروف التى نشأ فيها كل حزب ، والعوامل التى كانت تحركه وتوجهه ، والصعوبات التى قابلته ، والمكاسب التى حققها

وأما الفصل الثالث فقد أدار المؤلف الحديث فيه عن « ماهية الاشتراكية الحديثة ومناهجها ونقدها » ، وهنا فرق بين الاشتراكية والشيوعية ، فالاشتراكية ترى أن السلع المنتجة على مدى واسع النطاق تكون ملك المجتمع ، وأما الشيوعية فانها تضيف إلى ذلك السلع الاستهلاكية ، إذ تجعلها ملك المجتمع أيضاً . وفى الاشتراكية يقرر الدخل الشخصى أوصاف السلع التى يستعملها الفرد ، وأما الشيوعية فتعتمد على الدوافع الاجتماعية لتحريك حوافز الإنتاج ، والاشتراكية شعارها هو : « كل يبذل جهده بحسب رغبته فى الحصول على مقابل له ، كما يحصل على سلع بقدر إنتاجه » . وأما الشيوعية فشعارها : « كل يبذل جهده بحسب قدرته ويحصل على سلع بقدر حاجته » . . . الخ .

وفى هذا الفصل ينوه المؤلف الباحث بعمق الصلة بين الاشتراكية والديمقراطية ، فيقول : « إن أول ما يقرره الاشتراكى فى ترتيب الأهمية فى النظام الاشتراكى هو عقيدته فى الديمقراطية ، فلا توجد لفظة محببة إليه أكثر من هذه اللفظة ، ومنذ عدة سنوات أعرب اشتراكى عن أهمية هذه الظاهرة بالعبارة الآتية : « يجب أن يكون الاشتراكى ديمقراطياً ، لأنه لا يمكن أن يجد أساساً آخر للدولة غير الاعتماد على المجتمع ، فلا يمكن أن يكل إلى الدكتاتورية ما لا تعتقد فيه ، لأن مجتمعه إنما يستمر عاملا ومتفاهماً تحت تأثير أوضاع عقلية ناشئة من تلقاء نفسها ، وخارجة عن سلطة القوانين وأوامر الرؤساء ، ولا يمكن أن يلجأ إلى هذه النداءات الموجهة إلى الشعب لجمهور مهمل ، أو يعيش بغير

تفكير ، بصورة سطحية من يوم إلى يوم » .

ولا ينسى المؤلف أن يورد الانتقادات التى وجهها أعداء الاشتراكية إليها ، ويفندها ويرد عليها ، ويبين أنها إما سطحية وإما خاطئة ، ثم يعقب على ذلك بذكر عيوب الرأسمالية ، ويجملها فيما يلى :

(أ) تميل إلى الحرب .
(ب) غير قادرة على حل مشكلة الفقر .
(ج) تؤدى إلى عدم الاستقرار الاجتماعى .
(د) تهمل المجهود الإنسانى وتضيعه .
(ه) تمنع تطور القوى الإنتاجية .
(و) تحمى الانحلال الخلقى فى العلاقات الإنسانية .

كما أن الدوافع التى تحرك الرأسمالية اقتصادياً تميل إلى خلق تنافس وصراع بين الإنسان والإنسان . ويؤدى هذا الصراع إلى خلق التطاحن بين الأفراد المختلفين داخل طبقات المجتمع الواحد ، مما يؤدى إلى تشجيع الطبقات العاملة على الاتحاد والوقوف فى وجه الاستغلال الرأسمالى دفاعاً عن النفس ، والرأسمالية تهيئ أسباب القتال والحرب بين الأمم ، ولذلك نجد الدول الرأسمالية تحاول السيطرة عن طريق القوة العسكرية ، وتحويل الموارد الاقتصادية إلى الأهداف الحربية .

* * *

وفى الفصل الرابع من كتاب الأستاذ حمدى حافظ يأتى الحديث عن « ماهية الاشتراكية العربية » ، حيث أبان كيف كانت انطلاقة الثالث والعشرين من يوليو سنة ١٩٥٢ بداية لترجمة كفاح الجماهير على مر العصور ، ولتحويل أهدافها فى الميادين السياسية والاقتصادية والاجتماعية إلى حقيقة واقعة ، وخاصة أنه كان من أبرز أهداف هذه الثورة « إقامة عدالة اجتماعية » بجوار القضاء على الاستعمار ، والاحتكار ، والاستغلال ، والإقطاع ، وسيطرة رأس المال .

وقد أحسن المؤلف حين ضمن كتابه فصلا عن الاشتراكية فى الإسلام ، حيث تبدت القيود التى وضعها الإسلام للملكية الفردية حتى تكون مصونة محترمة . وفى ختام هذا الفصل أورد المؤلف كثيراً من أقوال الرئيس جمال عبد الناصر فى إنسانية الاشتراكية العربية وفى الفروق الجوهرية بينها وبين الشيوعية ، وفى تلاقيها مع مبادئ الإسلام ، وفى أن سيدنا محمداً عليه الصلاة والسلام هو أول من أقام مجتمعاً اشتراكياً فاضلا فى العالم .

ثم ينتقل المؤلف إلى خامس الفصول من كتابه حيث يتحدث عن « التطبيق الاشتراكى » فيذكر مراحل هذا التطبيق ، من إلغاء المعاهدة المصرية الإنجليزية ، وتمصير الممتلكات الأجنبية ، وتقوية التعاون ، ثم الانتقال إلى التعاونية الاشتراكية ، ثم قرارات يوليو الاشتراكية ، حتى أصبحت الاشتراكية حقيقة واقعة ، وأصبح الشعب هو السيد ، وأعقب المؤلف ذلك بذكر الإصلاحات التى تمت فى عهد الثورة .

وفى الفصل السادس — وهو الفصل الأخير — وثق المؤلف الباحث ما جاء فى الكتاب بأقوال للسيد الرئيس عن الاشتراكية فى شتى نواحيها ، وبنصوص من الميثاق عن الاشتراكية العربية .

إن كتاب « الاشتراكية والتطبيق الاشتراكى فى الجمهورية العربية المتحدة » للأستاذ الكبير حمدى حافظ هو كما قلت فى صدر حديثى استجابة واعية ذكية لتوجيه القائد الرائد ، نحو تقديم دراسات موضوعية مفصلة عن الاشتراكية ، والكتاب جدير بالدرس والتأمل ، إذ فيه الفكرة والخطة والمنهج والوثائق ، وصاحبه جدير بالتحية من أجله ، والتهنئة بالمجهود الذى بذله فيه .

أحمد الشرباصى

الفن في ركب الاشتراكية

لا شك أن الفن يعكس روح العصر الذى أنتج فيه ، لأنه وليد الحياة وانعكاس لها ؛ كما أن الفنان من حيث هو كائن حى ، يعيش فى بيئة اجتماعية معينة ، من شأنها أن تؤثر فيه وتهذبه وتصقله وتطبعه بطابعها ، وتسبغ عليه مميزاتها وخصائصها . . .

والفنان أيضاً من حيث هو فنان يعتمد اعتماداً كبيراً على مجتمعه ، يستمد منه العون ، لأنه فى الواقع ليس فناناً لفرديته ، ولا لما يتأثر به مما حوله من الأحداث العامة والخاصة ، ولكنه فنان بما يمكن أن يعبر عنه من خصائص النظام الثقافى الذى يظله ، وتفاعل هذا النظام بغيره من النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية والخلقية ، تلك التى تشكل فى مجموعها مظاهر النشاط الاجتماعى المتعددة ، وإذا جرى على تلك المظاهر تغيير أو تبديل تبعاً لضرورة ملحة ، فان مثل هذا التغيير يجرى على الفن كذلك ، حتى أن الناقد الفرنسى « هيبولت تين » فى كتابه « فلسفة الفن » ج ٢ يجعل قيمة الفنان وقفاً على مدى قوة ارتباطه بالمجتمع واستمداده العون منه ، إذ يقول : « إن هذا العون يكون هائلا بقدر ما يكون الفنان معبراً عن روح عصره ، وبهذا القدر نفسه يتحدد حظه من العبقرية » .

وكان طبيعياً أن تشغل قضية الصلة بين الفن والحياة ، اهتمام النقاد والباحثين منذ القرن الخامس قبل الميلاد حتى الآن[1] ؛ فعلى الرغم من أن أفلاطون أقام الفن على دعائم ميتافيزيقية ، إلا أنه احتفظ

(١) للوقوف على تعدد الآراء فى النظر إلى صلة الفن بالحياة ، أنظر : « الأسس النفسية للابداع الفنى » . للدكتور مصطفى سويف – دار المعارف ط٢– ١٩٥٩ من ص ٣٨ إلى ص ٥٢ فقد ذكر أقوال كل من : أفلاطون – أرسطو – شوبنهور – لالو – ريبو – دى لاكروا – لالاند هربرت ريد – يونج ، وغيرهم .



بقلم وريشة حسن محمد حسن

بقيمته الاجتماعية ، وباسم هذه القيمة نفى من جمهوريته « هزيودس » و « هوميروس » ، ومن أجل هذه القيمة أيضاً صرح فى « القوانين » بأن الفن يساعد على تكوين المواطنين تكويناً صحيحاً ، وعلى تقوية ما بينهم من رباط يجمع بين الفرد فيهم والمجموع الذى ينتمى إليه . . .

ولئن كان النقاد المحدثون قد اختلفوا فى بعض الجزئيات المتعلقة بهذا الموضوع ، إلا أنهم جميعاً يكادون يجمعون على أن الفن وثيق الصلة بالحياة ، فهو ثمرة من ثمراتها ، « بل هو أحد حوافزها ، لأنه لا يحكيها ولا يمثلها فحسب ، ولكنه يحقق وجودها وينزع بها إلى التجدد المستمر »[1].

ولو أننا تأملنا ضروب النشاط الإنسانى : كاللعب ، والدين ، والرقص المقدس ، وغيرها من ألوان النشاط النغمى الحى ، لوجدنا أن الفن نابع منها مجتمعة ، على اعتبار أنه وسيلة لانفاق هذا النشاط ككل . . فلا يمكن لنا تجريد الفن من صفته الاجتماعية بأى حال من الأحوال ، ذلك أن الفنان إنسان يتأثر بالمجتمع ، ويؤثر فيه ؛ وحتى هؤلاء الذين يريدون التفوق فى أى مجال من المجالات ، لا مناص لهم من مراعاة ظروف لم يخلقوها ، والفنان من بينهم يعتبر من بعض الوجوه خلاصة الحيـــاة الخيالية والواقعية لعصره وأمته ، بل يمكن القول إن « ما يسمى مادته الخام — فكره وخياله وشعوره — يتعاون أفراد أمته معه فى عمله وتكوينه »[2] هذه الحقيقة يدركها الفنانون بمثل ما يفطن إلى أهميتها

(١) « الأسس الفنية للنقد الأدبى » — دكتور عبد الحميد يونس — دار المعرفة ط١ — ١٩٥٨ — ص ١٣٥ .

(٢) « على هامش الأدب والنقد » — الأستاذ على أدهم — دار الفكر العربى ص ١٣٣ — ١٣٤ .

وخطورتها السياسيون وقادة الحكم ، والمتذوقون للأعمال الفنية على اختلاف أجناسها . .

* * *

والكتاب الذى بين أيدينا يلتمس الطريق إلى تأكيد هذا الجانب ، وإن ضل السبيل إليه فى بعض الأحيان ، فهو يشهد بأن مؤلفه يسعى جاهداً لمسايرة التطور السياسى والاقتصادى والاجتماعى الذى يمر به مجتمعنا فى تحوله من مجتمع متخلف اقتصادياً ، إلى مجتمع اشتراكى يستهدف تحقيق العدالة الاجتماعية ، وتذويب الفوارق بين الطبقات ، والمساواة الكاملة فى الحقوق والواجبات .

والأستاذ حسن محمد حسن مؤلف هذا الكتاب من الفنانين الذين يحاولون الجمع بين الجانب الإبداعى فى مجالى الخلق والابتكار ، والجانب الموضوعى فى محيط الدراسة والبحث ، بالإضافة إلى تلك المهمة الأساسية التى كلف نفسه بها منذ فترة طويلة ، وهى التى تتمثل فى لقائه الدائم والمستمر بتلامذته من طلاب كلية الفنون التطبيقية .

ولقد سبق لسيادته أن قدم للمكتبة العربية فى هذا الميدان كتابين هما : « مذاهب الفن المعاصر » و « الأصول الجمالية للفن الحديث » ، ثم يأتى كتابه الجديد « الفن فى ركب الاشتراكية » موحياً للوهلة الأولى ، أن صاحبه إنما يعرج على الاشتراكية العربية ، متتبعاً خطواتها فى السياسة والفكر والتطبيق ، ثم انعكاس هذا كله على الفن بعامة ، والفنون التشكيلية بخاصة ، وإلى أى حد ساير الفن ركب الاشتراكية ، على أساس موضوعى علمى منهجى جاد ، وسليم .

لكن وقفة مستأنية عند رأس كل موضوع من موضوعات الكتاب ، تجعلنا نظن منذ البداية أن مؤلفه لم يقصد سوى إعطاء القارئ بعض اللمحات الذكية عن فنانين عالميين كانت فى حياتهم ، أو فى جزء يسير من أعمالهم ، زوايا اشتراكية مع شىء من التجاوز والتسهيل ، أو هكذا أراد لها المؤلف أن تكون اشتراكية على نحو دون غيره .

إلى جانب قليل من ذكريات المؤلف ، وانطباعاته الخاصة ، وتوجهاته ، وارشاداته التعليمية لكل فنان يبغى التعبير عن جوانب مجتمعنا الجديد ، وهو الشىء الذى حرص على توضيحه المؤلف فى كلمة التقديم (ص ١٠) .

ولما كانت مقدمة الكتاب بشكلها ومضمونها الحاليين ، لا تحدد للكتاب خطة ولا منهجاً ، بحيث تضبط مواضع الأقدام التى يمر بها المؤلف ، والفصول التى يتناول فيها جوانب الموضوع وجزئياته ، جانباً جانباً إلى أن ينتهى البحث فيكون القارئ قد استوعب فكرة المؤلف بمختلف تفاصيلها ومتباين الأمثلة والشواهد التى يجئ بهـا تدعيماً لفكرة ، أو تثبيتاً لرأى ، أو تأكيداً لاتجاه .

لذا يطالعنا الكتاب فى شكل مقالات متقطعة ، لكل مقال منها عنوان مستقل ؛ يطول بعضها فيصل إلى سبع عشرة صحيفة (وهو المقال الخاص بالمواهب الفنية وكيف نفيد منها فى حاضرنا الاشتراكى — ويبدأ من ص ٦٩ إلى ص ٨٦ . وأرى أن عنوان المقال لا يمت إلى المقال بأدنى صلة) . بينما ينكمش معظمها وينزوى فى صحيفتين اثنتين ، مما جعل موضوعات الكتاب تكثر فتبلغ ستة وثلاثين موضوعاً تستغرق كتاباً يقع فى مائة وثمانين صحيفة من القطع المتوسط . وهذه الموضوعات الغزيرة كانت تستلزم بطبيعة الحال تبويباً وتنسيقاً وتركيزاً يلم شتاتها ، ويجمع المتفرق منها ، ويشذب أطرافها ، ويهذب ما علق بها من تكرار وتذييل واستطراد . .

وإن مجرد إعادة النظر فى محتويات الكتاب ، تقتضى ضم المقالات الخمس الأولى من ص ٧ حتى ص ٢٣ وجعلها مقدمة موضوعية للكتاب ، وعمادنا



فى ذلك أننا نجد المؤلف تحت عنوان « المسائل التى يدور حولها البحث الفنى الاشتراكى » من ص ١٦ — ص ١٩ يضع يده على بعض المشكلات التى تشغل أذهان الباحثين ، ويحصرها فى عشر مشكلات ، صاغها على شكل أسئلة ، وأكد أن مهمته فى هذا الكتاب هى الإجابة عن تلك الأسئلة ، ونراه يختتم هذا الجزء بقوله :

« وسنحاول الآن إعطاء بعض الصور عن التجارب التى مرت بها مختلف شعوب العالم عن الفن الاشتراكى من الوجهة التاريخية . . وما إذا كان هنالك مذهب فنى وصل إليه الباحثون يمكن أن يستند إليه العمل الفنى الاشتراكى فيما قد يساعدنا على تقصى الجوانب المختلفة لهذا الفن ، وفيما إذا كانت اشتراكية الفن ليست مقصورة على اتجاه فنى معين ومحدود ، أم أنها تتخذ صوراً مختلفة ذات أشكال متباينة خلال العصور التاريخية إلى عصرنا الحاضر » . (ص ٢٣) .

معنى هذا أن المؤلف نفسه بعيد هذه الفقرة أخذ يستعد ويتأهب لخوض الموضوع الرئيسى الذى اختار له عنوان الكتاب المسبق .

* * *

ونستطيع بعد تحديد معالم مقدمة الكتاب من متناثر المقالات فيه ، أن نتبين بوضوح أربعة مسائل بارزة تهيمن عليه .

الأولى — دراسة للمذهب الرومانسى الفرنسى (ص ٢٤ — ص ٤٢) : كيف قام ؟ وما المبادئ التى قامت عليها الحركة الرومانسية ؟ ثم وسيلة الانتقال من فن القرن الثامن عشر إلى ظهور الرومانسية ، والآراء الجمالية التى دارت حول هذا الفن إثر ظهور الحركة الفرنسية ، وفى أعقابها !

الثانية — الفن الشعبى (ص ٤٧ — ص ٦٤) : اشتراكيته ، أصالته ، صوره وأنماطه الاشتراكية .

الثالثة — الفن الهادف فى سبيل الحياة (ص ١٠٩ — ص ١٢٢) : مفهوم الفن الهادف ، مدى ارتباط الفنون المعاصرة كالتكعيبية ، والتجريدية ، والتعبيرية ، والسريالية ، بالحياة .

الرابعة — صور تاريخية من الفن الاشتراكى (ص ١٣٤ — ص ١٨١ (: يتحدث المؤلف فى هذا الجزء من الكتاب عن الفن فى الاشتراكية البدائية ، وفى عهود الحضارات الأولى ، ثم فى العصور الوسطى ، والعهود الإغريقية والرومانية . وبعد

هذا يتتبع أعمال بعض الفنانين المصورين الذين تعرضوا بالنقد لحياة العصر الذى عاشوا فيه ، أمثال (هوجرت ، جويا ، ڤان چوخ ، جوجان) وغيرهم من الأعلام المبرزين فى المحيط الفنى .

* * *

هذه هى الجوانب المترابطة نسبياً بين دفتى الكتاب ، والتى يمكن للقارئ إدراك ما تهدف إليه ، فى حين أن بالكتاب مقالات يشعر القارئ لها أنها مقحمة إقحاماً ، وأخرى كانت تستلزم مزيداً من التدعيم ، واستمراراً فى البحث ، لأنها فى حد ذاتها تعتبر أهم ما فى الموضوع من أساسه .

فمثلا نلاحظ أن المقال الخاص بالمواهب الفنية فى بلادنا (ص ٦٩ — ص ٨٦) كان من الممكن أن يفيد منه القارئ أيما فائدة لو أنه فعلا تعمق دراسة المواهب الفنية فى البيئة العربية ، وصنف هـذه المواهب ، وتناول آثارها الفنية بالتحليل والنقد والشرح والتفسير ، لكن ما حدث يختلف كل الاختلاف حتى عن عنوان المقال ، إذ يستغرق المؤلف فى الحديث عن عصر النهضة الإيطالية ، وفنانى هذا العصر ، ثم نجده يستدرك فيرى أن ذكر الأمثلة من إيطاليا فى مجال الكلام عن المواهب العربية ليس بجائز أبداً ، ونظن بعد هذا أنه سوف يسلك الطريق القويم ، غير أننا نفاجأ به يعرج على هولندا، وبلجيكا ، وفرنسا ، ويستمر فى الإفاضة عن « رمبراند ، هالس » الهولنديين ، و « روبنس ، فان ديك » البلجيكيين ، و « لويس دافيد — جرو — آنجر » الفرنسيين ؛ ظناً منه أن الكلام عن إيطاليا لا يكفى من جانب الإحاطة الموضوعية (ما لم نضمن بحثنا شيئاً من التفصيل عن كثير من البواعث التى قامت عليها النهضات العالمية الفنية فى البلاد التى سبق ذكرها) ص ٧٢ . ولا نظفر بعدئذ بالمواهب الفنية العربية من قريب أو من بعيد . وكذلك الحال بالنسبة لمقاله الخاص بالميثاق والمبادئ الفنية ومجالات تطبيقها .

* * *

وتغلب على الكتاب فكرة واحدة ، يلاحظها الدارس تقوى حيناً ، وتضعف حيناً ، وتختفى لوجود ما يناقضها من كلام المؤلف نفسه حيناً آخر . . ! ومع هذا فانا نراه يلح دائماً بين ثنايا الكتاب على اعتبار « المذهب الرومانسى الفرنسى » فناً اشتراكياً ، وأن الروح الاشتراكية بتعاليمها ومبادئها وأهدافها لا تكمن فى اتجاه فنى بقدرما تكمن فى الفن الرومانسى : « أرى أن المذهب الفنى التاريخى الذى يمكن لنا أن نصفه بحق بأنه يمثل الفن الاشتراكى ، إنما هو المذهب الفنى الرومانسى » ص ٢٥ . و « الطراز الفنى الذى تتركز فيه المعانى الاشتراكية بطابعها الثورى والانفعالى إنما يتمثل فى الفن الرومانسى الذى قد يتوافق من جوانبـه الدمقراطية والقومية مع أهدافنا واتجاهاتنا الثورية » ص ٢٦ . ثم يتطرف المؤلف بحماس الفنان وكبريائه ، فيربط بين اشتراكيتنا العربية ، والرومانسية الفرنسية ففى نظره أن الرومانسية اتجاه ثورى ، دمقراطى ، تستلهم الخيال والتصور ، وتعود بالفن إلى الطبيعة والبيئة الفطرية ، وهذه كلها « مزيج من مبادئ اشتراكيتنا الدمقراطية العربية والمبادئ الدمقراطية التى قامت عليها الدوافع الإنسانية فى الاتجـاه الرومانسى » ص ١٢٤ .

وليت الأمر وقف عند هذا الحد ، لكنه يذهب إلى أن آدابنا وفنوننا التى أعقبت ثورة ١٩٥٢ « لتعتبر من حيث رومانسيتها أعمق من تلك الرومانسية الفرنسية » ص ٢٦ .

وغنى عن البيـان أن أبرز ملامح المذهب الرومانسى فى الأدب والفن ، اعتداد بالعاطفة والخيال ، وانقضاض على أوضاع المجتمع ، ونزوع إلى الخوارق والأعاجيب ، واتجاه إلى عبادة الطبيعة ،

وجنوح إلى حياة الفطرة هرباً من وطأة الحياة المادية ، كما أن هذا المذهب – أولا وقبل كل شيء – كان نتيجة للتقدم الثقافى الأوربى بعيد عصر النهضة – وتبلوره مع تفاعلات النظم الأخرى : سياسية واقتصادية ودينية وأخلاقية واجتماعية ، مما أدى إلى الشعور القوى بالفردية ؛ ومن ثم كان الاتجاه الرومانسى ، الذى ساد إيطاليا وفرنسا وانجلترا ، ثورة على حياة القوالب الآلية ، وتحطيماً للقيود والحدود ، وخشية من ضياع الشخصية ، لذا أصبح أول مدعم للفردية فى حرية وانطلاق .

ومما هو جدير بالذكر أن الرومانسيين طالما تواصوا باعتزال الناس فيما سموه « برجهم العاجى » لأن القطيعة المعنوية تفصل دائماً بين الدهماء وكل نفس سامية ، وقد سمت نفوسهم بكل ما حملت من رسالة الفن والأدب ، وهم لا يتحدثون عن أنفسهم كذلك بوصفهم من الناس ، بل بوصفهم فوق الناس ؛ والناس بطبيعتهم أعداء للعبقرى الشاذ الذى يشق عليهم فهمه . وقد ورد فى تقرير الدكتور « نوار » فى مسرحية « فنى "Vigny" المساة "Stello" :

« . . . يقوم وحده وبحرية بتأدية رسالته متبعاً أحوال ذاته متجرداً من أثر التواردات حتى الجميلة منها ، لأن العزلة هى مصدر الالهامات . . إن للشعراء والفنانين وحدهم دون كل الناس السعادة تمنحها إياهم قدرتهم على تحقيق رسالتهم فى عزلة »(١).

ونعتقد أن فناً تلك ملامحه وسماته ، وأن فنانين هذه خصائصهم وميولهم ورغباتهم ، يبتعد بكثير عما يمكن أن يسمى فناً اشتراكياً ما دام يعبد الفردية ويقدسها ، ويرتبط بالخيال والوهم ، ويتحلل من الواقع ، وينظر إلى الحياة والمجتمع نظرة تشاؤمية حزينة ، وأحياناً نظرة ازدراء واحتقار واستعلاء . .

ونظن أن المؤلف يوافقنا على هذا ، فهو الذى يقول فى موضع آخر : « إن فى الفن الاشتراكى تنمحى معالم الصورة الفردية ، حيث لا يكون هنالك مجال إلا للصور الجماعية الممثلة لحياة الشعب .. والشعب فحسب .) ص ١٥

ويؤكد ذلك من بعض الوجوه أن المؤلف أشاد بأصالة الفن الشعبى ، لا لشيء إلا لأنه ينزع بحكم طبيعته إلى « الجماعية » التى تهم حياة المجتمع دون الفردية ، حيث يتجاوب إنتاج الفنانين الشعبيين « مع طبيعة هذه الملايين من الناس ، نظراً لأن هؤلاء الفنانين إنما يعبرون فى مختلف صور أعمالهم الفنية ، عما تحس به هذه الطبقة » ص ٤٧ :

والمقصود بالطبقة هنا جماعة الفلاحين والعمال الذين يتذوقون الفن الشعبى ، والممثلون لمجموعه فى نفس الوقت ، والتى تتجه إليها القوانين الاشتراكية بصفة أصلية وضرورية .

ولنا الحق بعد هذا أن نتساءل : إلى أى حد يمكن أن يحكم المؤلف على : « بين القصرين » – « السكرية » – « قصر الشوق » – « اللص والكلاب» – « السمان والخريف » – « بيت سيء السمعة » من أعمال أديبنا الروائى نجيب محفوظ ؛ وكذلك « الناس اللى فوق » – « الناس اللى تحت » – « عيلة الدوغرى» من مسرحيات الأستاذ نعمان عاشور ؛ ثم «السبنسة» و « المحروسة » – « كفر البطيخ » – « كوبرى الناموس » لسعد الدين وهبه ؛ و « اللحظة الحرجة » – « ملك القطن » – « الفرافير » للدكتور يوسف إدريس ، وغير ذلك من الأعمال الأدبية التى صدرت بعد ثورة ١٩٥٢ ، بأنها أعمق فى روما رومانسيتها من الرومانسية الفرنسية ؟ ! . .

فأى هذه الأعمال مثلا يدعو إلى الفطرة ؟ أو

(١) أنظر فى ذلك : A. de Vigny ; La Bouteille à la Mer, v. 20–21
– مبادىء علم الجمال – الاستطيقا – تأليف : شارل لالو – ترجمة مصطفى ماهر ط ١٩٥٨ ص ١٢٤
– المدخل إلى النقد الأدبى الحديث – دكتور محمد غنيمى هلال . ط ١ ١٩٥٨ مطبعة الرسالة ص ٣١٣ .

لا يهدف إلى الهدوء والسكينة ؟ وأنها يستلهم التصور والخيال وينفصل عن الواقع وقضايا الناس فى المجتمع ؟ وأنها يتغيا الفردية المطلقة التى تتمتع بحرية لامحدودة ، ويستهدف تحطيم القيم والأوضاع والمثل القائمة والموجودة فى المجتمع ؟ ! !

* * *

وللمؤلف أحكام عامة يطلقها باسراف ، على الرغم من أن كل حكم منها يحتاج إلى دراسات ودراسات . من ذلك مثلا أنه يعد أفلاطون « تبعاً للنظم والمبادئ التى وضعها فى جمهوريته المثالية ، من أوائل الاشتراكيين فى التاريخ القديم » ص ١٥٦

وأن الناظر إلى جمهورية أفلاطون سيجد أنه يحرم أرباب الحرف وأبناء الطبقة العاملة من الحقوق السياسية ، ويقصر الحكم على الفلاسفة ، ويقسم الناس فى جمهوريته إلى طبقات تبعاً لمعادنهم وطبائعهم ، ولا يحفل بالكادحين فى الأرض من زراع وصناع وتجار ، ويرى أنهم يعيشون حياة « ليست جديرة باسم الحياة الفاضلة ، وإنما هى أقرب ما يكون أو هى بالفعل ، حياة الخنازير »(١).

ويقضى أفلاطون على الزواج والملكية ولا يوجد للأسرة أى كيان ، لأنها كلها مصدر اختلاف المنافع ؛ إلى جانب أنه لا يعترف بالتطور والتغير والتطور ، وإنما المجتمع الثابت ، المتحجر ، الطبقى هو الأمثل عنده . وبطبيعة الحال ، تختلف هذه النظرة الأفلاطونية مع دعوة المؤلف وفهمه للاشتراكية اختلافاً كبيراً . .

* * *

وتغلب على المؤلف فى كثير من المواضع ،

---

(١) « أفلاطون » – دكتور عبد الرحمن بدوى – ط ٢ ديسمبر ١٩٤٢ – ص ١٢١٩ ، ٢٢٠ ؛ « المذاهب الاقتصادية الكبرى » جورج سول – ترجمة الدكتور راشد البراوى – ١٩٥٣ ص ٢٠ .

طبيعته كمعلم وأستاذ للفن ، فنراه يجهد نفسه برصد القواعد والأصول ، وتحديد المجالات ، وتخصيص الموضوعات ، التى يلزم الفنانين فى شتى مجالات تخصصهم باتباعها(١) ؛ وكأنى به يريد أن يفرض على الفن مساراً محدداً لا يتجاوزه ولا يخرج عليه . بيد أن طبيعة الفن أنه لا ينمو ويترقى ويتطور إلا فى جو ملؤه الحرية ، دون أن يتحدد مسراه فى قنوات تفرض عليه لتحقق بعض الغايات السياسية أو الأخلاقية أو الدينية . وليس لنا أن نحدد للفنان موضوعه الذى يعالجه ، فلندعه يختار ما يساير طبيعة نفسه ، ومدى استجابته ، وقوة تعبيره ؛ وليس من شأننا أن ندفع بالعناصر الفنية كلها إلى ساحة واحدة ، ما دامت تهدف فى النهاية إلى خير الإنسانية وعونها على كفاح الحياة ، واحتمال ما فيها من أثقال . . ويشهد الواقع بأنه « ليس أضعف ولا أدعى إلى السخرية من ذلك الفن الموجه L'art dirigé الذى يخضع لقاعدة لا يستمدها من صميم وجوده »(٢).

* * *

وكان الأجدر بأستاذ للفن يدرس ظاهرة فنية كهذه فى إطار بيئتنا العربية ، أو المفروض أنها كذلك ؛ أن يأتى لنا بنماذج من آثار وأعمال الفنانين العرب ، حتى يقف القارئ العربى على الجوانب التى يظهر فيها تأثير الاشتراكية والديمقراطية والقيم الأخلاقية الجديدة فى الفن من ناحية ، وإلى أى حد تغير اتجاه الفن ومجراه عما كان عليه قبل التحول

---

(١) أنظر صفحات ١٠و ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٣٠ ، ٨٤ . وفى ص ١١٦ يقول إنه لابد من اتخاذ مذهب الفن فى سبيل الحياة دعامة لنا ، ويتطلب أن يكون الفن موجهاً نحو الغايات السامية ، والأخلاقية والنفعية . . .

(٢) « مشكلة الفن » الدكتور زكريا ابراهيم – مكتبة مصر – ص ٢٤٦ ؛ « الأدب الهادف » للأديب الكبير محمود تيمور – ط ١ نوفمبر ١٩٥٩ ص ٥٧ و ٥٨ » .

الاجتماعى من ناحية أخرى . وكم كنا نتمنى أن تقع أعيننا على اسم فنان عربى واحد ، ولو فى هامش الكتاب ، لكنا لا نعثر على شيء من هذا ، وكأن مصر قد خلت من « محمود مختار – أول مصرى طرق معارض الفن فى باريس عام ١٩١٢ – محمد حسن – راغب عياد – محمد ناجى – أحمد صبرى – محمود سعيد – يوسف كامل – سعيد حامد الصدر – محمود حسنى – سيف وأدهم وانلى – عبد القادر رزق – جمال السجينى – الحسين فوزى – صلاح طاهر . . . الخ » وهم دون شك أسهموا فى الميدان الفنى بشكل أو بآخر . . وحينما أشار المؤلف فى صحيفة رقم (٩٨) إلى مساهمة الفن فى معركة بور سعيد ، اكتفى بقوله إن المعركة أثرت فى قلم الأديب وريشة المصور وأزميل النحات هكذا من غير استناد إلى شواهد ونماذج وأمثلة ، وهى متعددة فى هذه الحالة بالذات ؛ فلأول مرة يقام مهرجان للفنون فى حى شعبى يضم معرضاً للصور والتماثيل والرسوم الكاريكاتورية ، ويشترك فيه أكثر من مائة فنان وفنانة ، وقد نظمه الأستاذ « كمال الملاخ » وافتتح فى ٤ ديسمبر ١٩٥٦ . وثمة معرض آخر « معرض الكفاح الشعبى » الذى أقيم فى محطة « بور سعيد » ونظمته جمعية خريجى كلية الفنون الجميلة ، وكذلك المعرض الذى أقامته « دار المساء » فى حديقة مسرح الأزبكية . وإن دل هذا النشاط على شيء فانما يدل على اشتراك الفنانين وإسهامهم الإيجابى فى تلك المعركة ، مما كان يغنى المؤلف عن البحث فى الحروب النابوليونية ومحاولة الاتيان بالنماذج من تصوير الفنانين لها .

وليته ضمن كتابه مجموعة من لوحات الفنانين العرب الذين تفاعلوا مع الأحداث ، بدلا من أن يشغل نفسه بنفسه ، فيورد كل لوحات الكتاب من ابتداعه ليس غير ، ولو أن عنوان الكتاب « أنا فى ركب الاشتراكية » أو « أنا والفن فى ركب الاشتراكية » لهان الأمر ، بل أن عنوان الكتاب عام وشامل مما يتيح الفرصة للدارس كى يأتى بأعمال غيره فى النحت ، والتصوير ، والزخرفة ، والعمارة ، وغيرها من الفنون التشكيلية والتطبيقية ، يدعم بها رأيه ، ويعطى للقارئ فسحة ينطلق فيها بعض الشيء بعيداً عن أسر أفكاره ولوحاته .

* * *

ويشعر قارئ هذا الكتاب أن المؤلف متحمس فى الدفاع عن رأيه ، يظهر ذلك فى اختياره للألفاظ الخطابية الرنانة ذات الدلالات الانفعالية مثل « الشعار الضخم – الظاهرة الجبارة – القوة الهائلة – الرصيد العظيم – الطاقات المختزنة – المد الثورى البناء – الاندفاعات المثيرة – الحماس المنقطع النظير » . وربما يكون هذا « الحماس المنقطع النظير » هو الذى ورط الكاتب فى فهمه للمأساة ، وظنه أنها « المآسى التى تعرض لها الفلاحون من جانب الإقطاع » . ص ١١٧ ونسى أنها لون أدبى ، وفن من فنونه ، له



أصوله ، وموضوعاته ، وخصائصه التي تبعده بكثير جداً عن معنى اللفظ الظاهر[1] .

* * *

وبعد ؛ فان الكتاب يثير إلى جانب ما ذكرنا كثيراً من القضايا ، ويفتح موضوعات تستحق جدلا ونقاشاً ، ويكفى مؤلفه فخراً أن ثمة جدل وحوار سوف يدور ويدور ، وأنه استطاع أن يقدم للدارسين والنقاد فى كل صفحة ، بل فى ثنايا سطور الصفحة الواحدة ، ما يشغلهم ويدفعهم إلى التدارس والبحث يوماً بعد يوم .

والحق أن ما كتبه المؤلف فيما يتعلق بالفن الشعبي ، وبتطور الفنون منذ العصور القديمة حتى بدأ الفن ينزع إلى الأوضاع الديمقراطية ، يدل دلالة واضحة على أستاذية للفن وتاريخه ، وثقافة واطلاع غزيرين ليفيد الناس منها إن فى كتابات قادمة للمؤلف أو فى آثاره الفنية ، فان ارتباط الناس بتجاريب الفنان كما يجسمها فنه ، أجل وأعظم ، لأن طابع الإنسانية فيه خط مشترك بين الفنان والمتذوق يجعلهما يمتزجان . . .

سيد حامد النساج

---

(١) أشير هنا إلى بعض الكتب والمراجع التي تعرضت للمأساة بشكل مباشر :

(أ) «المأساة اليونانية» — د. محمد صقر خفاجه، عبدالمعطى شعراوى — مكتبة الانجلو ١٩٦٠ ص٩ — ٣٢ ، ص ٢٣ — ٧٢

(ب) «دراسات فى المسرحية اليونانية» — د. محمد صقر خفاجه مكتبة الانجلو ص ١٣ — ٢٧

(جـ) «قواعد النقد الأدبي» — لاسل آبر كرومبى — ترجمة دكتور محمد عوض محمد ١٩٥٤ — ص١٠١ — ١١٩

(د) «المدخل إلى النقد الأدبي الحديث» — د. محمد غنيمى هلال — ط ١ ١٩٥٨ مطبعة الرسالة الفصل الثانى الخاص بالمأساة من ص ٥٠ — ٦٩ .

الناشر : دار المعارف

١٨١ صفحة ـ الثمن ٤٥ قرشا

مع الشعراء المعاصرين فى مصر

تأليف : عبد الحى دياب

الناشر : الدار القومية — مذاهب وشخصيات — ١٣٥ ص ١٧ × ٢٤ سم

ث ١٨ قرشاً

دراسة تحليلية لأربعة من الشعراء المعاصرين فى مصر ، هم صالح الشرنوبى وهاشم الرفاعى وأحمد محرم وعلى الجارم مع الإتيان بنماذج عديدة توضح منهج الشاعر ووجهة نظر الناقد إزاء هذا المنهج .

●

ما هى الوجودية

ترجمة : عبد المنعم الحفنى

الناشر : مكتبة راديو — ٥٠ ص ١٧ × ٢٠ سم

ث ١٠ قروش

ندوة عقدت بالنادى المعاصر فى باريس ، ضمت طائفة من الفلاسفة الوجوديين والمهتمين بالفلسفة الوجودية والدارسين لها ، من بينهن نقولا بردياثيف وجابريل مارسيل . ترجم النص الأستاذ عبد المنعم الحفنى وقدم له بمقدمة تاريخية فى الفلسفة الوجودية وتعريفها .

●

هيغل والهيغلية

تاليف : رينيه سيرو

ترجمة : نهاد رضا

الناشر : دار الأنوار — بيروت

١٥٥ ص ١٧ × ٢٤ سم

ث ٤٠٠ ق . ل

دراسة فى الفلسفة الهيجلية ، قدم لها المؤلف بنبذة تاريخية عن الفلسفات السابقة لها ، وحلل الفلسفة الهيجلية ، وما جرى من انقسام الهيجلية وخاصة بالنسبة للجانب الدينى والسياسى ، ثم تطور الهيجلية بعد هيجل .

ثوّار

نظم طائفة من شعراء الاسكندرية

• • •

١ إن القول بتحرر الشعر القومى العربى فى مصر ، من الخطابية التى كانت شائعة فى العقود الثلاثة الأولى من هذا القرن ، فيه صدق إلى حد كبير . . .

وهو قول نحمد ، من أجله ، جهد الذين سعوا فى جعله حقيقة واقعة ، وإن كنا لا نستطيع أن نسرف فى لوم شعراء هذه الفترة ، على اتجاههم هذا ، ذلك لأن المرحلة الكفاحية التى عايشوها ، كانت تتطلب إثارة الجماهير ، وحصر مشاعرهم فى نطاق معين ، بحيث يمكن لها أن تساير التيار التحررى الذى كان يستهدفه الوطن العربى ، ومن هنا كانت الضرورة ، التى دفعت بالشعراء السابقين إلى مس الأوتار القريبة من قلوب الناس مساً مباشراً ، وحدت بأغلبهم إلى مخاطبة الجماهير بكلمات تمتاز برنينها القوى ، وبما تحمله من شحنات ثورية ، تعتمد فى الغالب على الأسماء الملهمة ، والشعارات الكفاحية ، والأصداء الدينية ، والتعابير الموروثة أو التى أوحت بها انفعالات جماهيرية طارئة .

لقد كان المد الثورى من جهة ، وسهولة انقياد الشعور الجماعى للصوت الأعلى من جهة أخرى ، وألفة الأسماع المصرية لأمثال هذه الأساليب من جهة ثالثة ، كل ذلك كان كفيلا بتبديد الاشعاعات النقدية التى كانت تنبعث فى بعض الأحيان من ذوى الذوق الأدبى المرهف أو من المتأثرين بمدارس النقد الأوربية . بحيث لم تترك توجيهاتهم أثراً يمكن أن ينال من هذا التيار النظمى الجارف — كما لم تجد النماذج الشعرية الخالصة التى قام بها شعراء وهبوا طاقاتهم كلها للفن ، من النجاح الجماهيرى ما يجعلها تقف شامخة ، بل انزوت فى صوامعها ، تتململ أمام هذه المواكب ذات الأجراس النحاسية .

الأمر الذى حدا بعبد الرحمن شكرى أن يقرر فى مرارة (أن ذوق المتأخرين قد فسد فى الحكم على الشعر ، بل أن الشعر كله ، قد صار عبثاً لا طائل تحته)(١) .

---

(١) مقدمة الجزء الخامس من ديوان عبد الرحمن شكرى .

الناشر : الهيئة المحلية لرعاية الفنون والآداب بالإسكندرية - ٢٥٦ صفحة ١٤ × ٢٠ سم

٢ وبانتكاس الثورة المصرية ، بعد تناحر زعمائها على القيادة ، وبغرق الجماهير فى موجة من اللامبالاة ، وانفراد طائفة من تجار السياسة بشئون الحكم وبوفاة الصفوة من قادة هذا الاتجاه الشعرى ، وقصور تلاميذهم عن إدراك شأوهم فى فخامة التركيب وجهارة اللفظ وحلاوة الجرس .

بتأثير من هذا كله وبالإضافة إلى عوامل أخرى فى حاجة إلى من يفصلها ، راح التيار الرومانسى يبسط ظله على شعراء الشباب .

ولكن همساتهم الرقيقة الحزينة والحالمة لم تجد طريقها إلى أسماع الشعب فى مجالاته العامة ، تلك التى اعتادت أن تستمع إلى هتاف السابقين من فرسان المنابر ، كما لم تجد صورهم الشعرية الغريبة سبيلا إلى أذهان الجماهير ، تلك التى اعتادت أن تتلقى المعانى المشرقة بغير استئذان .

• • •

٣ واشتعلت الحرب العالمية الثانية وعاش الشعب أثناءها مشدود الأعصاب بأحداثها حتى إذا توقفت رحاها ، وعاد إلى العالم سلام نسبى ، انفرج الستار عن جماعة من الشعراء الذين انبثقت شاعريتهم من القلق النفسى ، والإحساس بالضياع ، والذى قد يكون مصدره - بالنسبة لأغلبيتهم - فقدان الثقة بالعزاء الروحى ، هذا بالإضافة إلى التأثر الواضح ببعض الشعراء الغربيين ، من الذين انهارت قيمهم الموروثة أمام حربين ضاريتين .

وقد بدت أكثر هذه الأشعار متناثرة فى دفقات تائهة تسبح فى عالم غير محدد المعالم ، وإن تميزت هذه الدفقات بدفء الكلمة ، وبالشوق الملح إلى المعرفة ، وبمحاولة استكشاف المجهول .

وعلى الرغم من أن هؤلاء الشعراء قد مشوا بالشعر خطوة إلى الأمام ، إلا أن المطاف انتهى بهم ، إلى الانفصال عن الجماهير ، انفصالا يوشك أن يكون تاماً ، ذلك لأن الجماهير فى مواكبها العامة ، ما زالت فى حاجة إلى من يقرع أسماعها ، لا إلى من يهمس فى وجدانها بكلمات لا تكاد تبين .

• • •

٤ ولقد عاشت الإسكندرية طوال هذه الدورات الثلاث ، بعيدة إلى حد ما عن مسايرة هذه الحركة ، بل وتختلف معها فى مواقيتها ، ففى الوقت الذى كان الشعر السياسى يحتل مكانته فى القاهرة[١] كان شعراء الإسكندرية يتنقلون فى أجواء من الغنائية يعبرون بها عن انفعالاتهم الذاتية الصرفة فى مجالات برز فيها طائفة من المبدعين ، نذكر منهم خليل شيبوب وعبد الرحمن شكرى وعبد اللطيف النشار وعثمان حلمى وعبد الحميد السنوسى ومفيد الشوباشى وحسن فهمى وغيرهم ممن لا تحضرنى أسماؤهم الآن[٢] لا يكاد يشذ عنهم بالسير فيما يشبه الاتجاه القاهرى إلا القليل من أمثال محمد فضل إسماعيل[٣] .

---

(١) أعنى به العقود الثلاثة الأولى من هذا القرن .

(٢) فى ديوان الاسكندرية الذى نشره على البحراوى لسنة ١٩٣٤ نماذج عديدة لهذه الأشعار .

(٣) هناك طائفة أخرى من شعراء مظاهرات ١٩١٩ وما بعدها وليس لشعرهم قيمة كبيرة من الناحية الفنية .

ويرجع هذا إلى مجموعة من العوامل منها طبيعة المدينة التجارية والصناعية وروحها العملية فى التعبير عن الرضى والغضب وإلى تغلغل النفوذ الأجنبى فيها وبالتالى إلى شيوع الثقافة الأجنبية التى لم تكن تتأثر بالتيـــار الوطنى إلا فى أضيق الحدود . يضاف إلى هذا بعد الإسكندرية النسبى عن مركز الثقل الاجتماعى والأدبى والسياسى بالقاهرة ، مما ساعد بدوره على انعزال الشعراء السكندريين فى هذه الفترة ، وعدم متابعتهم للتيار العام متابعة فعالة ويمكننا أن نقول إنهم كانوا يتأثرون بالأحداث ولا يؤثرون فيها ، ولقد ساعدتهم هذه العزلة على إجادة كثير من ألوان الشعر الأخرى التى لا تتصل بعامة الجماهير .

• • •

٥

وأشرقت شمس ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وزحفت الثورة ، وكانت الإسكندرية من أكثر البلاد تأثراً بها ، بدأت حكومة الثورة ، برفع النير الأجنبى عن عاتق الشعب ، وكان شعور السكندريين بالتخلص من هذا النير ، أكثر عمقاً من غيرهم ، إذ كانوا هم الذين تحملوا أكثر مساوئه ، وكان طرد الملك من الإسكندرية حادثاً ترك أثره بلا شك فى نفوس أهلها ، كذلك كانت هذه المدينة ميداناً جرت فيه أغلب فتوحات الثورة السياسية والاجتماعية .

وكان أن اتجهت أجهزة الأعلام المختلفة إلى ترعية المدينة وتعويضها أدبياً وسياسياً عما فقدته طيلة هذه المدة التى استغرقت قرناً ونصف قرن من الزمان ، وكان أن شاركت مراكز الثقافة الشعبية بجهودها إلى جانب المراكز الرسمية فى هذا المجال ، ولكن الرغبة فى تنسيق الجهود الشعبية والرسمية معاً ، دعت إلى تأليف الهيئة المحلية لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية التى انضم إليها صفوة المثقفين بالإسكندرية ومن بينهم شعراء المدينـــــة .

• • •

٦

ولجأ الشعراء فى أداء رسالتهم الوطنية إلى سلاحهم العتيد ، إلى الشعر الجماهيرى ، أى الشعر الذى يصل إلى قلوب المجاميع من أقرب طريق ، شعر كهذا الذى كان شائعاً فى القاهرة منذ ثلث قرن .

شعر يلقى فى المجتمعات العامة فيؤثر فيها بألفاظه الرنانة ، وبحسن استغلال ناظميه للأسماء الملهمة والشعارات الموحية والأصداء الدينية والصور المنتزعة من محصول الثقافة الشعبية التى لا تعقيد فيها .

شعر : القافية فيه قيد لازم لربط المستمع بالمنشد ، والمعنى فيه مرتبط بالبيت الواحد ، لا يتجاوزه إلا بقدر ، ويحذر أيضاً ، حتى لا يحس المستمع بنقص أو بفجوة بين المعانى إذا سرح ذهنه — لسبب ما — عن متابعة الشاعر وهو يقوم بالقاء قصيدته على جماهير المستمعين إليه .

وبعبارة موجزة ، شعر يصل إلى القلب بقوة الموسيقى وإلى الذهن بغير استئذان :

٧ وكان أن اجتمع لدى هؤلاء الشعراء طائفة من القصائد القومية التى ألقيت فى الحفلات الشعبية فى المناسبات المختلفة وعندما استقر رأى الهيئة على طبع مجموعة من هذا الشعر مشاركة منها فى الإشادة بأعمال الثورة ، أرسل شعراؤها ما اختاروه لأنفسهم من شعر ، واختارت الهيئة خمسة من شعرائها وعهدت إليهم باخراج هذا الديوان على الوضع الذى يرونه جديراً بهذه المهمة أن تكون(١).

وخرج الديوان فى ٢٥٦ صفحة تحتوى على ستين قصيدة من نظم اثنين وعشرين شاعراً ، هم بحسب الترتيب الأبجدى : أحمد السمره ، أحمد حسين شحاته ، أحمد عجوبى ، ادوار حنا سعد ، السقا الشناوى ، د . جمال مرسى بدر ، حسن عطيه لطفى ، صالح مسعود المصرى ، د . عبد العزيز برهام ، عبد العليم القبانى ، عبد القادر العوا ، عثمان حلمى ، د . عمر الجارم ، عمر الراكشى ، محمد أنور شعلان ، محمد عادل مخلوف ، محمد عبد الرحيم إدريس ، محمد على أحمد ، محمد محمود زيتون ، محمود العتريس ، محمود عبد الحى ، يوسف فهمى الجزايرلى .

تحدثوا فى موضوعات طرد الملك والثورة والاشتراكية وبور سعيد والجلاء والجزائر وفلسطين واليمن والإصلاح الزراعى والميثاق ، وبصفة عامة جميع الأحداث والوقائع التى كانت من صنع الثورة أو أوحت بها.

• • •

٨ وللديوان مقدمتان ، الأولى للسيد الأستاذ محمد حمدى عاشور محافظ المدينة ورئيس الهيئة وقد تحدث فيها عن اسهام الإسكندرية منذ نشأتها فى مراحل الكفاح الوطنى وقيام شعرائها منذ عهد البطالمة بتسجيل وبث روح المقاومة فى الحركات التحررية .

وأما الثانية فكانت للأستاذ الدكتور محمد ثابت الفندى عميد كلية الآداب بجامعة الإسكندرية ومقرر الهيئة وقد تحدث فيها عن أثر ثورة ٢٣ يوليو فى جميع الميادين ومنها الميدان الأدبى وتناول جهد اللجنة التى أصدرت هذا الديوان بالثنـاء .

وقد أسهم الفنان سيف الدين وانلى عضو الهيئة بتصميمه غلاف هذا الديوان فخرج معبراً عن الفكرة التى أرادتها الهيئة من إصدارها له موضحاً للمعنى المقصود من كلمة « ثوار » .

• • •

٩ ونعود إلى هذا الديوان لنستعرض مجموعة قصائده ، وبدهى أننا لن نجد على صفحات هذه المجلة متسعاً لهذه الجولة التى لا بد منها لتقييم كل عمل فنى ، وأحسبها كذلك تضيق عن تناول قطاع منه بالدراسة المتعمقة التى تعنى بالجزئيات الدقيقة ، وبخاصة وأنا فى موقف العارض لا الناقد ، وإذن فلا أقل من أن نتخذ من أول أحداث الثورة مثالا لمعالجة شعراء هذا الديوان لموضوعاته ، ليكن « طرد الملك » هو الموضوع الذى تدور حوله النماذج المختارة التى أوردناها بغير تعليق .

---

(١) تكونت هذه اللجنة من الشعراء أحمد السمره والسقا الشناوى وعبد العليم القبانى وعادل مخلوف ويوسف فهمى الجزايرلى وقد اعتذر عادل مخلوف فاختارت اللجنة عبد القادر العوا بدلا منه .

(أ) من قصيدة « خاتمة المطاف » لعبد العليم القبانى (صفحة ٨٣) :

شهدنا ذهول الشمس عند انحدارها ... « ويخنك » يجتاز الخضم المروعا(١)
وقد خيم الصمت الرهيب ونكست ... رءوس أبت بالأمس ألا ترفعا
وذل جلال القصر وارتاع صخره ... كأن لم يكن من قبل صرحا ممنعا
وقفنا وقوف الشك نستلهم المعنى ... ونستنجد الأسماع أن تتسمعا
نجس محز القيد من عضلاتنا ... وهل زال ؟ أم زال قيدا مقنعا
حسبنا الذى نلقاه حلماً .. فلم ندع ... لعاطفة فى القلب أن تتسرعا
نحس ونأبى أن نثور فربما ... تفرق من أحلامنا ما تجمعا
فكيف تهاوى التاج من فوق هامة ... تهاوت لها الهامات بالأمس ركعا ؟
وأين عتو المالكين .. ورهبة ... ترد عيون الشعب أن يتطلعا ؟
جثا الصاحب الجبار وارتد كبره ... وعاد صفاء الأمس يأساً وأدمعا
أطلت عليه الشمس والأمر أمره ... فلما طواها الليل لفهما معا
(إذا أنت لم تعرف لشعبك حقه) ... تخلى فلم يعرف لعرشك موضعا(٢)

• • •

(ب) ومن قصيدة « ذكرى الجلاء » لمحمد محمود زيتون (صفحة ١٨٧) : .

قد تراءى العملاق فى هالة المجد ... ودوى زئيره فى الفضاء
صهرته الأيام فى منقاد ... وفلسطين فى ليالى الشقاء
فتجلت له الحقائق كالآيات ... تترى وما بها من خفاء
.... وانقضت ليلة فأين الليالى ... من أعاجيب ليلة الاسراء
بارك الله زحفه حين أمسى ... فى ركاب الكتيبة الشماء
فاذا العرش بالفضائح يهوى ... لغروب فى اللجة الزرقاء
كهنوت الطغاة راح مع الريح ... وولت أيامهم كالهباء
وانطوت دولة العبيد وجاءت ... صفحات من ثورة بيضاء

• • •

(ج) ومن قصيدة « شموع الذكرى » لمحمود عبد الحى (صفحة ٢١٣) :

أنها صيحة التحرر والبعث ... ويوم الحساب يوم الوعيد
جعلت قلعة المظالم دكا ... ء وأودت بالعرش غير مجيد

(١) الترتيب هنا بحسب موقع القصائد من الديوان وقد روعى فى تنسيقه الترتيب الأبجدى لأسماء شعرائه .
(٢) الخطاب موجه للملك الطريد .

زلزل الملك فى ثلاث ليال ومضى الفلك بالمليك الطريد
وعيون الطاغوت تشرق بالدمع وفى الشاطئين وقع نشيد
إن حكم التاريخ حتم من العدل على كل حاكم عربيد
فانتصرنا على الظلام وكانت نصرة من لدن عزيز حميد
وانتهينا من الفساد حطاما وابتدأنا رسالة التشييد[1]

• • •

(د) ومن قصيدة «طريد الملك» ليوسف فهمى الجزايرلى (صفحة ٢٢٧):

طريد الملك قد أعطيت حكما يلقب مجده الكنز الثمينا
وتاجا من خرائده أضاءت جلالة قدره من عهد مينا
وشعباً قام فى فجر الليالى بنور العلم يهدى الجاهلينا
ورغداً فى ذرى الاسراف أضحى عجيبة من طغوا فى المسرفينا
هناء وارف مخضر جنب بدلت بشكره الكفر المبينا
فلم تنل الرعية منك خيراً ولم تك فى سياستها الأمينا
صبرنا فاعتقدت بنا خنوعا رويدك قد أسأت بنا الظنونا
فما نمنا على ضيم ولكن تمهلنا ... لنضرب قاصمينا

• • •

وبعد ...

فما هو مكان هذا الديوان بين دواوين الشعر المعاصر بعامة والشعر القومى منه بخاصة ؟

قد يرى بعض النقاد فى هذا الديوان رجعة إلى الوراء ونكسة للاتجاه الشعرى الذى قطع شوطاً لا بأس به فى التحرر من قيود الماضى .

وكان يمكن أن نجيب على هذا بالإيجاب بالنسبة لبعض نماذجه لولا جلال المناسبة والوظيفة الكفاحية التى سخر لها هذا الديوان وكذلك لولا إجادة طائفة من شعرائه فى التعبير الشعرى عن المفاهيم الجديدة للحياة الثورية فى بلادنا، والتى تضمن الديوان نماذج عديدة تبين فى وضوح مدى هذه الإجادة ، وإذا كانت بعض قوالب هذا الديوان متشابهة ، وإذا كانت بعض تعابيره تبدو متجمدة على معان مطروقة ، فان كثيراً من تعابيره ، كذلك بدت جديدة تزخر بالحيوية ، وتشرق بالكلمة المتحركة المضيئة .

ومع ذلك فانى أضع هذا الديوان — بعد هذه الرحلة الممهدة — بين يدى قراء الشعر وناقديه ، ليضعوا أيديهم على مواطن الجمال والقوة فى ثناياه ، وليدلوا كذلك على نقاط الضعف فيه ، تلك التى لا يكاد يسلم منها عمل فنى مهما بلغت درجة صاحبه من الإخلاص والإجادة .. ثم ليقرروا المكانة التى يستحقها هذا الديوان بين دواوين شعرنا القومى المعاصر .

عبد العليم القبانى

(١) هاتان المقطوعتان من قصيدتين جديدتين تناولتا كثيراً من جوانب الثورة .

قصة ملك و ٤ وزارات



● من الأجدر – وبلادنا تحتفل بذكرى مرور أربعة عشر عاماً على ثورة ٢٣ يوليو – أن نرجع إلى واقعنا التاريخي قبل الثورة المجيدة ، وأن نتناول بالعرض والنقد كتاباً يستخدم التحقيق الصحفي أسلوباً في دراسته لفترة هامة من الفترات الحيوية السابقة لقيام ثورة ٢٣ يوليو ، هو كتاب الأستاذ موسى صبري « قصة ملك و ٤ وزارات » . وهو الكتاب العربي الثالث والأخير عن الحكم الملكي في مصر قبل الثورة . . كان الكتاب الأول « فاروق ملكاً » لأحمد بهاء الدين ، وهو الدراسة السياسية الكاملة الوحيدة للملك فاروق وحكمه ، التي تناولت بالتحليل الأساسي التاريخي والاجتماعي للنظام الملكي في مصر . . والكتاب الثاني هو كتاب زكريا الحجاوي « ملك الكوتشينه » وهو تقصى لمفاسد الملك الشخصية ، وهذه المفاسد وإن مثلت جزءاً من فساد النظام بأسره ، إلا أن التركيز على الجزء وترك الكل ، يجعل الدراسة مفتقرة إلى النظرة الشمولية – المطلوبة – لكل جزئياتها . . وهناك كتب أخرى درست تاريخ مصر الحديث كله دراسة جديدة وتعرضت لهذه الفترة تعرضاً سريعاً . . منها كتاب شهدي عطيه « تطور الحركة الوطنية » ، وكتاب عبد الرحمن الرافعي « مقدمات ثورة ٢٣ يوليو » ، وكتاب إبراهيم عامر « ثورة مصر القومية » وكتاب جلال الدين الحمامصي « معركة نزاهة الحكم » ، وكتابنا « حريق القاهرة أو نذير العاصفة » ، وذلك بالإضافة إلى دراسات الدكتور محمد أنيس ، وأبحاث المستشرق الفرنسي الدكتور جاك بيرك التي نشر بعضها بالدوريات المصرية . . .

يتناول الكتاب رقعة محددة هامة من تاريخنا ، ابتداء من حريق القاهرة في ٢٦ يناير ١٩٥٢ ، إلى قيام ثورة ٢٣ يوليو وهي فترة حاسمة في التاريخ المصري ، كما أسماها ميثاقنا بحق . وقد ظلت بلادنا مستعمرة إنجليزية منذ أطلقت مدافع الأسطول البريطاني نيرانها على الإسكندرية في الحادي عشر من يوليو ١٨٨٢ . فبعدها تم للاستعمار البريطاني الاستيلاء على وطننا ليحوله إلى مزرعة للقطن ، ويدوس على حرياته ومعتقداته ، ويفتتح له سوقاً لمنتجاته الصناعية ، وفي الوقت ذاته يحرم إقامة أية صناعة وطنية . وكان نزول القوات البريطانية بداية تعاون صريح بين أسرة محمد علي والاستعمار البريطاني على نهب أراضي مصر ، والقضاء على كل ثورة يقوم بها شعبها . ولكن الثورة ظلت متأججة في النفوس ، وعبرت الجماهير عن إرادتها القوية في ثورة ١٩١٩ وفي الهبات الثورية في سنوات ١٩٣٠ – ١٩٣٥ . ثم فوجئت الجماهير بتوقيع معاهدة ١٩٣٦ التي أرادها الاستعمار ، وفرضت وجوده شرعياً إلى الأبد ، ومارس السفير البريطاني حقه في تنصيب الحكومات وعزلها . ثم تعاقبت حكومات الأقليات – التي دأبت على احتقار الشعب في كل مناسبة – الممثلة لكبار ملاك الأراضي والرأسمالية المصرية الناشئة ، وسلاسل من المفاوضات والمهادنات ، والشعب

ثائر يطالب بإلغاء معاهدة ١٩٣٦ ، والرجعية تحاول من جانبها فرض معاهدات جديدة كمعاهدة صدقى - بيفن . وطوال كل هذا كانت القوى الجديدة للعمال ، والمثقفين تتعاظم ، ومزقت الجماهير الغاضبة معاهدة صدقى - بيفن ، أولى محاولات جر مصر إلى الأحلاف العسكرية ، برغم الحديد والنار وخلال توالى الأحداث بدت صورة النظام تتداعى : فالجماهير تهاجم الإنجليز المسلحين فى ثكنات قصر النيل ، وتمزق صورة الملك المستهتر ، وضباط البوليس يقومون بإضرابهم فى ٥ من أبريل سنة ١٩٤٨ ، وإضراب الممرضين والممرضات فى مستشفى قصر العينى ، وإضراب المدرسين ، والصيادلة ، والمحامين ، ثم انتشار الجمعيات السرية للانتقام من المسئولين الذين باعوا أنفسهم وضمائرهم للاستعمار ، وحرب فلسطين تندفع إليها الحكومة الحائرة بلا استعداد ، وبجيش بلا أسلحة ، ثم تجلب أسلحة فاسدة ، تصيبه ولا تصيب عدوه ، وتذاع فضائح الأسلحة الفاسدة ، ويعرف الشعب الملك رأس الفساد وحاشيته من المفيدين من هذه السرقات . وحتى حكومة الوفد التى وصلت بأغلبية كبيرة سنة ١٩٥٠ - لتغريرها بالشعب بوعود خلابة - لم ترع واجب الوطن إذ سرعان ما انغمست فى الصفقات والبيع والشراء فى أملاك الحكومة . والملك لاه مع عروسه الجديدة فى كابرى ، والحكومة الوفدية تمارس ألاعيبها فى عمليات مفاوضة مهينة ، وبدا واضحاً أن حزب الاقطاع يتحالف مع السراى ، وقد حاول بعض المثقفين اليساريين داخل الحزب أن يدوسوا على سيطرة الإقطاع فى داخل الوفد ، فلم يفلحوا وحاربتهم القيادة الإقطاعية القوية داخل الحزب . إن الصورة العامة تتغير فى وجه الحكومة الإقطاعية : الفلاحون يثورون ضد الإقطاعيين فى كفور نجم وبهوت ، ولتغطية مفاسد العهد الإقطاعى الرأسمالى المتعفن ومحاولة من حكومة الوفد لاستعادة الأرض الشعبية التى تقف عليها - أقدمت فى الثامن من شهر أكتوبر سنة ١٩٥١ على إلغاء معاهدة ١٩٣٦ : اليد التى وقعتها من قبل وأسمتها « وثيقة الشرف والاستقلال » أجبرتها الجموع الشعبية على إلغائها ، ورفضت محاولة أخرى لجر البلاد إلى حلف عسكرى ، وسرعان ما بدأت الجموع الشعبية تمارس من تلقاء نفسها الكفاح المسلح فى أرض القناة . وانسحب العمال جماعياً من المعسكرات الإنجليزية ، وبدأ الفدائيون يثيرون الرعب بين الجنود البريطانيين وفى قلب معسكراتهم . والحكومة ساكنة . والمظاهرات تغمر أنحاء البلاد بطلب السلاح والعمل الجدى ضد المستعمر . خافت الحكومة الشعب ، لقد ألغت المعاهدة خطابياً فحسب ولم تتوقع إصرار الشعب على المضى إلى آخر الشوط . والإنجليز يهدمون حى « كفر عبده » بالسويس ، ويفتكون بالوطنيين ، والجماهير تصرخ ضد الملك وحاشيته وضد الحكومة وترددها وإقطاعها . بينما كانت الحكومة تستجدى الدول الاعتراف باللقب الملكى الجديد « ملك مصر والسودان » وبينما الجماهير ثائرة ضد الملك وولى عهده ، كانت الحكومة وبرلمانها يخصصان جلساتهما للتفانى فى تهنئة الملك بولى عهده .

وفى ٢٥ يناير ١٩٥٢ ارتكبت مذبحة الإسماعيلية ، وفيها هدم الإنجليز محافظة الإسماعيلية وقتل عشرات من رجال البوليس وجرح مئات . . وما أن أذاع راديو القاهرة أنباء المذبحة الرهيبة فى مساء ٢٥ يناير ١٩٥٢ حتى قضت الجماهير ليلتها مؤرقة تحلم بالانتقام ، وجاء يوم ٢٦ من يناير ١٩٥٢ واحترقت القاهرة ، بيد الرجعية والاستعمار ، لتوقف الشرارة التى انطلقت من جموع الشعب ، شرارة الكفاح المسلح ، شرارة الثورة ضد الإقطاع فى الأرض وضد الاحتكار فى المصانع . فأعلنت الأحكام العرفية ، وفرض حظر التجول من غروب الشمس إلى شروقها ، وقبض على الفدائيين ، وزج فى المعتقلات والسجون بمئات الوطنيين ، وتحولت البلد كلها إلى سجن كبير ! وقد قرر حريق القاهرة مصير الرجعية ونظامها ، وصار واضحاً أن الجماهير مزقت نهائياً أية محاولة للمقاومة عن طريق الرجعية ، وإذا كانت حكومات قد تتالت فيما بعد وحاولت أن تموه على الشعب فإنها كانت مكشوفة ، وبرغم حديدها ونارها كانت الصرخات تعلو فى كل مكان ضد النظام بأكمله ، وفى ثورة ٢٣ يوليو بادرت الطليعة إلى خلع الملك وإزالة النظام الملكى الاستعمارى الإقطاعى الرأسمالى وإقامة مجتمع اشتراكى حر . . .

بقلم

موسى صبرى

هذه - باختصار شديد - الخطوط الأساسية لحركة التحرر الوطنى فى التاريخ المصرى الحديث ، وهى مقدمة ضرورية لدراسة كتاب الأستاذ موسى صبرى « قصة ملك و ٤ وزارات » الذى يعرض أحداث الشهور الستة التى أعقبت حريق القاهرة ، من وجهة نظره السياسية ، وبأسلوب الصحفى الرشيق الذى يتناول الأمور بالنظرة السريعة التى تتناسب مع سرعة الصحافة ، وقد يكون من التعسف أن نحمل هذا الكتاب عبء الدراسة التاريخية فصاحبه يقرر منذ البداية أنه ليس تاريخاً بل هو تحقيق صحفى لا أكثر ولا أقل ، وهو عرض للأحداث السياسية بعد حريق القاهرة ، أكثر منه استقراء وتحليلا لها ، وهو لذلك لا يخضع لمنهج محدد يمكن مناقشة الكاتب على أساسه . ولذلك سنكتفى بعرض فصول الكتاب وتحليلها ومناقشتها .

يحتوى كتاب « قصة ملك و ٤ وزارات » على مقدمة ومدخل وستة فصول . وفى المقدمة يؤكد الكاتب أن كتابه ليس تاريخاً وإنما هو تحقيق صحفى مبنى على اعتقاده فى أن الأشخاص يصنعون الأحداث ، « ومن الغوص فى نفوس الأشخاص ، يمكن أن نفسر الأحداث التى يصنعونها أو تصنعهم . . » (ص ٦) وهو هنا يريد أن يقدم لنا أحداثا تاريخية من زاوية شخصية ، وقد مرت كتابة تاريخنا قبل الثورة بمثل هذه المحنة ، فجاء تاريخ بلادنا ، مجرد تأريخ لأفراد عند بعض المؤرخين ، أو مجرد رؤيا حزبية عند البعض الآخر . . إن التاريخ لا يصنعه أفراد ، بل يصنعه المجتمع ، ولا يمكن دراسة أى أفراد بمعزل عن ظروف المجتمع الاقتصادية وتناقضاته . وقد أكد الميثاق بفهم تقدمى : « إن من الحقائق البديهية التى لا تقبل الجدل أن النظام السياسى فى بلد من البلدان ليس إلا انعكاساً مباشراً للأوضاع الاقتصادية السائدة فيه وتعبيراً دقيقاً للمصالح المتحكمة فى هذه الأوضاع الاقتصادية » . (الميثاق الباب الخامس) هذه هى نقطة الخلاف المبدئية بيننا وبين المؤلف .

مدخل الكتاب بعنوان : « كيف احترقت القاهرة ؟ » وفيه يروى الأستاذ موسى صبرى القصة المعروفة والتى أتينا على ذكرها فى السطور السابقة ، من أن الوفد جاء إلى الحكم فى يناير سنة ١٩٥٠ بأغلبية ضخمة لثقة الجماهير فى برنامجه المنادى بتحرير البلاد من الاستعمار ، وفى رأينا لأنه القوة الوحيدة المناوئة للملك . ولكن الحزب خان ثقة الجماهير وتلاعب بالركوع للانجليز والملك فى سبيل إطالة أمد حكمه ليتمكن من الثراء والاحتفاظ بزمام الحكم . إلا أنه إزاء ضغط الجماهير وسخطها أقدم على إلغاء معاهدة ١٩٣٦ . وازداد سخط العمال والفلاحين والمثقفين ضد جشع الطبقة الحاكمة المتخمة ، لذلك ثارت الجماهير ضد الظلم الاجتماعى أو ما أسماه الكاتب بالخلل الاجتماعى . وبرغم غياب الفاعل الحقيقى إلا أن الأستاذ موسى صبرى وضع يده على التحليل الصحيح لحريق القاهرة ، من أنه يعبر أكثر ما يعبر عن ثورة الجماهير الجائعة ضد كل قوى الظلم والثراء ، وأنه أثبت افتقار الجماهير إلى القيادة الحقيقية للثورة . وإن كان الأستاذ موسى صبرى قد أغفل مثلا الدور الهام الذى لعبته حركة الكفاح المسلح فى مدن القناة ، وثورة الفلاحين ضد الإقطاع فى بهوت وكفور نجم ، وإضراب العمال عن العمل فى المعسكرات الإنجليزية مما شل وجودها ، واتجاه العمال إلى عقد أول جمعية تأسيسية لاتحاد العمال المصرى فى ٢٧ يناير ١٩٥٢ ، وأن السبب المباشر لحريق القاهرة مذبحة الإسماعيلية فى ٢٥ يناير ١٩٥٢ وثورة الجماهير ضد سلبية الحكومة . وفى هذا الفصل يطالب المؤلف « الدكتور محمد حسين هيكل » بأن « ينادى بشعارات للإصلاح ، تصلح أساساً لبرنامج مدروس للتطور فى عشر سنوات مثلا ؟ . . » (ص ١٠) . . . رغبة المؤلف هى الإصلاح ، وهو هنا يطلب من قمة الرجعية والإقطاع تكوين مجموعة من الشباب تحت ستار إصلاحى ، كيف يتبنى الدكتور هيكل اتجاهاً تقدمياً وهو ضده طبقياً . فالدكتور هيكل تنفصل عنده الثقافة عن الحياة ، كما دافع الأستاذ موسى صبرى ابن أخبار اليوم عن دور أخبار اليوم فى خدمة الرأى بقوله : « وقد مثلت أخبار اليوم مدرسة الخبر الصحفى وخرجت من النطاق المحلى إلى نطاق معالجة المشكلات العالمية .

وكانت تؤيد القصر ضد حزب الوفد فى أول سنوات صدورها . . » (ص ٢٥)

« ومن المسلمات أن جريدة الأخبار ولدت فى فترة سوداء من تاريخ مصر فى يوم حريق القاهرة بالذات ، والقصر فى أشد الحاجة إلى من يدافع عنه أمام اكتساح روح الثورة لدى الجماهير ضد الملك والملكية بصفة عامة . . جاءت صحيفة الأخبار مزودة بتمويل ضخم مثير للشبهة وارتفعت مرتبات المحررين إلى حدود خيالية لم تبلغها الصحافة المصرية قط » .

وابتداء من الفصل الأول يسرد المؤلف أحداث الفترة التالية لحريق القاهرة فى ٢٦ يناير ١٩٥٢ حتى نشوب الثورة فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، وهى الفترة التى وصفها الميثاق بهذه الكلمات القوية : « ولقد استسلمت القيادات التى تصدت للنضال الشعبى أمام سلطة القصر المتزايدة بسبب ضعفها المتزايد ، وركعت جميعاً تلتمس الرضا الذى يصل بها إلى مقاعد الحكم ، وتخلت بذلك عن الشعب وأهدرت كل قيمة له ، ناسية بذلك أنها تتخلى طواعية عن مصدر قوتها الوحيد ومنبعها الأصلى . وانتهى الأمر إلى حد أنهم هانوا على الشيطان الذى باعوه أرواحهم فوصل بهم الهوان إلى حد أن تغيير الوزارات أصبح له ثمن معلوم يدفع للقصر ولوسطائه . إن القيادات الوطنية حين تخلع جذورها من التربة الشعبية تحكم على نفسها بالذبول وبالموت . ولسوف يبقى الوطن زمناً طويلا يشعر فى حلقه بمرارة الذل الذى أحسه فى هذه الفترة المتأزمة من جراء امتهانة الاستعمار بنضاله استهانة فاقت كل حدود للاحتمال البشرى » . (الميثاق ، الباب الرابع) ووصفها

الناشر : دار القلم
٢٣٢ ص حجم متوسط الثمن ٣٠ ص

المناضل أنور السادات بقوله : « كانت كل الوزارات التي تكونت بعد حريق القاهرة ، لا يكاد أفرادها يستقرون على مقاعد الحكم حتى تتحرك أصبع سمسار أو خادم فيطيروا من فوق المقاعد كالدمية . . إن نظام الحكم فى ذلك الوقت كان يتهاوى من تلقاء نفسه والبلاد معه . . إن الشعب كان لا يحكم على الإطلاق فكانت الوزارات التى تتكون تبدو كحكومات لشعوب أخرى تعيش فى بلاد أخرى غير مصر » (قصة الثورة كاملة ص ٦٥) .

ولكنا سنرى أن للأستاذ موسى صبرى رأياً مخالفاً على طول الخط فى روايته عن هذه الوزارات التى تولاها باشوات دأبوا على احتقار الشعب والركوع أذلاء للملك . وقد احتلت وزارة واحدة – هى وزارة على ماهر – جانباً كبيراً من الكتاب ، فخصها المؤلف بفصلين كبيرين : « كيف تألفت وزارة على ماهر يوم حريق القاهرة » ، و « خمس أزمات حطمت وزارة على ماهر » . ويذكر الأستاذ موسى صبرى أن تغيير وزارة الوفد كان أمراً مقرراً وأن الدور كان على نجيب الهلالى لولا تفضيله أن تواجه وزارة أخرى برأسها على ماهر الموقف المتدهور بعد الحريق ، وهو فى هذا يتفق مع رواية الأستاذ جلال الدين الحمامصى فى كتابه « معركة نزاهة الحكم » ورواية الأستاذ عبد الرحمن الرافعى فى كتابه « مقدمات ثورة ٢٣ يوليو » . . وموسى صبرى يدافع دفاعاً مجيداً عن على ماهر وكيف كان مغضوباً عليه من الملك الذى كان يعامله معاملة شاذة ، ورغم ذلك يؤكد المؤلف أن على ماهر كان يسعى لنيل كرسى الحكم . وقبل حريق القاهرة بشهر كانت العدة تعد لرئيس جديد للحكومة ووسط على ماهر من يمهد له لدى الملك ليخلع عليه رئاسة الوزارة ، ويروى الأستاذ موسى صبرى واقعة خطيرة فيقول : « . . ولهذا تمت بعض الاتصالات مع على ماهر من جانب الساعين إلى تمكينه من الحكم . ولم يصارحوا على ماهر بشىء واضح . ولكنهم تركوا أمامه الباب موارباً . . وفى ظل هذا الشك استعد على ماهر لمواجهة الموقف . فعرض بنفس الأسلوب . أسلوب الباب الموارب على بعض الأشخاص التعاون معه . واستمع إلى آراء كثيرين حتى أنه قابل ممثلين عن حركة الكتائب فى الشرقية هما عبد الحميد صادق ومدحت عاصم اللذان شرحا له تفصيلات معركة الكتائب وقدما له صورة عن الموقف . وسألهما على ماهر عن عدد المشتركين فى الكتائب . . ثم سألهما على ماهر : هل يمكن وقف أعمال الكتائب ولو فترة قصيرة من الوقت إذا دعت إلى ذلك مصلحة الوطن ؟ فاشترطا ألا يقبض على أحد من الفدائيين أو يصادر أى سلاح معهم . . » (ص ٣٦ و ٣٧ و ٣٨) .

ما معنى هذا الكلام الخطير ؟ !

. . معناه أن على ماهر وسط عملاءه لدى أولى الأمر فى السراى ليتولى الحكم ، وفى هذا السبيل عرض مبدئياً استعداده لإيقاف الكفاح المسلح ووقف اتجاه الثورة المتأججة فى صفوف الشعب وسعى بالفعل إلى تشكيل الوزارة ورشح أناساً لها ، بل واجتمع بممثلى الكتائب وأخذ منهم – بطريقة بوليسية – بيانات عن عدد أفراد الكتائب وحجمها ومقرها وتسليحها وكيفية إيقافها مؤقتاً ! .

هذا هو الثمن الذى عرضه على ماهر لوقف الثورة ولوقف حركة الكفاح المسلح اللذين أصبحا يهددان حكم الباشوات ووجود الاستعمار والملكية معاً . . . وتأكيداً لذلك يعود موسى صبرى إلى القول الصريح : « وعندما التهب حريق القاهرة تأكد على ماهر أن الوزارة ستعرض عليه بين لحظة وأخرى » . (ص ٤٦) وبينما كانت القاهرة محترقة كان على ماهر ينتظر إقالة وزارة الوفد وتكليفه بالوزارة وأعد بالفعل أوامره التى يصدرها فور تكليفه بالوزارة .

أما عن الأزمات الخمس – مع الملك – التى حطمت وزارة على ماهر وخصص لها المؤلف فصلا بأكمله فهى أزمات غير حقيقية ومفتعلة والواضح الجلى حتى من روايته نفسها أن على ماهر كان يلبى كل طلب ملكى على الفور بلا مبادئ ولا أزمات ولم يعلق موسى صبرى بكلمة واحدة على موافقة على ماهر على إرسال بعثة تعزية فى وفاة الملك جورج بينما دماء الشهداء لم تجف بعد فى الإسماعيلية والسويس وبور سعيد بعد المذابح التى ارتكبها الإنجليز ضد الشعب والبوليس هناك . والحقيقة أن وزارة على ماهر لم تكن سوى وزارة مرحلية لتمييع الموقف السياسى الملتهب وإطفاء لهيب الثورة ، والحكم بالحديد والنار ، أو كما قال أنور السادات – بحق – « وكانت وزارة على ماهر التى تكونت عقب حريق القاهرة عبارة عن خدعة أراد القصر والاستعمار بها التمهيد لحكم البلاد بالحديد والنار ثم تصفية الحركة الوطنية نهائياً على أيدى الخونة والأذناب وأصحاب المصالح المتناقضة مع مصالح الشعب ! ! وفعلا لم تلبث وزارة على ماهر أن طارت فى فبراير . . بعد أيام من تأليفها . . » (قصة الثورة كاملة ص ٧٩) . تحدث المؤلف مدافعاً دفاعاً مجيداً عن على ماهر ووزارته التى تولت القبض على جميع الوطنيين ، وجمع الفدائيين المحاربين فى مدن القناة وسجنهم وتعذيبهم وتجاهل المسألة الأساسية فى أنه دفع ثمن وصوله إلى الحكم بتنفيذه المتفق عليه بوقف حركة الكفاح المسلح ، والاستمرار فى فرض الظلام وحظر التجول ومعاودة الاتصال الذليل بالانجليز للمفاوضة ، حتى إذا اعتذر السفير البريطانى عن لقائه سقطت الوزارة لعدم

رضاه عليها ! ! بل إنه يدافع عنه دفاعاً صريحاً ويظهره بمظهر البطل الذى يسعى إلى نيل الحقوق الوطنية ؟ ! «وكان اتجاهه فى وزارة ٢٦ يناير اتجاهاً شعبياً خالصاً . . ثم جاءت استقالته المفاجئة بعد مؤامرة السفير البريطانى عن عدم الاجتماع به فى يوم بدء المفاوضات .. ونشر مرسوم حل البرلمان فى الصحف . . فعرف الشعب فى كل مكان أن فاروق أجبر على ماهر على الاستقالة لأنه لا يريد أن تصل البلاد إلى نيل حقوقها الوطنية . . » . (ص ١٢٢ و ١٢٣ (إلى هذا الحد بلغ الذل والهوان برئيس الوزارة المصرية أن يستقيل لعدم نيله رضا السفير البريطانى . ويعود الكاتب إلى تكرار دفاعه عن على ماهر (فى ص ١٢٤) محاولا إيهامنا بأنه كان سيخرج الإنجليز لولا رفض السفير البريطانى مقابلته !

ونجد فصلين آخرين – الثالث والرابع – مخصصين للحديث عن الوزارة الثانية من الوزارات الأربعة ؛ وزارة الهلالى . وهنا يمجد المؤلف ألعوبة التطهير التى قصد بها تخدير الشعب وإيهامه بتحقيق أهدافه وتجنب سخطه على الفساد المستشرى فى جهاز الحكم بأكمله . ودفاع آخر عن الهلالى الذى جمع كل ما تبقى من نشاط وطنى وزج – حتى بطلاب المدارس الثانوية وبأطفال فى سن الرابعة عشر – فى المعتقلات والسجون دفاعاً عن الملك ونظامه وتستراً وراء تهمة العيب فى الذات الملكية . ومن المسائل المثيرة فى هذا الفصل أن برنامج وزارة الهلالى تضمن «أن يصدر الإنجليز إعلاناً من جانب واحد بالجلاء والوحدة» (ص ١٠٣) كيف يجئ جلاء الإنجليز من جانبهم وحدهم ، بلا كفاح ولا أية حركة من جانبنا . وكيف يزول الاستعمار والفساد بجرة قلم ؟ ! أنا أعتقد أنها من تأليف موسى صبرى ذاته ، أو هى هلوسة الباشوات المعتادة التى كان يجب أن نجد تكذيباً لها من المؤلف . وكما تضمن الفصلان السابقان دفاعاً مجيداً عن أحد رجال الملك – كريم ثابت – تكرر فى هذين الفصلين أكثر من دفاع عن حافظ عفيفى الذى كان تعيينه رئيساً للديوان الملكى مثار سخط شعبى عارم . والذى هلل الإنجليز لتعيينه كعميل لهم . ووصفته جريدة «نيويورك تايمز» بأنه «الشعاع الأول من النور الذى يمزق اكفهرار جو مصر منذ أن قطعت العلاقات مع بريطانيا». يؤكد موسى صبرى أن «وجود حافظ عفيفى فى القصر . ووجود الهلالى فى الوزارة . سيؤلف معسكراً نظيفاً ، يتولى الملك تدريجياً بالنصح والتوجيه والإرشاد حتى يمكن الانتصار على المعسكر الملوث . . » (ص ١٠٨ و ١٠٩) . وفى موضع آخر يبعد عنه أية مسئولية عما يجرى فى القصر الملكى ويقول «إن حافظ عفيفى كان فى القصر كالزوج . . آخر من يعلم» (ص ١٤٣) ثم يعود المؤلف إلى تكرار دفاعه عن الهلالى فى صفحات أخرى «وكان من رأى الهلالى ورأيه أن يصدر الإنجليز إعلاناً من جانب واحد يعترفون فيه بالجلاء والوحدة ثم تبدأ المفاوضات بعد ذلك . . » (ص ١٢٠) هكذا بمثل هذه البساطة الساذجة يقرر الإنجليز الجلاء عن مصر ويقبلون وحدتها مع السودان من تلقاء أنفسهم ، من جانب واحد . . هكذا وينتهى الأمر . . . ولا كفاح ولا شهداء ! ؟ لا أعرف كيف ترد هذه الأقوال دون كلمة واحدة تنم عن تكذيبها واستنكارها . .

«إن هذا الكلام معناه أن خروج الإنجليز من مصر لم يكن مشكلة مستعصية وأنه أمر سهل للغاية ! والمؤلف صحفى مشهور وكاتب سياسى يعرف معنى ما يكتب ، ويعرف كيف حققت الثورة الجلاء الذى ظل مستعصياً سبعين عاماً بالرغم من تضحيات الشهداء ، لضعف الحكومات المصرية وكونها ألعوبة فى أيدى الإنجليز أنفسهم ، ومع ذلك فالمؤلف يروى كيف أن عدم رضا السفير البريطانى أطاح بوزارة الهلالى فى ٢٣ يونيو ١٩٥٢ كما أطاح بسابقتها وزارة على ماهر» .

ويختم الأستاذ موسى صبرى الفصل الرابع من كتابه باتهام الشعب بالاستسلام لليأس : «والشعب . . هو الرجل المريض الذى غالبته العلل والأدواء فيئس من الشفاء . وأسلم أمره إلى خالقه وكتم صرخاته اليائسة . . » (ص ١٤٦) . أن الشعب لم يكف عن الكفاح ولم يمرض والرئيس المناضل جمال عبد الناصر يؤكد بعد تحليل علمى لهذه الفترة قائلا : «ومع ذلك لم يكن الشعب قد ترك نفسه لليأس واستسلم . كانت المقاومة ضد كل ذلك أقوى ما تكون وأشرف وأنبل ما تكون» (التحول العظيم ص ١٣) .

ويتابع المؤلف روايته عن وزارات ما بعد حريق القاهرة ، فيتحدث فى الفصل الخامس عن وزارة حسين سرى التى اشتهرت بقصة المليون جنيه المدفوعة رشوة من مليونير مصرى للملك ورجاله ثمناً لوجودها فى الحكم . وفى هذا الفصل يكرر موسى صبرى أسطورة إظهار الملك بمظهر الرجل الوديع البرئ الذى أفسده رجال الحاشية ، وهو اعتقاد خاطئ بلا شك . ويروى المؤلف رواية خطيرة ترد متوارية بين سطور الكتاب (ص ١٨١) وتبين مدى رعب الحكومات من مظاهرات الشعب – وتنفى عنه الاتهام باليأس – إلى درجة تخصيص فرقة كاملة لقمع المظاهرات قوامها ثلاثة آلاف رجل ، بالإضافة إلى البوليس السياسى والأجهزة البوليسية الأخرى . وكيف أشاعت الأخبار الأولى عن الثورة الرعب فى حكومة حسين سرى وفى القصر الملكى حتى اضطرت للاستقالة فى ٢١ يوليو ١٩٥٢ .

وكانت الوزارة الرابعة وزارة الهلالى ، هى «وزارة اليوم الأخير» موضوع الفصل الأخير ، لقد أصبح نجيب الهلالى الورقة الأخيرة فى يد الملك ، ويبين لنا كيف انفض الجمع من حول

الهلالى وتنصل الذين كانوا يتلهفون على الحكم – من نظام الحكم . فلم يجد الهلالى سوى دليل التليفون ليختار منه أى أسماء للوزارة (ص ١٩٧) . ويتضح لنا بجلاء – برغم دفاع المؤلف عن الهلالى – كيف تحول الحكم إلى يد السيدات والخدم ، وكيف أصبح رئيس الوزراء لا يملك حق عقد جلسة لمجلس الوزراء . ومع كل ذلك فقد حرص المؤلف على الدفاع عن الهلالى بإظهاره بمظهر الحريص على الاستجابة لمطالب الشعب وسخطه على النظام الملكى ، وأنه طلب عدم مواجهة الثورة ، بل وأنه طلب من الملك « أن يتنازل عن العرش . . » (ص ٢٠٨) فى صباح يوم ٢٣ يوليو وقبل أن يستقيل الهلالى ، وقبل أن تتضح حقيقة الثورة .

وفى نهاية كتاب الأستاذ موسى صبرى ، جاءت أحكامه تقدمية ، مؤكداً أن الثورة هى الحل الحتمى لما وصلت إليه البلاد من فساد وظلم وكبت للحريات مع أن مقدمات هذا الكتاب لا تؤدى إلى نتائجه . لم يقل لنا موسى صبرى كيف كان شبابنا يستشهدون فى القنال ، كيف كان العمال يضربون عن العمل ، كيف كان خيرة شبابنا نهباً للكلاب الإنجليزية المتوحشة تفترسهم وهم فى الأصفاد والقيود . . لم يرد منه دفاع واحد عن الكفاح المسلح فى القناة . . ولم يعلق بتعليق واحد على حل كتائب الفدائيين ، ولم يقل أين ذهب هؤلاء وكيف تلقتهم السجون بالتعذيب . . وكيف وجهت إليهم الاتهامات الجائرة بحرق القاهرة وحكم عليهم بالفعل – فى عهد هذه الوزارات – بعقوبات ضخمة وطوح بهم فى ليمانات مصر يقطعون حياتهم فى قطع الأحجار الصلدة من الجبال . . شىء من هذا لم يرد فى كتاب موسى صبرى ، كأنما لم يكن فى بلادنا من أبطال سوى على ماهر والهلالى وحافظ عفيفى وحسين سرى . . كأنما لم يكن هناك شعب ثائر ، كأنما لم تكن ثورة للفلاحين ضد الإقطاع . وثورة للعمال ضد الرأسمالية والاستعمار . . وثورة للطلبة والمثقفين . . كأنما لم تكن الجماهير تهدر صاخبة ضد الحكم بأسره . . وكأن الحياة فى البلاد كانت متوقفة ومحصورة فى الصراع بين الباشوات والملك . . إن مقدمات هذا الكتاب لا تؤدى إلا إلى هذه النتيجة : إن الدنيا كانت بخير ، وأن الباشوات المخلصين كانوا يدافعون دفاعاً مجيداً عن حقوق الشعب وكانوا يريدون خلاصاً حقيقياً من حكم الأغوات والخدم . . أنه كتاب خطير يبدو أن كاتبه كتبه قبل ثورة ٢٣ يوليو ونسيه فى أحد أدراج مكتبه حتى قامت الثورة فلم يجد ما يدعوه إلى تغيير أفكاره ونشره بصورته المدافعة عن باشوات العهد الملكى – مكتفياً بإضافة ختام ثورى – ومحاولة تأكيد الفكرة القائلة بأن الملك رجل طيب وظريف وقوى وضحكته مجلجلة ، ولكن أفراد الحاشية – عليهم اللعنة – الفاسدون أفسدوه وأن المسألة لم تكن تحتاج إلى أكثر من تطهير رجال الحاشية ورجال الأحزاب وكفى الله المؤمنين شر القتال .

وهذا الكلام طبعاً يناقض أى دراسة علمية وأى فهم تاريخى تقدمى لطبيعة النظام الملكى الفاسد من أساسه سواء صلح الملك أم فسد ، وطبيعة النظام الاجتماعى المظلم الظالم الذى يقوم لصالح عشرات من الباشوات والأسر الكبيرة والملك وعائلته ورجاله . . وحتمية انهيار هذا النظام من أساسه ، حتمية الثورة ، وحتمية الاشتراكية ، حتمية تحتمها سلسلة التطور الإنسانى .

يجب أن ندقق فى مراجعة هذه الكتب التى تلقن – الفترات الأخيرة الحاسمة من تاريخنا الوطنى قبل الثورة – لجيل الثورة وشبابها الذى لم يعاصرها . . فإن هذه الكتب هى الوحيدة التى يجدها شباب الثورة ليرى تاريخ شعبه ، خاصة وقد أهدى المؤلف إليهم كتابه فى ختامه (ص ٢٢٠) . . وفى هذا الكتاب سيرى شبابنا بكل أسف أن الكفاح الوطنى فى مصر كان مقصوراً على بضع باشوات ورجال من حاشية الملك فاروق ، وأن طرد الإنجليز كان سهلا للغاية يمكن أن يحققه أى باشا بالضغط عن طريق الأمريكيين أو عن طريق الإقناع الشخصى ليجلوا من تلقاء أنفسهم عن مصر والسودان ، بلا أدنى معارضة ، ولا داعى للكفاح المسلح والشهداء ، فهم غير موجودين عند موسى صبرى . . فهذه البلاد لم يكن فيها شعب ولا كفاح مسلح ولا كفاح وطنى ولا شهداء ولا سخط ولا ثورة ولا مظاهرات تجوب البلاد تهتف ضد الملك والباشوات وتنادى بالجمهورية وتطالب بتحديد الملكية وتوزيع الأرض على الفلاحين وتأميم الاحتكارات وتوزيع السلاح على الجماهير لتعزيز حركة الكفاح المسلح لطرد المستعمر . . كل هذا ليس له وجود عند المؤلف ، وله عذره فقد كان فى هذه الفترة يجوب شوارع القاهرة المظلمة بحظر التجول ، وكان يتنقل بين قصور الباشوات ، ورجال الملك ، بينما كان الشعب فى عزلة ، فى سجن كبير ، من الأحكام العرفية وحظر التجول والتعذيب فى السجون والمعتقلات . . ولهذا كله فإن تاريخنا الوطنى فى حاجة ماسة إلى دراسة جديدة متكاملة ، وإلى استكمال وثائق التاريخ المصرى الحديث بعيداً عن الأهواء الطبقية ، فهى المدخل الحقيقى لأية دراسة جادة تنير الطريق أمام شبابنا وأمام جيل الثورة وأمامنا جميعاً ، إن إعادة كتابة التاريخ القومى لبلادنا أمر حيوى يجب أن تسرع إليه اللجنة المخصصة

أحمد محمد عطيه

ثورة رائدة

تأليف: المستشار محمد أحمد رجب

الناشر: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية • ٢٩٢ صفحة ١٧×٢٤ سم

« لكل شعب من شعوب الأرض ثورتان :

ثورة سياسية يسترد بها حقه فى حكم نفسه بنفسه من يد طاغية فرض عليه، أو من جيش معتد أقام فى أرضه دون رضاه .

وثورة اجتماعية تتصارع فيها طبقاته، ثم يستقر الأمر فيها على ما يحقق العدالة لأبناء الوطن الواحد .

لقد سبقتنا على طريق التقدم البشرى شعوب مرت بالثورتين ولكنها لم تعشهما معاً ، وإنما فصل بين الواحدة والثانية مئات السنين .

أما نحن فان التجربة الهائلة التى امتحن بها شعبنا هى أن تعيش الثورتان معاً فى وقت واحد » ! !

بهذه الكلمات المضيئة التى قالها قائد الثورة الرائدة الرئيس جمال عبد الناصر فى كتابه « فلسفة الثورة » يمكننا أن نتقدم على ضوئها بخطى ثابتة ونحن نعرض كتاب « ثورة رائدة » للمستشار محمد أحمد رجب وكيل إدارة قضايا الحكومة الذى عرف فى الثلاثينيات عضواً بجماعة أبوللو ، وحفلت المجلات الأدبية كالإمام وأبوللو والراوى بشعره الرقيق وملاحمه الغنائية ، ثم كاتباً ناقداً فى جريدة الوادى والأهرام ، وناقداً للشعر المعاصر فى المجلات الأدبية المذكورة وفى جريدة الوادى على عهد عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين ، إلى أن ظهر علينا بهذا الكتاب « ثورة رائدة » بعد أن حجبه عنا اتجاهه إلى القانون وحرصه على أن يبرز فيه .

وقد استهل المؤلف كتابه بما جاء فى الباب الأول من الميثاق « إن أعظم تقدير لنضال الشعب فى مصر وتجربته الرائدة هو الدور الذى استطاع أن يؤثر به فى حياة أمته العربية وخارج حدود وطنه الصغير إلى آفاق وطنه الأكبر » .

وقد عبر تقرير الميثاق عن ظروف ثورتنا بقوله : لقد تميزت ثورتنا منذ يومها الأول بأنها كانت ثورة سياسية وثورة اجتماعية فى وقت واحد ، إنها كانت بحق ثورة رائدة فى فلسفتها الشاملة وفى إدراكها لوحدة الحياة بجوانبها الإنسانية المتكاملة .

وقد قال المؤرخ المشهور « توينبى » بعد إحدى زياراته للجمهورية العربية المتحدة « إن ما رأيته فى

الجمهورية العربية المتحدة إنما هو ثورة إنسانية عالمية » .

ويقول الدكتور سليمان الطماوى فى كتابه « ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ بين ثورات العالم » : « الثورة فى الفكر الاشتراكى هى وسيلة الشعب لتحقيق مجتمع الرفاهية الذى ينشده أيا كانت صورة هذا المجتمع » .

ويوضح الخصائص المميزة للنظرية الثورية العربية بأنها :

١ – نظرية ثورية غير منقولة .

٢ – نظرية مرنة .

٣ – ثورة شاملة .

وكتاب « ثورة رائدة » يقع فى أربعة فصول :

١ – الثورة ... أصولها وجذورها .

٢ – ثورات وشعارات متباينة .

٣ – التفجير الثورى موعده وامتداده .

٤ – إيجابية الثورة .

وخصص الفصل الأول لبيان أسباب قيام الثورات ، بداية إحساس الشعب بالظلم ثم وعيه وتحول هذا الوعى إلى نضال بغية رفع الظلم وإزالة قواعده ، بمعنى أن الوعى ينقلب إلى تحقيق ثورى هادف ، وهذا الوعى هو الذى يحدد مصير الإنسان ويرتفع به من البدائية إلى المستوى الحضارى الملائم .

ثم يعرض لمقومات الثورات الناجحة وعن ضرورة تبصير الشعب بمبرراتها لأنه ما دام الوعى هو أصل الثورة وهو الذى على ضوئه يتحدد ما يجب هدمه من المظالم، فان الشعب هو الذى يمارس الهدم ويقوم به ، ومن ثم يتحتم على قائد الثورة أو قادتها أن يحيطوا الشعب بأسباب النضال لتكون لديه عقيدة جديدة فى التغيير وفى البذل والفداء يجاهد بسبب الألم ويثور من أجل الأمل ، وعلى أن يكون هدف الثورة الصالح العام إذ أن المطامع الطبقية تعوق الدفع الثورى كما أن الدوافع الانتهازية قد تلعب هى أيضاً دوراً خطيراً فى تخريب الحركات الثورية .

والمؤلف يستأنس فى بحثه العميق بثورتنا الرائدة الناجحة مستنداً إلى الأصول التى بينها الرئيس جمال عبد الناصر فى « فلسفة الثورة » وما جاء فى خطبه وأحاديثه فى مختلف المناسبات .

وبعد عرض تاريخى لثورات الشعب المصرى منذ أن نادى السيد عمر مكرم بحق الشعب فى الحرية والمساواة إلى قيام ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ يؤكد أنها كلها أحداث متصلة وانفعالات متلاحقة لا تستطيع أن تتحمل فاصلا يفصلها ، كلها كفاح متصل الحلقات فى سبيل أن يحيا الشعب حياة كريمة .

إن صيحة عمر مكرم وثورة عرابى وجهاد مصطفى كامل ومحمد فريد ووقفة سعد زغلول وثورة سنة ١٩١٩ كلها إدراك ثورى متصل الحلقات موحد الهدف ، هدفه ممارسة الحياة الحرة ، والصوت واحد وإن اختلفت الألحان هو صوت التضحية والفداء يصدر عن شعب حر أبى عريق فى الحرية والإباء .

تتابعت هذه الأحداث واختلفت النتائج ولم يكف الشعب عن جهاده لأن له مثلا لم تتحقق حتى كان يوم ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ميقاتاً للتفجير الثورى وموعداً مع القدر ليحقق الشعب أسمى غاياته .

وفى الفصل الثانى من الكتاب استعرض المؤلف ثورات التحرير الكبرى الإنجليزية والأمريكية والفرنسية والتركية والروسية والصينية :

أولا – لبيان شعاراتها عند قيامها ومدى محافظتها على تلك الشعارات .

ثانياً – لإثبات أنه لم تقم ثورة من تلك الثورات وكان فى وجهها السدود التى واجهت ثورتنا

مجتمعة : مثل الاستعمار وأعوانه من الخونة ومثل الاقطاع والاحتكار وسيطرة رأس المال على الحكم، ومثل الاستغلال والاستبداد وأخيراً التزييف السياسى .

والمؤلف فى هذا الفصل يقارن بين هذه الثورات ويصدر حكمه مثل :

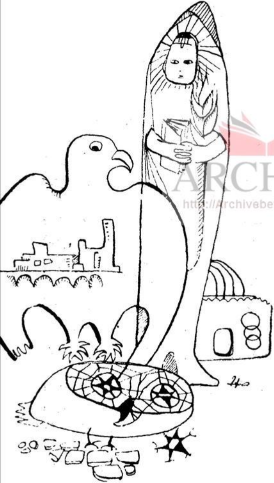
شعوب تسبح فى الدم وشعوب تسير فى نور الشعارات ودفء شمسها المشرقة فلا عنف ولا عسف إذ أن الشعارات كالديانات كلها خير وكلها تدعو إلى الخير .

ونحن المصريين لنا أن نفخر بأن ثورتنا ما غمست يدها فى دماء ولا أزهقت أرواحاً إنها ثورة من نور بددت ظلاماً وثورة حق أزهقت باطلا . . . إن الباطل كان زهوقاً .

أما الفصل الثالث فهو بحث فى التفجير الثورى، موعده وامتداده ، استعرض المؤلف أسباب قيام ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ وقيامها فى ذلك اليوم ، وأن الزعيم الملهم جمال عبد الناصر قدم موعدها ، وتجلت قوته المبصرة وشجاعته والهامه فتصرف بسرعة وأمر بأن يسير الضباط الأحرار فى الشوط إلى مداه .

وأوضح المؤلف كيف أن الأمة العربية كانت أكثر مناطق العالم إحساساً بثورتنا ولم يقف أثرها على البلاد العربية وأفريقيا ، بل امتد إلى أنحاء أخرى من العالم حيث آمنت شعوب كثيرة بأن تلك الثورة هى رائدها وهاديها فى سمو غاياتها حيث دعت خاصة فى المجال الدولى إلى السلام وناصرته ، ونحت دول كثيرة منحاها فى سياسة الحياد الإيجابى التى أصبحت قوة لها شأنها فى توجيه السياسة الدولية نحو السلام العالمى .

أما الفصل الرابع والأخير فقد اشتمل على لمحات مما حققته الثورة من أمجاد فى المجالات كافة .



فى الحقلين السياسى والاجتماعى فى وقت واحد وما صنعه رجال الثورة من أجل رفعة الوطن ومن أجل سيادة الجماهير وتحقيق مجتمع الكفاية والعدل . فلحقت دولا كانت تسبقها بمراحل ثم قفزت فخلفت دولا وراءها بعيداً .

كل ذلك لأن الثوار فتية آمنوا بربهم فوفقهم فصمموا وغيروا مجرى التاريخ وناصرهم الشعب فى معركة المصير ثم قدم كل طاقاته فى عملية بناء المجتمع :

بعد هذا العرض السريع لأبواب الكتاب يحسن بنا أن نقف هنا وقفة متأنية لنسأل أنفسنا .. ما الذى ينقص هذا الكتاب حتى يصبح كتاباً متكاملا ؟ ؟ لا نجد صعوبة فى الإجابة عن هذا السؤال فان القائد الرائد الذى حقق الثورة الرائدة كان من حقه أن يحتل مكانه فى كتاب « ثورة رائدة » ! !

فى عام ١٩٢٧ أصدر توفيق الحكيم رواية « عودة الروح » وقد تنبأ فى هذه الرواية بظهور الزعيم الذى يقود الشعب ... كان الشعب ينقصه « ذلك الرجل الذى تتمثل فيه كل عواطفه وأمانيه ويكون له رمزا لغاية ... عند ذلك لا تعجب لهذا الشعب المتماسك المتجانس المستعد للتضحية إذا أتى بمعجزة أخرى غير الأهرام » .

ولم يكن غريباً أن يقرأ جمال عبد الناصر هذه الرواية قبل الثورة وأن يتجاوب معها ويتأثر بها .

يقول الكاتب الهندى كارنجيا فى كتابه «كيف نجح عبد الناصر » : « هناك قلة من الناس فى تاريخ العالم أدوا أدواراً حاسمة وتركوا آثاراً بالغة الأهمية والخطورة فى تحويل مجرى التاريخ الإنسانى ... وسيظل اسم جمال عبد الناصر فى طليعة هؤلاء الناس مشرقاً وضاء » .

ويقول الرئيس جمال عبد الناصر فى كتابه « فلسفة الثورة » : « لست أدرى لماذا يخيل إلى دائماً أن فى هذه المنطقة التى نعيش فيها دوراً هائماً على وجهه يبحث عن البطل الذى يقوم به . ثم لست أدرى لماذا يخيل إلى أن هذا الدور الذى أرهقه التجوال فى المنطقة الواسعة الممتدة فى كل مكان حولنا قد استقر به المطاف متعباً منهوك القوى على حدود بلادنا يشير إلينا أن نتحرك وأن ننهض بالدور ونرتدى ملابسه فان أحداً غيرنا لا يستطيع القيام به » .

لقد بدأ جمال عبد الناصر اشتغاله بالسياسة فى سنة ١٩٣٠ بالإسكندرية حينما كان طالباً بمدرسة رأس التين الثانوية فاشترك فى مظاهرات الطلبة ضد حكومة صدقى :

وفى سنة ١٩٣٥ أصبح الطالب جمال عبد الناصر زعيما للطلبة فى مدرسته فقاد مظاهرة خرج فيها طلبة مدرسة النهضة بالقاهرة فى نوفمبر سنة ١٩٣٥ وأصيب فى هذه المظاهرة وسال دمه ، ودخل دار إحدى الصحف ليضمد جراحه ونشر اسمه لأول مرة .

ومن الدروس التى يجب أن يعيها كل طالب أن الطالب جمال عبد الناصر صمم على أن يفرغ من دراسته ليبدأ كفاحه الحقيقى فى سبيل بلاده فلزم منزله وانكب على الاستذكار دون راحة حتى أنه مكث يستذكر دروسه ١٥ يوماً متصلة فى غرفته وكان يمضى عشرين ساعة فى اليوم على مكتبه ويتناول طعامه أثناء المطالعة ! !

ويقول الأستاذ عبد المنعم شميس فى كتابه « الثورة والزعيم » :

« كان الحكام قبل الثورة يسيرون على مبدأ واحد لم يتغير منذ كتب تاريخ مصر هذا المبدأ هو « كل شيء لى .... ولو على حساب الآخرين » .

ثم كانت ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ رفع الشعب رأسه لأول مرة فى التاريخ ولم يقل قادة

الثورة من هم . . . لم يقل الثوار الأحرار إنهم يريدون كل شيء لهم ولو على حساب الآخرين بل إن هؤلاء الثوار أنكروا أنفسهم ولم يقولوا للناس أسماءهم وظلت مصر شهوراً لاتعرف أسماء الثوار !

لقد نبت فى قلوب الثوار مبدأ ثائر جديد يقول « كل شيء للآخرين ولو على حسابى » ! !

ويقول الدكتور إبراهيم جمعـــه فى كتابه « إيديولوجية القومية العربية » : « القيادة عنصر أساسى هام فى نجاح الحركة القومية هى فكر الحركة الواعى وعقلها المخطط وعصبها الضابط وقوتها الدافعة وسياجها الواق . . . وعلى قدر إيمان القيادة بالقضية القومية وتمسكها بأهدافها وصمودها فى معاركها يكون نجاح الحركة القومية وسيرها فى الخط الصاعد البــانى .

ويقول كارنجيا : « إن قائداً من قادة الأمم لم يهاجم بنفس العنف الذى يهاجم به عبد الناصر من أعدائه . . . أعداء السلام ومع ذلك فقد أصبح جمال عبد الناصر رمزاً للعناية الإلهية التى هبطت من السماء للدفاع عن بور سعيد وحماية قناة السويس من إغارات الغرب والحيلولة دون إعادة استعمارها من جديد » ! !

أردت من تجميع هذه الأقوال أن أدلل على أن الرجل الذى يحتل كل هذه المكانة فى نفوس العرب وغيرهم من الكتاب المنصفين يجب أن يأخذ مكانه فى الطبعة الثانية من كتاب ثورته الرائدة فى فصل مستقل وليكن عنوانه « القائد الرائد » .

هذا والملاحظ على الكتاب اشتماله على نوعين من الخطأ . . . الأول خطأ مطبعى لا دخل للمؤلف فيه ويمكن تداركه عند إعادة الطبع وهذه الأخطاء وإن كانت لا تخفى معظمها على القارئ العادى فان تداركها فى الطبعة الثانية سهل ميسر فمثلا :

ص ١٣ « تسوق الدفع الثورى » ، وصحتها « تعوق الدفع الثورى » .

ص ٥٢ « وأقدس شيء لديك » ، وصحته « وأقدس شيء لديكم » .

ص ٩٢ « دراك ثورى » بدلا من « إدراك ثورى » . وفى نفس الصفحة « شعب حى أبى عريق » بدلا من « حر أبى عريق » .

ص ١٠٩ « لويس السابع عشر ابن لويس السادس عشر » وصحتها « لويس الثامن عشر شقيق لويس السادس عشر » .

ص ١٢٤ « وردت بأن الجيش سيعمل — بعد أن ظهر — لصالح الوطن ، وصحتها « بعد أن طهر لصالح الوطن » .

ص١٥٤ سطر ٢٠ مكرر، اوالصحيح أن يكون محله « وكان حتما على الجمهورية العربية المتحدة من جهتها أن تضطلع » .

و ص ١٨١ فى السطر الخامس والسادس « وخيله » بدلا من « دخيله » وتوحد تحمى ولا تهدد ، وصحتها « دولة تحمى ولا تهدد » .

و ص ١٢٠ « وفع ما يناسب مصالحها » ، والصواب « وفق ما يناسب مصالحها » .

وغير ذلك من الأخطاء التى كان المؤلف يحرص على تصحيحها بنفسه فى النسخ التى كانت تقع فى يده .

أما من ناحية الأخطاء اللغوية ، فمثلا :

ص ١١ سطر ٤ بكافة محيطاته ، والصحيح أن يقال « محيطاته كافة » .

ص١٢ سطر ١٥ «وضرورة إحاطته بالثورة» ، وصحتها « وضرورة حياطته بالثورة » .

ص ١٤٥ سطر ٧ « مهما كان » ، وصحتها « مهما يكن » .

ص ١٨٩ سطر ١٥ « أتمت مأموريتها » ، والأبلغ أن يقال « أتمت رسالتها » .

ص ٢٠٢ سطر ٥ « فى كافة المجالات » ، يقال « المجالات كافة » .

ص ٢٦٦ سطر ١٧ و ١٩ « تزيد عن ٥٠ فداناً » ، وصحتها « تزيد على ٥٠ فداناً » .

ص ٢٣١ سطر ٤ « أنشئت هيئة التحرير كتجربة » ، والأبلغ أن يقال « تجربة من غير كاف » .

ص ٢٧٢ سطر ٨ « التى كلفت بصياغتها » ، والصحيح أن يقال « كلفت صياغتها » .

ص ٢٨٠ سطر ٧ « أو مرتبطة ببعض » ، وصحتها « مرتبط بعضها ببعض » .

وسطر ١٣ من نفس الصفحة « والوحدات ذات الشخصية » ، والصحيح أن يقال « الوحدات ذوات الشخصية » .

ص ٢٨٦ سطر ١٤ « فى نفس الوقت » ، وصحتها « فى الوقت نفسه » .

وغير ذلك مما يجب تداركه فى الطبعة الثانية .

وقد حرص المؤلف على إبراز أن الشعب المصرى لم يسكت يوماً على ضيم ، وإنما كان دائماً وأبداً ثائراً فى وجه المستعمر ، فهو القاذف بالحمم يوم قاوم الفرنسيين فى أكتوبر سنة ١٧٩٨ حتى طرده من مصر سنة ١٨٠١ ، وعنيد وعنيف يوم قاوم ظلم المماليك بالمطالبة بحقوقه ، ويوم أن خلع الوالى العثمانى وأرغم الباب العالى على الأخذ بهذا الخلع ، ووقوفه فى وجه الغزو الإنجليزى سنة ١٨٠٧ وهزيمة الإنجليز مرتين فى رشيد ، كما يظهر أيضاً يوم واجه عرابى الخديو توفيق بطلبات الشعب وما كان من أمر الاحتلال البريطانى ، ومن تفانى هذا الشعب فى مقاومته فضـل المصريين كافة فى مواجهة القوة الغاشمة ؛ حتى تتابعت الأحداث وقامت ثورتنا الرائدة لتطيح بالظلم والظالمين ليقوم على صرح الظلم والاستغلال والملكية الفاسدة والإقطاع المستغل مجتمع اشتراكى جديد قواعده الكفاية والعدل .

وكذلك حرص على إبراز أخلاقيات ثورتنا التى لم تحرص على أن تنفرد للمصريين بالخير دون غيرهم من الشعوب على حكم ما قامت به ثورات التحرير الكبرى التى تمادت معظمها ونكلت بالشعوب الأخرى ، بل كانت ثورتنا لخيرنا نحن العرب وللسلام العالمى .

ولعل المثل الذى يبرز نبل ثورتنا فى هذا الصدد ما قدرته فور قيامها فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ من أن السودان ينبغى تقرير مصيره وأن تحترم تلك الإرادة وترسل بتاريخ ٢ نوفمبر سنة ١٩٥٢ وبعد ٣ أشهر من قيامها إلى بريطانيا — شريكتها فى حكمه — وجيوشها لا زالت رابضة على أرضنا فى منطقة القنال بمذكرة متكاملة لتقرير مصير السودان وصمودها فى وجه مراوغة الإنجليز حتى ترك للسودان أن يقرر مصيره فاستقل وقامت ثوراته ثمرات احتياجات شعبه وغاياته ! !

ويجب أن نشير هنا إلى أنه لم يتسن لغير الخاصة الحصول على نسخ من هذا الكتاب « ثورة رائدة » بسبب عدم طرحه للبيع ولعل المجلس الأعلى للشئون الإسلامية له شبيه فى هذا النحو بالنسبة لكتبه وهو المجلس الأعلى للفنون والآداب .

ونحن لا ندرى الغاية التى يبتغيها كل من المجلسين من عدم طرح كتبهما فى السوق حتى يتسنى لكل من يحرص على القراءة شراء ما يلزمه من تلك الكتب ! !

هذا فضلا عن أنه إذا قيل بأن بعض الكتب على مستوى معين فى التصوف والفقه والأدب والسياسة ، فان كتاباً ككتاب « ثورة رائدة » وهو فلسفة للثورة وتاريخها وأصولها وجذورها وتبصير بأهدافها ومراميها لا نطمع فقط فى تداوله على

النطاق المحلى ، بل نطمع فى أن يطرح على نطاق قومى إن لم نقل عالمى باعتباره من الكتب ذات الحقيقة العلمية التى تصلح وسيلة من وسائل الإعلام عن ثورتنا الرائدة ، وخاصة للطلاب فى مراحل التعليم كافة الذين يهمهم ويهم معاهدهم الإحاطة بالتاريخ القومى وبالحدث الثورى الذى قام فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ .

ويختم المؤلف كتابه بقوله « هذه هى ثورتنا المباركة وتلك أصولها نبتت جذورها والدهر طفل ، واتصلت حلقاتها على مر السنين وتفاعلت أحداثها مع الأيام » .

« ثورة كانت فى ذلك اليوم على موعد مع القدر إذ تم فيه تفجيرها وبدأ منه امتدادها ثورة تعلم الأحرار فى كل مكان وتناصرهم وتهدى أمتنا العربية وتقود دولها فى معارك التحرير وترسم لها الطريق إلى الخير والسلام » ! !

وبعد ــ فقد كانت هذه الجولة فى كتاب « ثورة رائدة » جولة تاريخية وطنية هادفة عرفنا فيها الكثير عن الثورة وما حققته من انتصارات فى الداخل والخارج ، هذه الانتصارات التى لا يمكن أن ينكرها منكر أو يقلل من شأنها حاقد حتى أصبحت بحق الثورة الرائدة .

ولا يسعنا إلا أن نشكر السيد المستشار محمد أحمد رجب لهذا الجهد المشكور الذى بذله فى إخراج هذا الكتاب الممتع ، وحسبنا أن هذه كلمة رجل القانون الذى يزن الكلمة بميزان الحق والعدل فى ثورة قامت لتحقق مجتمع الكفاية والعدل .

محمد شلبى

● جولة بين الكتب



مكسيم جوركى . . حياته وأدبه

تأليف : أحمد محمد عطية

الناشر : الدار القومية ــ مذاهب وشخصيات ــ ١٥٠ ص ١٧ × ٢٤ سم
ث ٢٠ قرشاً

دراسة جديدة وجيدة لناقد شاب جديد فى حياة الأديب الروسى الكبير مكسيم جوركى وأدبه ، رسم خلالها المؤلف ظروف العصر التى دفعت جوركى إلى أن يكون كاتباً اشتراكياً ، رغم أنه اختلف فيما بعد مع ستالين ، وقد عرض المؤلف لآثار جوركى الأدبية المسرحية والقصصية ورسائله ، مع بيان صلته بكل من كورولنكو وتشيكوف وتولستوى .

أول ثورة على الإقطاع

محمد العزب موسى

إن فى تاريخنا كثيراً من الصفحات ينبغى أن تنشر لأنها كانت مفقودة أو شبه مفقودة بالعمد أو بالإهمال . . وإن فيه صفحات أخرى كانت يد التشويه تعمل فيها عن عمد حقيقى . ولا أحسب إلا أن شبابنا فى مختلف مراحل تعليمه فى أمس الحاجة إلى أن يعرف حقيقة هذا التاريخ لكى يدرك بحق أننا – فى مصر – كنا هدفاً لأكثر من محاولة وضيعة تهدف إلى إفقادنا الكثير مما يقيم أود الأمم وإلى بث الكثير من الأفكار الخبيثة التى تخيل للكثير منا أنها الحقيقة كل الحقيقة .

إن دراسة جادة منصفة لتاريخنا على مر عصور الحضارة ؛ تؤكد بما لا يدع مجالا للشك أن مصر لم تفقد قط حيويتها حتى فى أقسى الظروف التى مرت بها . وأنها لم تكن قط – كما حاول المغرضون أن يثبتوه فى الأذهان – ذلك البلد المستسلم أهلوه إلى مصائرهم وأقدارهم . . والخاضع فى أكثر فترات تاريخه إلى الحكم الأجنبى . . والفاقد لاستقلاله الجانب الأكبر من عمره فى تاريخ البشر .

والدراسة الشائقة التى أوردها كتاب « أول ثورة على الإقطاع » . عمل طليعى فيما أرى . . لعله يحفز آخرين إلى أن يسهموا فى الكشف عن الصفحات الناصعة فى تاريخ هذا الشعب الذى لا يموت . ولعله يكون جهداً طيباً يؤكد أن شعب مصر لا يخلد إلى الاستسلام ولا يركن إلى الخنوع . وإن ما قد يحسبه البعض شيئاً من هذا القبيل فى بعض فترات تاريخه لم يكن إلا دورات حضارة تمتد وتنحسر وتعلو وتهبط . . وفيما بين امتدادها وانحسارها وعلوها وهبوطها يتحفز الشعب أحياناً . . ليعود فينطلق . . ويضرب باسم كل المثل التى عاش عليها الإنسان : الحرية ؛ الكرامة ؛ الاستقلال ؛ الصراع ضد الظلم ؛ النزوع إلى العدالة . . . الخ .

* * *

فى مصر ؛ قامت أول ثورة لشعب من شعوب الأرض قاطبة . . على الإقطاع . ثورة أشارت إليها وثائق يرجع تاريخها إلى أكثر من أربعة آلاف سنة . ثورة لو أنه قد قيض لها – مثلا – رأس مفكر مدبر لكان من المحتمل أن يتغير تاريخ البشرية كلها لما كان لمصر من مركز قيادى طليعى فى حضارات الأمم .

« أمة تحيا خمسة آلاف عام ؛ تستقل فيها ٣٥٠٠ سنة ؛ أى ما يعادل سبعين فى المائة من تاريخها . . أليست هذه حقيقة يجب أن ندقها بالقدوم والمسامير فى رءوس الشباب ؟ » .

هذا الكتاب الذى صدر عن « كتاب الهلال » فى ١٥٦ صفحة من القطع الصغير هو دراسة شائقة لأول ثورة شعبية على الإقطاع فى تاريخ البشرية . لا أدرى : هل أشارت إليها كتبنا الدراسية فى مدارسنا أم أنها أغفلتها . وإذا كانت قد أشارت إليها ؛ فهل وصفتها بما ينبغى أن توصف به أم أنها عدتها من قبيل الأعمال التى يلجأ إليها اللصوص والمخربون فى دولة فقدت قوتها المركزية وسيطرتها الإدارية ؟ !

ما تاريخ هذه الثورة ؟ !

إن الآراء تختلف ، ولكن الأرجح – فيما أخذ به المؤلف استناداً إلى أقوى الحجج – أنها حدثت فى أعقاب الأسرة السادسة فى أيام الفراعنة . وهو يعتمد فى ترجيحه ذاك إلى أن التاريخ المصرى أصيب بانقطاع مفاجئ بعد الأسرة السادسة حيث سقطت مصر فى هوة سحيقة من الظلام والغموض مما يدل على وقوع حادث مفاجئ خطير كان له أثر مدمر على استمرار التاريخ على النحو الذى اطرد عليه منذ ألف عام ، وإنه من المعقول أن يكون هذا الحدث هو الثورة العنيفة المدمرة التى زلزلت أعماق المجتمع المصرى . . هذا إلى جانب أن المنطقى أن تحدث الثورة فى نهاية « عهد الدولة القديمة » بأسراتها المختلفة حيث تختلف طبيعة العلاقة بين الحاكم والمحكوم نتيجة لاختلاف الأوضاع السياسية والاجتماعية .

وتفسير ذلك ؛ أن المصرى فى « عهد الدولة القديمة » كان يدين بالولاء مباشرة للملك . كان المصرى يرى فى الملك إلهاً لا يجرؤ على مناقشة أوامره المقدسة . ولم يكن هناك بين الاثنين وسيط غير عادى فى الحكم . . بل لم تكن هناك قوى أخرى يمكن أن تنازع الملك سيطرته وحكمه . ومن ثم فقد كان الحكم مركزياً



قوياً يعتمد على هيبة الملك المقدسة وعلى سطوة القوانين العادلة التى لم تكن تفرق بين كبير وصغير . . فالكل رعايا متساوون للملك ؛ والملك وحده هو الكبير عليهم جميعاً . ولكن الأمور كان لا بد وأن تختلف عندما بدأ الضعف يسرى إلى الحاكم المركزى المهيب (الملك) نتيجة ازدياد نفوذ الأمراء من حكام للأقاليم ومن الاقطاعيين الذين كان الملوك يقطعونهم الأرض مكافأة لهم على خدمات معينة ، حين ازداد نفوذ هؤلاء وأصبحوا فى أقاليمهم وإقطاعياتهم ملوكاً صغاراً ؛ كان لا بد أن يتسلل الظلم ، فكل واحد منهم فى سبيل دعم مركزه وقواه كان لا بد من أن يحيد عن العدل وأن يظلم الشعب وأن يستغله ويسخره . . ومن ثم فقد نشأت فى المجتمع المصرى طبقتان متميزتان لا وسط بينهما : طبقة الاقطاعيين النبلاء بثرواتهم وسطوتهم وظلمهم ، وطبقة المسحوقين . . وهم غالبية أبناء الشعب .

الدولة القديمة :

إن « الدولة القديمة » التى تبدأ مع بداية الأسرة الأولى وتنتهى بسقوط الأسرة السادسة . . والتى استمرت تحكم مصر خمسمائة عام تقريباً ؛ هذه الدولة كانت نموذجاً رائعاً للحكم الفرعونى الناضج فى كل المجالات ؛ السياسة والحكم والاقتصاد والفكر والعلم . وكان « فرعون » فى هذه الدولة هو مركز الحياة الاجتماعية والسياسية والفنية . . ولم يكن قصره الذى يسمى بالبيت الكبير مجرد مقر للحكم ؛ بل كان مركزاً حضارياً تشع منه كافة الاتجاهات إلى كل أرجاء البلاد كما يرسل القلب النابض دماءه الحارة إلى أطراف البدن . . وكان هذا البيت قوياً وعادلا ، وكان الشعب ينعم بالاستقرار والرخاء والعدل .

« والمؤكد أن مصر لم تعرف نظام الرق فى عهد الدولة القديمة كما لم تعرفه

فى تاريخها كقاعدة عامة . وكان العمال الذين يشيدون قبور الملوك والعظماء أحراراً يتقاضون أجراً على خدماتهم » . . . فالقانون كان يؤكد حق أولئك فى الأجر العادل على أعمالهم ، لأن القانون المصرى فى ذلك الوقت كما يورد المؤلف فى رأى للدكتور شفيق شحاته فى مؤلفه « تاريخ القانون الخاص فى مصر » . . . « كان ممعناً فى النزعة الفردية ولم يكن يقر نظام الرق ؛ وكان الناس على اختلاف طبقاتهم يولدون ويموتون أحراراً لا فرق فى ذلك بين عامل أو صانع أو زارع أو وزير أو عظيم » . . . كذلك فإن عقائد المصريين فى « الدولة القديمة » كانت تدل بدورها على عقلية متفتحة لا تستقيم معها فكرة الاستعباد والقهر ؛ بالإضافة إلى كثير من القواعد الأخلاقية التى تشيد بفضائل الصدق والشجاعة والعدل .

من هنا كانت حضارة مصر فى عهد الدولة القديمة حضارة مستقرة متناسقة استطاعت أن تقتحم لأول مرة ميادين جديدة من التجربة الإنسانية وأن تنشىء نظاماً سياسياً مستقراً استمر زهاء ألف عام . وإذا كانت قد وجدت فى هذا المجتمع طبقات فلم تكن طبقات مغلقة ، بل كان من اليسير للفرد مهما كان أصله متواضعاً أن يصل بعمله وكفاءته إلى أعلى المراتب . . ومن ثم لم تكن روح ذلك المجتمع تعبر عن الحقد والغضب مما يدل على عدم الشعور بالظلم والكبت والهوان وغيرها من المشاعر التى بدأ الناس يشعرون بها بعد ذلك عندما دب الفساد فى كيان الدولة وظهر الإقطاع . .

عصر الإقطاع :

ويكاد يتفق علماء المصرولوجيا على أن الأسرة السادسة هى الحد الفاصل من الناحية السياسية بين العصر الفردى والعصر الإقطاعى ، وذلك لأن عوامل التفتت كانت تقوم بدورها فى الداخل نتيجة ضعف القوة المركزية ونتيجة السلطات المستقلة التى أعطيت لحكام الأقاليم ، ونتيجة التطور الاقتصادى الخطير الذى كانت سمته الكبرى ظهور الملكيات الزراعية الشاسعة التى تتمتع بالإعفاء من الضرائب والتى كان الفراعنة عندما ينتهون من بناء أهراماتهم يمنحونها كبار موظفيهم الذين أشرفوا على عمليات البناء . هذا بالإضافة إلى سطوة الإقطاع الدينى الذى تمثل فى إقطاعيات كهنة رع . وقد وصل الضعف بالسلطة المركزية إلى الحد الذى كان يجعل الملك يتقى شر هؤلاء الاقطاعيين وينشد ودهم للحصول على تأييدهم . وأصبح الحاكم الصغير أو الإقطاعى بمثابة ملك صغير فى إقليمه له بلاطه الخاص وخدمه وحشمه وجيشه . . وبدأ يسمى نفسه بالسيد العظيم أو القائد العظيم ولا يقيم قبره إلى جانب قبر الملك فى العاصمة ؛ وإنما يقيمه فى إقليمه تأكيداً لاستقلاله الذاتى .

وكان حتماً إذن أن تتغير العلاقات الاقتصادية والاجتماعية نتيجة التغيير الشامل الذى تعرضت له كل نواحى الحياة فى مصر فى نهاية الدولة القديمة . وكان حتماً أيضاً أن تتحول النظم القانونية الاجتماعية من الفردية إلى الجماعية الإقطاعية . وبعد أن كان الفرد يرى نفسه عضواً فى مجتمع مفتوح للدولة كلها بغض النظر عن الفئة أو الطبقة ، أصبح عضواً فى مجتمع إقطاعى مغلق . . وكان الفلاح المصرى هو بالطبع الضحية الأولى لهذا التغير الذى حدث ؛ « ولأول مرة تبدو فى نقوش تلك الفترة من تاريخ أواخر الدولة القديمة صورة المالك ممسكاً بالعصا يؤدب بها الفلاح أو جباة الضرائب يسحبون الفلاحين على وجوههم إلى قصر السيد ليلقوا جزاء تقصيرهم فى دفع ما عليهم من أموال . . » ذلك أن عهد الإقطاع هذا قد غير من طبيعة العلاقة بين المالك والفلاح ؛ فقد أصبح الأخير جزءاً من الأرض التى كان يملكها الاقطاعى ، وكان للإقطاعى الحق فى أن يبيع الأرض بكل ما عليها من منشآت ومواش وعمال ومستأجرين . وكذلك كان الحال بالنسبة للصناع وأصحاب المهن والحرف ؛ فقد كانوا هم أيضاً تابعين للمالك ومرتبطين بالأرض لا يستطيعون الفرار من أسوار طبقتهم ومهنتهم ، بل إن خصائص هذا المجتمع الإقطاعى انعكست فى الأسرة ذاتها باعتبارها خلية المجتمع فأصبح أفراد الأسرة جميعهم يخضعون خضوعاً فعلياً وقانونياً لرب الأسرة وأصبحت ثروة الإقطاعى وسلطاته تنتقل بعد وفاته إلى الابن الأكبر الذى يباشر كل سلطات الأب على إخوته وأولاده .

وفى هذه الفترة من تاريخ مصر ؛ تعرضت البلاد لخطر الغزو الخارجى حين بدأت القبائل البدوية المتربصة على أطرافها تغير عليها متشجعة بإمارات ضعفها الداخلى وطمعاً فى خيراتها وثرواتها . .

والأغلب الأمر أن الأمور وصلت إلى ذروة التفسخ والتمزق خلال حكم الملك « بيبى » الثانى الذى حكم ٩٤ عاماً متواصلة هى أكبر مدة حكم فى تاريخ البشر . والأغلب أيضاً أن أول ثورة على الإقطاع فى تاريخ البشر حدثت قبله وبلغت ذروتها خلال فترة حكمه . ومما لا شك فيه أن هذه الفترة من التاريخ شهدت « صراعاً دينياً عنيفاً بين كهنة « رع » المسيطرين على الحكم وكهنة إله آخر ناشىء قوى هو الإله بتاح ومركزه منف . وكان بتاح من أقدم الآلهة المصرية ولكنه ظل حتى ذلك الحين تحت هيمنة « رع » . وفى عهد الأسرة السادسة أصبح بتاح هو إله أصحاب المهن والحرف الذين بدءوا يظهرون كقوة مؤثرة فى المجتمع ؛ وأخذوا يطالبون بحقوقهم المهضومة فى ذلك العهد الإقطاعى المتقدم » .

الثورة :

إن أحداث هذه الثورة الشعبية

العارمة حفظت لنا فى وثيقتين : الأولى هى « نبوءات الحكيم إيبور » وتعرف بورقة « ليدن » (وهى محفوظة فى متحف ليدن بهولندا) ؛ والثانية هى « بردية روهو » وهى محفوظة فى متحف لينينجراد بالاتحاد السوفييتى . والوثيقة الأولى كتبت فى عهد الأسرة الحادية عشرة نقلا عن أصل أقدم منها تناقلته ألسنة الرواة . . أما الوثيقة الثانية فقد كتبت بصفة مؤكدة فى الأسرة الحادية عشرة وفى عهد الملك أمنمحات الأول بالذات لأن اسمه ورد فيها كنبوءة عن ملك عظيم سيأتى لتخليص مصر من الفساد . . والوثيقة الأولى كتبها الحكيم « إيبور » الذى يبدو واضحاً أنه كان من أشد الحاقدين عليها المتوجسين منها خيفة . وبرغم أنه صورها فى بعض أقواله كأنها ثورة لصوص وقطاع طرق ، إلا أن وصفه الدقيق البديع لها يؤكد أنها كانت ثورة شعب تمرد على الظلم والفساد والطبقية الجائرة . ومن المؤكد أن هذه الثورة قلبت أساس الصرح الاجتماعى القائم على القيم الإقطاعية الخانقة للأنفـــاس وأنها تركت أثراً واضحاً فى التفكير والقيم فى عصرها وما تلاه من العصور .

« ولا أحد يدرى على وجه اليقين متى أو كيف قامت الثورة » . . وإن كان واضحاً من نصوص وثيقة « الحكيم إيبور » أنها كانت عامة اشتركت فيها مختلف طوائف الشعب وقطاعاته « حتى أصحاب أهدأ الحرف كبائعى الحلوى وصانعى الجعة » . . وأن الثورة كانت شاملة أطاحت بنظام الحكم فى البلاد وهدمت أسس المجتمع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية ، وأنها كانت ثورة طبقية بكل معنى الكلمة قلبت أوضاع المجتمع رأساً على عقب وأطاحت بالامتيازات الاجتماعية على اختلاف أنواعها . ومن المؤكد أيضاً أن هـــذه الثورة أدت إلى انهيار الحكومة بكل أجهزتها ودواوينها ومحاكمها وكان من الممكن أن ينشأ حكم جديد مغاير تماماً لكل ما سبق أن عرفته مصر لو أن هذه الثورة وجدت من يقودها قيادة واعية .

حطمت الثورة إذن جهاز الحكم . . وفى هذا يقول الحكيم ايبور :

« انظر . . لقد هوجمت الإدارات العامة ونهبت قوائمها وأذيعت أسرار التعاويذ السرية وصارت عديمة الأثر . . ولم تعد لكبار الموظفين كلمة مسموعة » .

بل إن القصر الملكى نفسه – رمز النظام الحاكم القائم – لم ينج من المصير :

« انظر . . لقد تجاسر بعض الثائرين فحرقوا البلاد الملكية وأصبح الناس يظهرون العداء للملك . . » .

وكان حتما أن يختل الأمن : « لقد امتلأت البلاد بالعصابات حتى ليذهب الرجل إلى الحرث حاملا درعه » . . . « إن الرجل ليذبح بجوار أخيه فيتركه وحيداً لينجو بنفسه . . » . . « لقـــد أتلفت دفاتر جباة الضرائب وأصبحت غلال مصر ملكاً مشاعاً » . . « إن المقاطعات لا تؤدى الضرائب بسبب الحروب الداخلية ، وهناك حاجة إلى الفاكهة واللحم وكل أنواع التجارة وكل ما ينتجه الصناع ؛ فما فائدة وجود بيت مال بدون دخل ؟ » .

ولقد كان حتماً أن يكون لهذه الثورة نتائجها وهى بلا رأس مفكر يديرها . . كان حتماً أن يعم الخراب والدمار والجوع . . ولكن المؤكد أن أكبر جانب من هذا حل بالأغنياء الاقطاعيين المستبدين بالشعب . فقد كان أول هم الجماهير الثائرة أن تنتقم من جلاديها . . ومن ثم فقد أنزل الشعب أشد العقاب بطبقة الإقطاعيـــين الأغنياء :

« أصبح الحزن يملأ قلوب أصحاب الأصل الرفيع ، أما الفقراء فقد امتلئوا سروراً . وأضحت كل بلدة تقول : فلنقص أصحاب الجاه من بيننا » .

وبرغم ما تتسم به عبارات الحكيم « ايبور » من محاولة لوصم هذه الثورة بالتلقائية الهمجية ؛ فإن وصفه لما حدث يؤكد أن الثورة بدأت واعية وموجهة بالذات ضد الحكام والأثرياء :

« إن الحكام أصبحوا جياعاً وفى بؤس شديد » .

« إن قضاة البلاد قد طردوا من طول الأرض . طردوا من بيوت الملك . وإن رؤساء البلاد يهرولون دون أن يكون لهم عمل » .

« إن الأرض أصبحت مـــلأى بالعصابات ؛ والرجل العظيم يغتصب التعساء متاعة ؛ وصارت المخازن خاوية وحراسها يلقون على الأرض » .

ومن الطبيعى أن يحدث انقلاب فى الموازين بعد ثورة كهذه تهدف إلى الانتقام من طبقة مستغلة ظالمة . . من الطبيعى أن يتمتع التعساء والمنسحقون بما كان يتمتع به الأثرياء الاقطاعيون .

« لقد أصبح المعوزون يملكون الآن أجمل الأشياء ؛ ومن كان يرتق نعليه فيما مضى أصبح صاحب ثروة » .

« إن من لم يكن فى قدرته أن يصنع لنفسه تابوتاً . . أصبح يملك قصراً » .

« إن من لم يكن فى قدرته أن يقيم حجرة ؛ أصبح الآن يملك فناء مسوراً » .

« إن الرجل الغنى أصبح يمضى الليل وهو ظمآن ومن كان يستجدى منه الحثالة أصبح يملك الآن الجعة الجيدة » .

« إن أولئك الذين كانوا يملكون الملابس أصبحوا فى خرق بالية ؛ ومن كان لا ينسج لنفسه أصبح يملك الكتان الجميل » .

« إن من لم يكن يملك قارباً أصبح

الناشر : دار الهـــلال
٢٥٦ ص ١٤×٢٠ الثمن ١٠ قروش

يملك الآن سفناً . . وأصبح صاحبها ينظر إليها كدا بعد أن لم تعد ملكاً له . . » .

« إن من لم يكن يملك ثوراً أصبح يملك قطعانا . . ومن لم يكن يملك حفنة قمح أصبح يملك أجرانا . . » .

« إن الأصلع الذى كان لا يستعمل الزيت أصبح يملك أوانى العطور الذكية » .

« إن من كانت تشاهد وجهها فى الماء أصبحت صاحبة مرآة . . » .

« إن من كان يجهل العزف على العود أصبح يملك قيثاراً . . » .

« إن الذين كانوا ينامون على الأسرة أصبحوا يرقدون على الأرض ، والذى كان ينام فى الأوساخ أصبح يملك سريراً » .

ليس هذا فحسب ؛ بل إن الثورة شهدت انقلاباً خطيراً فى الفكر المصرى القديم الذى يتميز فى كل عصوره بقوة الإيمان الدينى :

« صار الرجل الأحمق يقول : إذا عرفت أين يوجد الإله قدمت له القرابين » . .

موجة من التشكك والإلحاد وعدم الخوف من الآلهة سادت الناس . . هى ثورة إذن بكل ما فى الكلمة من معنى . . ثورة شعب انطلق يحطم أغلاله التى كبله بها الاقطاعيون والأثرياء . .

هذا ما أوردته الوثيقة الأولى . أما وثيقة « روهو » فإنها لا تتعرض لأحداث الثورة نفسها بقدر ما تتعرض لآثارها الفكرية والسياسية والاجتماعية . ثم هى تتحدث عن ملك يجىء ليعيد لمصر وحدتها وتماسكها . فهى أشبه بالنبوءات الدعائية ، كان المقصود بها فى أغلب الظن التمهيد لمجىء « أمنمحات » لكى يعيد إلى البلاد النظام فى ظل فكر اجتماعى جديد .

* * *

إن مؤلف الكتاب بعد أن تحدث عن هذه الثورة ؛ تحدث عن أسباب فشلها فى أن تحدث أثراً مباشراً . . وأرجع ذلك إلى أن المجتمع وقتها كان يفتقر إلى طبقة وسطى يمكن أن تمثل القيادة الواعية بالنسبة للثورة كما يحدث عادة فى كل الثورات الناجحة . « لقد كان من الممكن أن تخطو الثورة الشعبية الفرعونية ضد الإقطاع خطوة أبعد مما خطته الثورة البورجوازية الفرنسية وتصبح ثورة شعبية بروليتاريه كالثورة البلشفية مثلا لو تهيأت لها قيادة منظمة واعية ولكن ذلك كان مستحيلا تماماً فى ذلك العصر السحيق الذى لم ينضج فيه الفكر السياسى والتجربة السياسية . ولذلك افتقدت تلك الثورة العارمة القيادة والتنظيم وأصبحت مجرد انفجار مروع لحالة من الكبت الاجتماعى العنيف » .

على أن هذه الثورة كانت لها نتائجها الحاسمة فى الحياة الاجتماعية والسياسية والفكرية فيما بعد . . فقد انهار النظام السياسى الذى أغفل الأسس السياسية ، فى ذروة عظمة الدولة القديمة . وبدأت سلسلة من الصراعات خلال فترة حكم الأسرة ، السابعة والأسرة الثامنة . . ثم خلال فترة حكم الأسرة التاسعة فى أهناسيا . . وكذلك خلال فترة حكم الأسرة العاشرة فى نفس المكان . . حتى بدأت الأمور تهدأ وتستقر خلال حكم الملك « مريكارع » حتى بلغت ذروة الاستقرار والهدوء خلال حكم ملوك الأسرة الحادية عشرة انتهاء بأمنحوتب الرابع الذى خلفه « أمنمحات الأول » رأس الأسرة الثانية عشرة الذى تمكن نهائياً من القضاء على سطوة الحكام الاقطاعيين المحليين بعد أن نجحت الأسرة الحادية عشرة فى تشذيب أطماعهم والحد من طموحهم . .

. . وهكذا بعد حوالى ثلاث قرون من سقوط الدولة القديمة وقيام أول ثورة شعبية فى التاريخ . . استطاعت مصر أن تطرح عن كاهلها أثقال الاقطاع وتحقق الوحدة الوطنية مرة أخرى لتعود الحضارة المصرية سيرتها الأولى من الارتفاع والازدهار .

على أن الثورة لم تنجح فحسب فى تغيير القوى السياسية والعلاقات الاجتماعية ولكن آثارها امتدت إلى الفكر المصرى نفسه ، حيث كان هناك إحساس قوى بالمجتمع وبنقد الأحوال الاجتماعية القائمة فى أسلوب صريح وواضح . وحيث هدمت الثورة الصرح المثالى للمجتمع فجاءت بأفكار مادية لم تكن معروفة من قبل . . ويمكن أن نصف هذه الأفكار — بحق — بأنها أقدم مظهر للفكر المادى فى تاريخ البشرية ؛ فقد بدأ العقل البشرى يتمرد ويشك . . وكان هذا دليلا على وصوله إلى مرحلة من الوعى تتيح له التساؤل وغربلة العقائد المقدسة المتوارثة . . هذا بالإضافة إلى روح النقد المرير لكل ما هو جائر وظالم فى مثل ما يبدو فى شكوى الفلاح الفصيح للملك « مريكارع » من الظلم الذى وقع عليه من أحد النبلاء . . وبالإضافة أيضاً إلى دخول أفكار المساواة بين البشر فى صلب العقائد الدينية : حيث يقول « رع » مثلا فى أحد نصوص التوابيت :

« لقد صنعت الرياح الأربعة من أجل أن يستطيع كل إنسان أن يتنفس مثل أخيه أثناء حياته » .

« لقد خلقت كل إنسان مثل أخيه » .

« لقد خلقت الأنهار العظيمة كى يستخدمها الفقير والسيد العظيم » .

* * *

هذه إذن . . كانت أول ثورة شعبية فى تاريخ البشر . . ترى ، كم « واحداً » من أبنائنا فى مختلف معاهدنا العلمية ، يعرف أن أجداده كانوا أول من عرف الثورة على الظلم ؟ كم واحداً منهم يعرف أن هذه الثورة سبقت الثورة الفرنسية والثورة البلشفية بأربعة آلاف سنة ؟ ! . . وأخيراً ؛ فكم واحداً منهم يعرف عن يقين وتاريخ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . . أن شعب مصر لم يستكن قط لظلم . . ولا استنام لظالم ! !

سعد زغلول نصار

الذى يأتى ولا يأتى ..

شعر : عبد الوهاب البياتى

الناشر : دار الآداب ببيروت
٩٤ ص قطع صغير ٤٠ قرشا

صدر فى بيروت والقاهرة فى وقت واحد كتابان للشاعر عبد الوهاب البياتى ، الأول ديوان « الذى يأتى ولا يأتى » والثانى « مأساة الإنسان المعاصر فى شعر عبد الوهاب البياتى » ، والكتاب الأول مجموعة من القصائد يؤلف بينها الشاعر فى وحدة قوامها الحياة الباطنية لعمر الخيام ، والكتاب الثانى مجموعة من المقالات تدور كلها حول شاعرية البياتى ، ومنها مقالات لمستشرقين مثل « كارل بتراجك » و « بير روسى » ، وشعراء شرقيين مثل « ناظم حكمت » ، ونقاد من مصر وسوريا ولبنان والعراق .

ويقدم البياتى لديوانه بكلمة يأخذها من الأديب المفكر « ألبير كامى » . يقول « كامى » أو البياتى « كل فنان يحتفظ فى أعماقه بينبوع فريد يشكل مصدر تصرفاته وأقواله طوال حياته . إن هذا الينبوع بالنسبة إلى يظل أبداً ذكريات عالم البؤس والضوء الذى عشت فيه لفترة طويلة » .

ويبدو أن « ألبير كامى » يؤثر تأثيراً عظيماً على البياتى وفكره ويصوغه بإحكام فى كثير من الأحوال ، ويلاحظ ذلك « بير روسى » فى مقاله المنشور فى الكتاب الثانى والذى أعطاه عنوان « الزمن الضائع والوحدة فى شعر البياتى » حيث يقول إن « الصيغة الشعرية « لدى البياتى « تحمل التأثير الواضح جداً للشعراء الفرنسيين : أراجون وإلوار اللذين مع هوجو وبودلير ورامبو يبدون أساتذة المدرسة الشعرية الحديثة فى العراق ، بينما تعكس هذه المدرسة تيهان الوجوديين . إن « جان بول سارتر » وخاصة « كامى » أثرا بعمق فى الشباب العراق منذ أول وهلة ، فأسطورة « سيزيف » اليائسة التى هى موضوع قصيدة « فى المنفى » يمكن أن تكون القصة الحقيقية لهذه الشبيبة التى تفتش عن إيمان والتى أصيبت من أول انطلاقها بعبث وبطلان هذا العالم » .

« وإذا كان أراجون وإلوار قد أثرا على البياتى الفنان فإن الوجوديين وخاصة « كامى » قد أثروا على البياتى المفكر ، ويعنينى هنا بصفة خاصة أن أتتبع هذا الأثر الفكرى ، لأن البياتى بالتبعية له تأثيره الضخم على شبيبة الشعراء فى البلاد العربية ، وهناك مجموعة ضخمة منهم تقلده تقليداً ، وهذا الخط الفكرى الذى يشقه البياتى فى بناء التراث العربى الفكرى ويرسخه فى شبابنا يهمنا أن نتعرف عليه ونشير إليه ، إذ الواقع أنه عمل عظيم وما كان من الممكن أن يضطلع به شاعر آخر سوى البياتى ، اضطرب أضطرابه بين البلاد العربية وتنقل فى ربوع أوروبا وقرأ بمختلف اللغات وتوغل فى التراث العربى وطاف بأركان الفكر الأوروبى ، وعانق أحر مذاهبه ، وعرف عنه يوماً أنه ماركسى العقيدة ، ثم اشتهرت عنه كلمات شجاعة فى الوجودية والمدارس الأدبية والفنية التقدمية . »

وكما يشير « بير روسى » إلى أهمية الفكر الأوروبي على شباب المفكرين العراقيين فإن هذا الفكر كان له أثره على كل المشتغلين بالحركة الفكرية فى بلادنا العربية . والبياتى يعتبر من جيل ما بعد الحرب العالمية الثانية ، وعراقه شهد عرمة هذه الحرب واصطلى بنارها ، وانبثق البياتى مع الحركة الوطنية وتفتح وعيه التاريخى على المقالات الثورية ، ومع الفكر الثورى الذى اجتاح أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية أشربت روح البياتى الثورة الفكرية ، والبياتى من مواليد عام ١٩٢٦ ومن خريجى دار المعلمين العالية سنة ١٩٤٩ ، ولقد أمسك بالقلم قبل ذلك وحاول أن يشق به لنفسه طريقاً إلى قلب الحقيقة . أين الحقيقة ، وما هى ؟ هل هى واقع حى باب الشيخ الذى ولد فيه ، أم هى ما تتحدث عنه الصحف العميلة عن أبهة فى العراق متمثلة فى أسرته الملكية وأرستقراطيته ؟ أم أنها الحقيقة التى ترويها بريطانيا فى كتب التاريخ التى تدرس بالعراق والتى حفظها البياتى عن ظهر قلب ؟ أم هى مع هذه النخبة القليلة التى تخفى بين طيات ثيابها كتباً تحكى عن عدالة مطلقة تظل كل الناس بظلها والتى تنضوى تحت اسم ديموقراطى اجتماعى شعبى لحزب لا يدين بالولاء للملك أو الإنجليز أو الباشوات ، وإنما يتجه رأساً إلى الشعب العامل ؟

الواقع أن البياتى كان متجهاً بكليته لكل حركة تقدمية ، يستوى فى ذلك مع « بدر شاكر السياب » و « محمد مهدى الجواهرى » . وانشغاله بها كحركة ظهرت فى مجلة الثقافة الجديدة التى أصدرها مع آخرين ، ودفعت حكومة نورى السعيد إلى اعتقاله ، ثم اضطر بسببها البياتى والسياب وغيرهما إلى مغادرة العراق إلى غير العراق ، فاضطرب مع المضطربين فى سوريا ولبنان ومصر ، ثم ارتحل من بعد إلى الاتحاد السوفيتى . . مما يجعلنا نعتقد أن هوى البياتى كان مع الماركسية دون سواها . ولقد اشتغل البياتى بعد انهيار الملكية فى بغداد ملحقاً ثقافياً فى موسكو ثم اختلف مع قاسم فاستقال وظل بموسكو وعمل مدرساً بمعهد شعوب آسيا وأفريقيا التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية .

غير أن المهم فى كل هذا التاريخ الحافل أن البياتى فى ديوانه الأخير « الذى يأتى ولا يأتى » قد تجاوز فى ظنى هذه المرحلة العقائدية ودخل مرحلة جديدة يمكن أن أطلق عليها اسم المرحلة الإنسانية ، وهى مرحلة أرحب وأكثر اتساعاً وشمولا ؛ وعموماً فقد تنقل البياتى فى خط نستطيع أن نميز فيه ثلاث محطات ، الأولى رومانسية أنتجت ديوان « ملائكة وشياطين »، والثانية أيديولوجية ماركسية أنتجت «سفر الفقر والثورة» ، والثالثة تتداخل فى الربع الأخير من المرحلة السابقة ونقرأ له فيها ديوانه الحالى « الذى يأتى ولا يأتى » .

ونحن نتساءل ما هو هذا الذى ينتظره البياتى ؟

إن العنوان يحمل شبهاً قريباً من مسرحية للكاتب الأيرلندى الفرنسى صامويل بيكيت « فى انتظار جودو » حيث ينتظر ڤلاديمير واستراجون جودو الذى يأتى ولا يأتى فى كل العصور . ويبدأ ڤلاديمير المسرحية قائلا « لقد بدأت أخيراً أقتنع بهذا الرأى . كنت طيلة حياتى أحاول أن أبعده عن نفسى وأقول ، ڤلاديمير ، كن عاقلا ، إنك لم تجرب بعد كل شيء ، ثم استأنف النضال . . » . والبياتى يقول :

لا بد يا سقراط
أن نجد المعنى وأن نمزق القماط
لا بد أن نختـــار
. . . .
أن نجد المعنى وراء عبث الحياة
فالعيش فى هذا المدار المغلق انتحار

وهذا الذى ينتظره البياتى ، أو الذى يسعى إليه سعياً قد ارتحل من أجله إلى بلاد كثيرة ، فقد طوف حتى نهر الڤولجا ،وسافر حتى شمال الروسيا ، وركب إلى اللوار وعبر السين والتايمز من أجله ، وسار عبر السطور إلى جوف التاريخ يقرأ المدنيات القديمة والفلسفات التليدة ، ويكتب

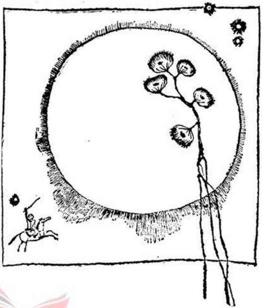
ديوانه من ثمانية عشر جزءاً ، كل جزء منه سفرة قائمة بذاتها . ألا يشبه هنا كانديد ڤولتير الذى يتنقل بين ربوع الأرض وراء الحقيقة المولية ، وأخيراً يتبين له أن لا حقيقة هناك خارج الإنسان ، وإنما الحقيقة الوحيدة أن الإنسان الباحث عن الحقيقة موجود وأن فعله هو وجوده ، وكأنه يريد أن يقول « إنى أفعل فأنا موجود » وڤولتير فى كانديد يقول « إنى أزرع فأنا موجود »

يقول البياتى :

ولدت فى جحيم نيسابور
بثمن الخبز ، اشتريت زنبقاً ؛
بثمن الدواء
صنعت تاجاً منه للمدينة الفاضلة البعيدة
. . . .
نمت على الأرصفة الغبراء
. . . .
كلمت نجمة الصباح ، قلت : يا صديقة
أتزهر الحـــديقة ؟
وتولد الحقيقـــة ؟
. . . .
أبحرت السفينـــة
تبحث فى الأصقاع عن مـــدينة
لم يقف الشحاذ فى أبوابها يوماً ولم يسند على رصيفها جبينه
لكنما السفينـــة
عادت مع المســـاء للمدينة
تحمل فوق ظهرها الشحاذ
مقوس الظهر ، بلا عيـــون
الجثث المبقورة البطون
تسد هذا الشارع الملعون
متى ؟ متى أيتها الشمطاء
ستمطر السماء !
وتولد الحقيقـــة ؟
من هذه النفاية الغريقة !

والمعنى هنا واضح تماماً ، إن البياتى ولد ولم يكن يدرى شيئاً من أمر الدنيا ، وتفتح وعيه على جحيمها ، ولكنه أمل ، وكان يسهد يناجى النجوم ، ويجرى خلف الفراشات ، ويتمنى لو يعرف هذه الحقيقة ، وعندما اشتدت به رغبته ركب السفينة واشتهى أن يلقى مدينة ليس بها شحاذ ، ومضى العمر وولت السنون ورجع مقوس الظهر محطم النفس ولما يعثر على الحقيقة . هذه الصورة التى يرسمها البياتى هى صورة كانديد والمجموعة التى انتهى بهم تطوافهم إلى استنبول وإلى أن « الفلسفة جوفاء » كما يقول البياتى ، وإلى أن أبرع ما يمكن أن يفعلوه أن يزرعوا حديقتهم . . والبياتى يزرع حديقته بأن يكتب الشعر ، وفعل الوجود عنده هو نظم القيصد . .

شعرى جـــواد جامح
يعـــدو بفارسه الحزين
نحو الينابيع البعيدة
فى الجبـــال
بفارس الأمـــل الحزين



وهو يقول فى ديوانه « النار والكلمات » :

يا شعر حطم هذه الأوثان
واقتحم الخطوب
وتعــال نرتاد البحار
ونجتــلى نجم الشعوب
أنا ذاهب كى أقرع الأجراس
كى أطأ اللهيب

ولو حللنا الأجزاء الثمانى عشرة التى يتألف منها الديوان سوف نجد الجزء الأول « صورة على غلاف » بمثابة الافتتاحية التى تقدم للديوان . إنها النغمات الأولى التمهيدية أو ما يسمى prologue وسوف نعثر فيها على الكلمات التى تعد بمثابة مفاتيح الديوان . والجزء الثانى يعنونه « الطفولة » وهو الجزء الذى يحكى قصة السفر وراء الحقيقة والعودة بوفاض خال . ويسمى الجزء الثالث « الليل فوق نيسابور » وهو جولة عبر التاريخ نلتقى فيها بنيسابور وقد دخلها كل الغزاة ومرت بها كل الأحوال ، ومع ذلك ظلت نيسابور هى نفسها والبشر يولدون من زبد البحر . حتى إذا كان الجزء الرابع وجدنا الخيام يعب الخمر ويرجع الأمور وتصاريفها إلى الأقدار . .

أصابك السهم فلا مفر يا خيام
ولتحسب الديك حماراً ، إنها مشيئة الأيام

ويسمى البياتى الجزء الخامس « طردية » وهى القصيدة التى يقولها الشعراء عند تأهب الملوك والغزاة للصيد والقناص ، ولكن شاعر هذه الأيام « فقير جواب » « ينام فى الأبواب ويمد يديه فى الظلام ويقرأ التقويم بالمقلوب بحيلة المغلوب » . ويكبر الخيام فى الجزء السادس « الموتى لا ينامون » « ويشيب شعره ويموت فى داخله النهر وتقترب من شاطئه سفينة الموتى » . أفيكون الموت نهاية الحياة ؟ أبداً فعائشة رغم أنها تموت ، إلا أنها تقول له « الوداع أراك بعد الغد

فى المقهى » ، وهو ينثرها من بعد مع الرؤى والورق والأعوام لتوقظ النهر الذى مات فى داخله ويشيع النور فى ليل نيسابور .

وينتظر الخيام المعجزة : أن تنبت البذور التى بذرها فى الأرض ، أن يرى الثرى المنشور . ويسمع بكاء تحت الحائط ، ويتساءل عن الباكى ؟ عن الذى يأتى ولا يأتى ؟ « من كان يبكى تحت هذا السور ؟ لعلها الريح التى تسبق من يأتى ولا يأتى » .

وييأس من الانتظار ، فيتجه ببصره إلى الماضى ويوغل فى التاريخ القديم ويطلب الأسطورة (الجزء ٩) لعل فيها النجاة أو الخلاص، لكن حتى عشتار ظلت مجرد « رسم على الجدار مقطوعة اليدين يعلو وجهها التراب والصمت والأعشاب ، وحجراً أخرس فى الخرائب الكئيبة » .

ويتجه فى رحلته إلى الدين (بكائية الجزء ١٠) لعل فيه الخلاص ، ويطرق باب عالمه مرتين ، ولكن حارسه يمد له يدين ويسأله من أين ويقرأ له المحجوب : « عائشة ليست هنا ، ليس هنا أحد ، فزورق الأبد ، مضى غداً وعاد بعد غد ، عائشة ليس لها مكان ، فهى مع الزمان ، فى الزمان » .

وعندئذ يعصف به الشك وتدوى من حوله الوحدة فيزعق منادياً « رباه » ، ويطول الليل وتطول الحياة ، وهو ما يزال ينادى ربه « ويسأله شمسه فهو الذى يحى الحجر الرميم ويشعل الهشيم » . (الجزء ١١) .

فإذا كانت الحياة عبثاً ولا رجاء فيها والسماء صامتة لا تجيب فكيف يكون الخلاص ؟ ليس إلا الموت . . (الجزء ١٢) .

ولقد مرت الإنسانية بحضارات وتطورات وعانت ألماً وظلماً وجهلا ومرضاً لكى تخرج من هذا كله بحضارة القرن العشرين ، فإنسان القرن العشرين هو وريث هذا المجد كله . . مع ذلك فقد جف فى عيون بوذا النور .. وحفيد هوميروس فى مدريد (لوركا) يعدم رمياً بالرصاص ، ومات المغنى . .

وريث هذا العالم المدفون فى أعماقنا يموت

. . . . . .

وريث هذا العالم الإنسان

. . . . . .

وريث هذا العالم المدفون فى الأعماق
يلهث مهزوماً على قارعة الطريق
يحمل وجه هالك غريق
ينام فى المقهى ، ككلب جائع ، أفاق
يبحث عن وظيفة شاغرة فى صحف الصباح
يعــدو بلا أقــدام
فى الشارع المهجور والزحام
تأكله الحمى ، تدير رأسه الأرقام
يجوب مهجوراً بلا أحلام
شوارع المدينة الخلفية الصماء
يفرغ فى حدائق المساء
حيــاته الجوفاء
وريث هذا العالم المهان
يبحث عن مكان
يموت فيه صاغراً ، كالكلب ، بالمجان .

إن الليل فى كل مكان (الجزء ١٤) ، وتحت جنحه يسرى نفر يحترقون « ليضيئوا شرف

الإنسان (الجزء ١٥) ، أن لا يموت راكعاً منسحقاً مهان ، كالكلب تحت عجلات العار ، وأن يعيش فى خطوط النار منتصراً ، حتى وإن حاقت به الهزيمة » . (الجزء ١٥) .

ويكفر البياتى بكل النظم وبالساسة المحترفين . .

« الساسة المحترفون ، ينجرون خشب التابوت

وأنت فى الغربة لا تحيا ولا تموت »

لقد جرب كل المذاهب وعانق كل الفلسفات ، ولم يحترم منها جميعاً إلا الثوريين . ولكن حتى هؤلاء لا بد أن نتريث قبالتهم لحظات . إن الثورى خلاف المتمرد ، ويفرق الفكر الفلسفى بين الاثنين . من هو المتمرد ؟ ومن هو الثورى ؟

الواقع أننا كما قلنا قبلا نجد أثر ألبير كامى الهائل على عبد الوهاب البياتى . ويتأثر البياتى بكتابين من كتبه بصفة خاصة ، الكتاب الأول أسطورة سيزيف الذى قال لنا عنه بيير روسى إنه جعله موضوعاً لقصيدته « فى المنفى » ، والثانى « الإنسان المتمرد » .

ولقد رأينا رحلة البياتى يبدؤها بسؤال بعد أن يخلص بالفشل من الحياة : أفإن كان الكل باطل وكنا « ممثلين فاشلين فوق هذا المسرح المنهار » ، هل يحق لنا الانتحار ؟ وكامى يقول فى الفصل الأول من أسطورته « هناك قضية واحدة خطيرة وهى قضية الانتحار ، فالحكم على الحياة بأنها تستحق أن تعاش أو لا تعاش ، هو حكم يرقى إلى مستوى الإجابة على صميم قضية الفلسفة ، وكل ما عدا هذه القضية من قضايا الفلسفة يأتى فى مرتبة ثانوية .

ويدخل كامى إلى عالم اللامعقول ويعانى تجربته ويستعيض بها عن فكرة الانتحار . ويقول كامى « ربما قد يظن أن الانتحار يتبع التمرد ، لكن هذا خطأ لأن الانتحار ليس النتيجة المنطقية للتمرد ، فالانتحار كالقفزة هو القبول والرضى فى أقصى تطرفهما ، والمنتحر يحل مشكلة اللامعقول بأنه يقتله معه . أما إذا بقى الإنسان حياً فاللامعقول يظل حياً . واللامعقول يفلت من الانتحار لأنه يعى الموت ويرفضه . اللامعقول هو وعى الموت وهو رفضه .

لكن التمرد عكس الانتحار يعطى الحياة قيمتها . وهو إذ يبسط سلطانه على الحياة بأسرها فإنه يسبغ جلاله على هذه الحياة . وليس أروع من الذكاء عندما يمسك بالواقع ويصارعه ويحاول أن يصعد به ، وليس أروع من غرور الإنسان وهو يواجه الواقع نداً لند . ولذلك فالتمرد والوعى هما عنصرا اللامعقول اللذان يلهبان القلب البشرى . واللامعقول يمتص كل شىء للإنسان حتى تمام النهاية ، وإنسان اللامعقول يموت مجبراً على الموت ولا يموت من تلقاء نفسه » .



والبيـــاتى يقول :
لا بد أن نختار
أن نقبض الريح وأن ندور الأصفار
أن نجد المعنى وراء عبث الحيـــاة
فالعيش فى هذا المدار المغلق انتحار

. . . . . .

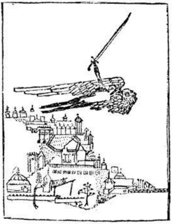
لا بد أن تنهار
روما ، وأن تبعث من هذا الرماد النار
أن تحرق الصاعقة الأشجار
لا بد أن يولد من هذا الجنين الميت الثوار

واللامعقول عند البياتى يترجمه العبث ، وهو معنى من المعانى التى يذهب إليها بعض المترجمين للفظة الفرنسية l'absurde . والبياتى يختار التمرد ويقبل لامعقولية الوجود ولكنه يقبله بشرط معلق هو أن يواجه التمرد نداً لند ويغير فيه .

ويثير التمرد مشكلة الحرية ولا تعنى كامى أو البياتى الحرية الميتافيزيقية ، وإنما ما يعنيه من الحرية هو هذا الجانب منها الذى يمارسه هو نفسه ، هو حريته هو .

قال جوته « إن مجالى هو الزمن » وهذا هو ما يقوله البياتى . إن البياتى لا يعمل من أجـــل الأبدية . البياتى لا يدعونا للحياة الصالحة بالمصطلح الدينى ، ومع ذلك فهو لا ينفى الأبدية ، وهو يدرك عبث الحياة على المستوى الوجودى ، بمعنى أن حريته المزعومة تحدها حدود أبدية وجودية مثل الموت ، ومع ذلك فهو يسير فى الحياة متمالكاً شجاعته ومنطقه . وتعلمه الحياة أن يعيش دون أن يلجأ إلى شىء ما خارج ذاته ، وأن يستمر فى الحياة بما لديه ، ويعلمه المنطق ماهية حدوده وهو يثق فى حريته الزمنية المحدودة ويعرف أن تمرده بلا مستقبل وأن وعيه سرعان ما سيموت ، ومع ذلك يعيش البياتى مغامرته داخل حدود عمره . إن عمره هو ميدانه ، هو فعله الذى يحميه من حكم الآخرين عليه . بأنه لا يقبل إلا حكم نفسه على فعله ، والعمر الأطول لا يعنى بالنسبة إليه حياة أخرى . لذلك أدهشنى جداً قول غالى شكرى فى كتاب « مأساة الإنسان المعاصر فى شعر البياتى » إن « غربة البياتى غربة سياسية وليست غربة وجودية ، بمعنى أنها داخل الزمان والمكان ، أما غربة شاعر الرفض فهى خارج الزمان والمكان . بعبارة أخرى غربة شاعرنا العربى غربة اجتماعية ، أما غربة الشاعر الوجودى فهى غربة ميتافيزيقية » والواقع أن غربة البياتى





غربة داخل الزمان والمكان ، لأنها غربة ترفض الميتافيزيقيات وتحتضن عمر الشاعر احتضاناً يؤكد وجوده داخل الزمان . ومن قال إن غربة الشاعر الوجودى غربة ميتافيزيقية ؟ إن أول ما يسم الوجودى هو قوله بالوجود السابق على الماهية ، والوجود عنده وجود داخل الزمان والمكان ، والقول بوجود خارج الزمان والمكان قول متناقض ولا يمكن أن يستقيم ، والبياتى يدرك ويعانى الغربة الوجودية من خلال الغربة الاجتماعية ، أو أن التفاصيل الصغيرة هى النوافذ التى تشرف بالبياتى على الغربة الكونية التى تحتضن الإنسان فى وجوده كله وفى الكون بجميعه .

ولأن البياتى متمرد على المستوى الوجودى يختار قرض الشعر ميداناً تمرده . وقد حاول المتمرد أن يكون دائماً عبر التاريخ أميناً مع أصوله الفكرية ، ولكنه على المستوى السياسى رفض الله واحتضن العدمية وآمن بالدولة وكلها أمور عمقت متناقضات التمرد بدلا من أن تحلها . ولم يبق من ميادين التمرد إلا ميدان الأدب والفن يمارس الثورى فيه تمرده دون تناقض ، ذلك لأن الأديب يخلق فى أدبه من العوالم ما يشتهيه دون أن يريق قطرة دم لإنسان يعارضه أو أن يشكل جيشاً من الشرطة يدعم حكمه ، ولكنه يرسم ما يشاء من عوالم . شىء واحد يتأرجح فيه الأدب والفن المعاصران ، بين الشكلية والواقعية . والشكلية وحدها تجريد عفوى غامض ، والواقعية وحدها تعبير عن أيديولوجية حتمية . لكن الفن الحقيقى يقع بين الاثنين ، فإذا كان على المتمرد أن يرفض جنون السلب وأن يرفض فى نفس الوقت الخضوع للجماعية ، فالفنان الحقيقى عليه كذلك أن يهرب من الانقياد لإغراء الشكلية والخضوع لجمالية المجتمع الجماعى . وعالم اليوم عالم موحد فى الواقع ، لكن وحدته وحدة عدمية ، ولن تكون المدنية ممكنة إلا بإنكار عدمية المبادئ الشكلية وإنكار العدمية بلا مبادئ ، وبإعادة اكتشاف الطريق إلى تركيبة مبدعة . ونفس الشىء مع الفن . إن الفن يعيد اكتشاف مصدر التمرد ، وفيه يتوازن الرفض والقبول والفرد والتاريخ والجماعية . وليس التمرد مدنية ولكنه إرهاص بمدنية . والتمرد وحده شارع مسدود نعيش فيه بأمل فى مستقبل كان يحلم به نيتشه « بدلا من القاضى والمستبد يكون المبدع » .

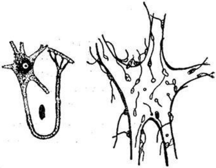
وتمرد البياتى يكاد يجمع عليه كل النقاد ، ولكن جوهر هذا التمرد أو مضمونه هو ما يختلفون فيه وحوله . وتمرد البياتى تمرد فنان لا تمرد سياسى ، وهو تمرد يحاول اكتشاف أصول التمرد والارهاص بمدنية أو التبشير بمدنية فاضلة فيها الرفض والقبول والفرد والجماعة والتـــاريخ . . .

لو جمعت أجزاء هذى الصورة الممزقة
إذن لقامت بابل المحترقة
تنفض عن أسمالها الرماد
ورف فى الجنائن المعلقة
فراشة وزنبقـــة
وابتسمت عشتار
وهى على سريرها تداعب القيثار
وعاد أوزريس
لانطفأت أحزان حادى العيس
ونورت فى سبأ بلقيس
وعـــادت البكارة
لهذه الدنيا التى تضاجع الملوك والحجارة
لهذه القديسة الهلوك . . .

ولعل هذا هو ما قصد إليه بيير روسى من عقده للمقارنة بين البياتى وكامى ولعله كذلك ما أردت أن أشير إليه باعتباره مرحلة جديدة فى فكر البياتى يتجاوز فيها حدود الإيديولوجية المـــاركسية الضيقة ويحتضن الفكر الإنسانى الرحب بعامة وهو ما فعله كل المفكرين والفنانين الكبار ، وهو أيضاً ما نرجوه لشاعرنا العربى الصديق عبد الوهاب البياتى .

عبد المنعم الحفنى

الأساس الجسمانى للشخصية



الناشر : مركز كتب الشرق الأوسط بالاشتراك مع مشروع الألف كتاب - الثمن ٢٢,٥ قرشا

الأستاذ ف . ه . مترام
V. H. Mottram

من العلماء المعاصرين الذين وقفوا حياتهم على دراسة الإنسان ومقومات شخصيته وخاصة من الناحيتين العضوية والحيوية ، وقد أهلته لذلك دراسته الطويلة بجامعة كمبردج بين عامى ١٩٠١ ، ١٩١١ ثم خبرته التى اكتسبها مذ اشتغل بتدريس علم وظائف الأعضاء فى جامعات ليفربول وماكجيل بمونتريال وتورنتو ، هذا إلى ما أحاط به من علم كأستاذ علم وظائف الأعضاء بكلية الملك بجامعة لندن ، وهو الكرسى الذى شغله قرابة ربع قرن من الزمان حتى تقاعد عن التدريس عام ١٩٤٤ .

ولقد وجد الأستاذ مترام فى ظروف نشأته وما عاناه فى شبابه من قسوة مرض الدرن الذى ألجأه إلى المصحات ما بين عامى ١٩١٦ و ١٩١٨ حافزاً له على العمل الدائب فى محاولة لاكتناه أسرار الحياة ، إذ ترك التدريس عقب إبلاله عامين كاملين أفرغ خلالهما كل طاقته فى البحث فى علم الحياة وما يتصل به من علوم كيمياء الجسم والتغذية ، وهو يعتقد أن تعميق النظرية العلمية فى الحياة هو السبيل الأمثل لكل تقدم مادى أو روحى على السواء .

ويهوى المؤلف قراءة الكتب والرسم والتصوير الفوتوغرافى ، وهو لا ينتمى إلى حزب سياسى معين ، ولكن له ميلا اشتراكياً واضحاً .

ويمتاز الأستاذ مترام بين العلميين بإيمانه القوى بالله إيماناً ينزع بروحه إلى التحليق فى آفاق ما وراء الطبيعة ، والفصل الأخير من الكتاب الذى نعرض له فى هذا المقال يشع وميض عقيدة راسخة فى الله سأقف بمنارها إذ آنست نارها ، لعلى آتى القارئ بقبس منها أو نجد على النار هدى .

* * *

شخصية الإنسان وليدة الوراثة والبيئة :

والشخصية كما انعقد الرأى فى تعريفها هى مجموع الصفات التى يتسم بها الشخص فيتميز بها عن غيره ، وبين هذه الصفات ما هو موروث عن السلف وما هو مكتسب من البيئة ، ومن ثم كان موضوع الشخصية ميداناً فسيح الأرجاء تتضافر فى كشفه جهود الدارسين على تباين مناهجهم ، فإلى جوار التربويين والفلاسفة والنفسيين والمصلحين الاجتماعيين الذين يعنون بدراسة الصفات المكتسبة فى شخصية الفرد من بيئة ومؤثرات خارجية ، يجد العلميون من أطباء وكيميائيين وبيولوجيين مجالا لدراسة الشخصية من حيث أساسها الجسمانى وما يدعمه من ركائز وراثية موهوبة تتشكل بها خلقة الإنسان وتؤثر تأثيراً جوهرياً فى سلوكه وخلقه .

والواقع أن لكل من عاملى (البيئة والوراثة) أثراً متبادلا بينهما ، فالقلق مثلا إذا لازم الإنسان ردحاً من الزمن نتيجة ظروف البيئة يؤثر على إفراز بعض غدده ويخلف أثراً عضوياً قد يؤدى إلى إصابة المهموم بقرحة فى المعدة أو فى الاثنى عشر فالأثر العضوى فى هذا المثل وليد مؤثر معنوى ، وعلى عكس ذلك

يؤثر ضعف بعض الأعضاء الموروثة مع خلايا الإنسان على مزاجه وبالتالى على سلوكه ويعوق طريقه لتحقيق أهدافه ، فتضخم الغدة الدرقية والكظرين وتلف البنكرياس يسم المريض بمزاج عصبى عدوانى ، وهكذا نجد دائماً أثراً متبادلا بين تشكيل الجسم وبين ظروف البيئة وبعبارة أعم بين الصفات الجسدية الموروثة والصفات المعنوية المكتسبة وهكذا تتشكل شخصية الفرد بمؤثرين مؤثر وراثى (موهوب (وآخر بيئى (مكتسب) .

الوراثة ومقوماتها :

أما الوراثة فليس أجمل لتعريفها من تلك الأبيات الشعرية التى استهل بها المؤلف فى براعة بحثه والتى أودعها (توماس هاردى) بأحاسيس الشاعر دقائق تحليل العالم حين وصفها بأنها « ملامح وجه الأسرة » ، وتركة الأجيال التى تظهر فى التقاسيم والصوت والعينين ، وأنها الجوهر الخالد فى الإنسان الذى لا يبالى بنداء الفناء » . . .

وقد حلل المؤلف فى كتابه الدور الكبير الذى تلعبه الوراثة فى تحديد الشخصية ، فالصفات الموروثة تختلف اختلافاً بيناً من شخص لآخر ، وهى تؤدى إلى إنتاج ضروب متفاوتة من الشخصية ، ولما كانت دراسة الوراثة والطرق التى تنتقل بها الصفات البدنية وما يتبعها من صفات معنوية لا يمكن الالمام بها دون اكتناه سرها الكامن فى الخلية لذلك كانت دراسة الخلية هى المدخل الأصيل للوصول إلى أعماق الشخصية .

وقد تناول المؤلف موضوع (الخلية) بدراسة تفصيلية عرفها فيها بأنها الوحدة التى تتركب منها أجسام جميع الكائنات الحية من نبات أو حيوان ، فهما كبرت أحجام هذه الكائنات أو تعقد تركيبها فإنها تبدأ حياتها بخلية واحدة سرعان ما تبدأ فى الانقسام والتكاثر أثناء نمو الجنين حتى ينتج عنها كائن كبير الحجم عديد الخلايا ، فالإنسان يحتوى جسمه على ٣٥٠ مليون خلية أو أكثر ، وقد وصف المؤلف الأجزاء المختلفة التى تتركب منها الخلية وخاصة نواتها والدور الذى تقوم به أثناء عملية الانقسام وطريقة حدوث هذا الانقسام ، كما وصف (الصبغيات) « الكروموسومات » التى تظهر داخل النواة خلال هذه العملية ، وقام بالتدليل على أن هذه الصبغيات هى التى تحمل العوامل الخاصة بوراثة جميع المميزات البدنية وقد تناول كذلك بالشرح نظرية (المورثات) « الجينات » وهى الوحدات التى تحمل الصفات الموروثة وبين طريقة اصطفافها فى الصبغيات وإلى أى حد استطاع علماء الوراثة القيام برسم خرائط خاصة لهذه الصبغيات مبيناً عليها توزيع المورثات المختلفة فى أماكن ثابتة ومحددة .

تحديد الجنس وأثره فى الشخصية :

ومما لا مراء فيه أن للجنس علاقة كبرى بالشخصية ، إذ تختلف شخصية الرجل اختلافاً بيناً عن شخصية المرأة ، وليس أدل على هذا الاختلاف من أننا كثيراً ما نصف بعض النساء اللواتى يظهرن خصائص الرجال فى السلوك أو المظهر بأنهن « نساء مسترجلات » كما نصف الرجال الذين ينحرفون إلى جانب الأنوثة بأنهم « مخنثون » وقد أفرد المؤلف فصلا خاصاً بتحديد الجنس موضحاً أن الإنسان يتحدد جنسه منذ اليوم الأول من حياته الجنينية ، أى من لحظة اندماج (البويضة) بالحيوان المنوى ويكون المولود ذكراً أو أنثى تبعاً للتركيب الصبغى « الكروموسومى » للبويضة بعد إخصابها ، وقد تكلم عن الصبغيات المحددة للجنس فى الإنسان وفى عدة أمثلة من الحيوانات موضحاً الطريقة التى يتحدد بها جنس الجنين فى كل حالة ، فالإنسان له نوعان من الصبغيات الجنسية أحدهما كبير الحجم والآخر صغير الحجم فاذا كانت البويضة بعد إخصابها تحتوى على صبغيين كبيرين كان المولود بنتاً ، أما إذا كانت تحتوى على صبغى كبير وآخر صغير كان ذكراً ، كما أظهر المؤلف فى وضوح أن هناك احتمالات متساوية فى انجاب الذكور والإناث وأن الأم ليس لها أى دخل على الاطلاق فى تحديد الجنس بل يرجع ذلك إلى محض المصادفة

تأليف : ف . هـ . متران

ترجمة : دكتور عبد الحافظ حلمى

مراجعة : دكتور محمد رشاد الطوبى

ويتوقف على التركيب الصبغى للبويضة بعد إخصابها ، ولعل هذا التأكيد كان لدحض ما يجنح به بعض محدودى التفكير وخاصة من عامة الشعب عندنا لتبرير طلاق زوجاتهم بدعوى أنهن لا ينجبن غير البنات .

الجهاز العصبى :

ويتحدث المؤلف عن الجهاز العصبى فيبرز بوجه خاص الدور الكبير الذى يؤديه (المخ) وتأثيره فى تشكيل شخصية الإنسان ، فهو أشبه بالحكومة فى البدن ، ووحدة رجال هذه الحكومة هى الخلية العصبية أو (العصبة (وبالجهاز العصبى ألفا مليون منها أى ما يجاوز عدد ثلثى سكان الأرض جميعاً ويتدلى من المخ جزء يشبه الساق ينتهى (بالحبل الشوكى) ويهيمن الحبل الشوكى قبل كل شيء على حركات الأطراف كما تهيمن النهاية السفلى لساق المخ على الأفعال الانعكاسية المتعلقة بالتنفس وتوزيع الدم على الأجزاء المختلفة بالجسم وبأعمال القلب والجهاز العصبى وتعلو هذا الجزء مجموعة مكدسة من الخلايا العصبية وفروعها هى (المخيخ) الذى يوجه أفعال العضلات ويقويها ، وفى طبقة أعلا من هذه أيضاً نجد ما يسمى (بالمهاد البصرى) وهو جسم تتجمع فيه (النبضات الإحساسية) و (الانفعالات العاطفية) التى تبدأ من أى مكان فى الجسم وفيه تصنف هذه النبضات وترسل إلى عقد كبار فى الخلايا العصبية تسمى (بالأجسام المخططة (وإلى المخ (السقفى) الذى هو مهد العقل ، ذلك الشيء من أنفسنا الذى هو فوق التحليل والذى ندرك وجوده دون أن نعرف له جرماً أو تركيباً .

والواقع أن التركيب التشريحى لأجزاء الجهاز العصبى لا يعنينا قدر ما تعنينا وظائفه وأثره فى شخصية الفرد — فالخلايا العصبية لا تلتحم الواحدة منها



بمجاراتها ، فكل منها وحدة فسيولوجية قائمة بذاتها ، والمسافة التى تنقل خلالها النبضات العصبية من خلية إلى الخلية التى تليها تسمى (الموصل) أو المشتبك ، وتختلف شدة مقاومة هذه المواصل باختلاف الأشخاص والظروف ، فالتعب وبعض العقاقير مثل الكحول والأفيون والكلوروفورم (يضعف) التوصيل بينما يقوى هذه المراحل وقتياً تناول بعض العقاقير الأخرى كالكافيين والستركنين كما أن مقاومة الموصلات قد تكون عالية عند بعض الناس ، ومنخفضة عند الآخرين فمن الناس من لا يكاد تختلج له خالجة عند سماع صوت مفاجئ ، ومنهم من يقف مضطرباً إذا فوجئ بصوت أو دقة طبل أو رنين ناقوس ، ونحن نصف الأول بأنه هادئ الطبع ، والآخر متوتر الأعصاب ، وينبغى كذلك أن نفرق بين فئة خاملة أو هادئة العواطف وأخرى متدفقة العواطف ، وهؤلاء الآخرين إما أن يكون مهادهم البصرى مفرط النمو أو يكون مخهم السقفى أضعف من أن يحكم قبضته على المهاد ويكبح جماحه ، ويتساءل المؤلف فى النهاية قائلا « أو ليس من الجائز أن تكون الجينات هى التى تحدد العلاقة النسبية بين حجمى المخ السقفى والمهاد ، ومقدرتيهما ؟ وهو يجيب على هذا التساؤل مؤكداً أن المخ (السقفى والمهاد البصرى والمخيخ والحبل الشوكى) وغيرها من أقسام الجهاز العصبى تنتقل كلها بالوراثة فى المورثات « الجينات » التى تحملها الصبغيات مع نواة الخلية وأن حجم المخ السقفى والشوكى وعدد تلافيفه وتجاعيده وهى أهم مقومات ذكاء الشخص والعامل الأكبر فى تحديد شخصيته تنتقل بالوراثة شأنها شأن باقى المميزات البدنية وما يرتبط بها من مميزات سلوكية .

أعضاء الافراز الداخلى .

الغدد الصم :

وقد عنى المؤلف عناية كبيرة بأمر الغدد ذات الافراز الداخلى وهى الغدد الصم التى تفرز الهرمونات ذلك بأنها على صغر حجمها كبيرة الأثر فى حياة الإنسان كما أنها ذات أثر فعال فى تكوين شخصيته مما جعل البعض يطلقون عليها « غدد الشخصية » ، بل إن البعض قد تجاوزوا هذا الحد وأسموها « غدد القدر » إشارة إلى أننا نرث كياناً خاصاً من هذه الغدد يسم شخصياتنا بميسم الخير أو طابع الشر ذلك بأن الهرمونات التى تفرزها الغدد هى منشطات كيماوية تنساب فى الدم لكى تكمل عمل أعضاء أخرى بعيدة عنها فى الجسم ومن ثم نبتت فكرة وجود « تكامل ذى طبيعة كيماوية » فى الجسم .

وغدد الإفراز الداخلى التى عرض لها المؤلف لارتباطها بموضوع الشخصية هى الدرقية وجارات الدرقية ، والنخامية والتموسية والبنكرياس وفوق الكلوية « الكظراء » والمبيض والخصية .

و « الغدة الدرقية » هى المثال التقليدى للغدد التى تؤثر فى الشخصية وهى غدة صغيرة الحجم على شكل الفراشة وتقع على جانبى تفاحة آدم فى الرقبة .

وقصور الدرقية يسبب التخلف عن الأتراب والبطء فى تعلم المشى والكلام ، والعجز عن الاندماج فى المجتمع مع ضعف الوعى والإدراك وقد أضاف المؤلف أن القصور إن كان بسيطاً يصيب ذهن البالغ بالركود وكثرة النسيان وفقد الذكريات الماضية والعجز عن التركيز العقلى وعن الاقدام أو القدرة على حسم الأمور وتنفيذ المشروعات ، وكلها تدخل فى صميم مقومات الشخصية وذكر المؤلف أن ضعيف الدرقية ، بل وعديمها الذى يسمى « الكرتنى » يعالج اليوم بمادة تسمى « التيروكسين أو «الدرقين» ويمكن أن تستخرج هذه المادة صناعياً من درقية الثور المجففة وقد أتى العلاج بنتائج باهرة إذ أحال الكثيرين من المصابين بنقص أو انعدام الدرقية إلى أشخاص أصحاء — وأن مما يعجز الغدة الدرقية عن القيام بدورها نقص اليود أو الثيروكسين فى الطعام .



من ذلك ينتج أن أدنى نقص فى معدل إفراز الدرقية من الثيروكسين يؤدى إلى البلاهة وأن زيادة إفرازها يؤدى إلى جنون جامح وأن بين هذين الحدين يكون الإنسان السوى .

وإلى جوار الدرقية غدد أخرى تعرف (بجارات الدرقية) ويؤدى خللها إلى نقص الكالسيوم فى الدم مما يثير الألم فى الأطراف والشعور بالضعف وبالصداع وقد يصبح هذا النقص خطراً مهدداً للحياة بالاختناق إذا هو وصل إلى عضلات التنفس ، ويعالج المريض بالغذاء الغنى بالكالسيوم ومن آثار ضعف هذه الغدد شدة الحساسية والاندفاع فى الغضب .

وقد انتقل المؤلف بعد ذلك إلى عرض وظيفة الغدة النخامية وهى تنقسم إلى قسمين أمامى وخلفى ، وللفص الأمامى تأثير بالغ على نمو الجسم فى جملته وعلى التناسلية هذا إلى أثره الواضح فى تنبيه الغدة الدرقية وقشرة فوق الكلى والنسيج الجزرى فى البنكرياس ، أما الفص الخلفى فإن خلاصته ترفع ضغط الدم وتنشط عضلات القناة الهضمية وتنظم تدفق البول فى الكلى كما تسبب انقباض الرحم .

وقد أوضح المؤلف أن قصور الغدة النخامية فى إفرازها يحدث صورة مثيرة للضحك لإنسان قزم أو مترهل مكتنز يخيم عليه الاعياء والخمول ، وأن الزيادة فى إفرازها هرمون النمو يصاحبها باعث الشجاعة والاقدام وشدة البأس .

وقد أشار المؤلف بعد ذلك إلى « الكظرين أو الغدتين الادرينالينين) اللذين يفرزان مادة الادرينالين ويسكبانه فى مجرى الدم كلما دهم الشخص خطر

مفاجىء تجب ملاقاته، ومن أعراض زيادة إفراز الادرينالين امتقاع البشرة ، وشحوب الأطراف واختلاج العضلات وبهر التنفس وارتفاع ضغط الدم والتوتر العصبي والقلق . ويؤثر تضخم هاتين الغدتين تأثيراً بالغاً في شخصية الفرد إذ يسمه بالتهور والنزوع إلى العدوان كما يؤدي نقص إفرازها إلى فقر في الدم وانحطاط في القوى وفقد للشهية .

ومن الغدد ذات الأثر في شخصية الفرد (البنكرياس) الذي يفرز في الأمعاء الدقاق خمائر تقوم بالقسط الأوفر في عمليات هضم الطعام في القناة الهضمية وقد أوضح المؤلف أثر ضعفه في إصابة صاحبه بمرض البول السكري وما يتخلف عن هذا المرض من عجز جزئي أو كلي عن إفراز القدر اللازم من الأنسولين مما يسبب ارتفاع نسبة السكر في الدم إذ يفقد المريض القدرة على استخدام السكر كما يستخدمه الشخص السليم ويعجز كذلك عن إحراق المواد الدهنية في الجسم إحراقاً صحيحاً ، الأمر الذي يضطره إلى إحراق أنسجة الجسم نفسها ليحولها إلى جلوكوز مما يؤدي إلى إصابة المريض بغيبوبة تتناوبه بين الحين والحين غيبوبة تتسبب عن تراكم حامض الاستواسيتيك في المخ مما يعرضه لأنواء عقلية ونوبات ثورات جامحة .

ويختتم المؤلف عرضه للغدد بمناقشة دور الغدد التناسلية وأثر اختلافها في شخصية كل من الرجل والمرأة، وما تتسم به المرأة عادة من طباع لطيفة سلسة وصبر وما تقوم عليه شخصية الرجل من جرأة وعنف وخشونة ، ثم ما قد يطرأ على هذه الطباع من انحرافات تجنح بالأنثى إلى التخلق ببعض مميزات الرجال وبالرجل إلى التطبع بشيء من طباع أو صفات النساء نتيجة لشذوذ أو تكوين غير عادي لهذه الغدد .

مدى صحة التفسير المادي لتكوين الشخصية

ويقف المؤلف بنا بعد هذا العرض العلمي للإنسان أمام قضية يطرحها على بساط البحث ، قضية هي في الواقع جوهر الموضوع وعصارة لبابه ، قضية هي أخطر قضايا البشر ورأس مشاكلهم ، قضية البنية وما بناها ، والنفس وما سواها قضية الخلق والخالق ، قضية الأثر والصانع ، قضية الكون ومداره ، والوجود وكامن أسراره .

إن التفسير المادي في ضوء المحسوس ينتهي بنا كما رأينا إلى نتيجة واحدة هي أن شخصياتنا تعتمد على تكوين أجسامنا ، وأن كل خاصية لهذه الأجسام تعتمد على الموروثات « الجينات » التي نرثها عن أسلافنا ، ومجمل القول أننا فيما نحن عليه من شخصية لسنا إلا نتيجة لما ورثناه عنهم، ولقد ورثنا عنهم في الواقع كل شيء حتى أدق شعرة في الحواجب أو أدنى نمشة في البشرة ، فالمادة والقوة هما كما خلصت بنا النتائج كل شيء ، وما العقل والجمال والحب والشرور إلا زبد يحدثه جهاز جبار من أجهزة القضاء تشق مقاديره عباب الزمن وما هذا إلا المادية بعينها جاثمة فوق كل شيء . .

ولكن .. ولكن التسليم للمادة وبالتالي للوراثة كمصدر حتمي يحدد مميزاتنا وصفاتنا معناه المنطقي انزال الإنسان منزلة الآلة التي لا إرادة لها وهو تقرير يفزع المؤلف من جوره وقسوته .

وفي محاولة لدحض النظرية المادية التي تضع الوراثة مصدراً حتمياً لسمات الشخصية يسوق المؤلف حججاً عديدة منها أن مظاهر ميراثنا الجسماني تتغير بفعل البيئة ، وأنه في مقدورنا أن نضبط البيئة وأن نكيفها إلى حد كبير مما يرجح أثر الاكتساب على فعل الطبيعة في الشخصية — ذلك بأن العدواني المنحرف قد تتبدل أحواله إذا تغيرت بيئته فيصبح هادئاً مسالماً وأننا إذا عاملنا هؤلاء المرضى بروح التسامح والاغضاء عن نقائصهم فسوف نحول بهذه السياسة دون تنمية روح طلب الثأر في نفوسهم .

ولكن المؤلف يعود فيقول « ومع ذلك فان هذا المنطق ليس فيه ما يخالف رأي القائلين بأن المادة هي التي تحدد الشخصية ، لأن هذا الرأي لا يعدو أن يكون مجرد إيضاح لبعض آثار البيئة في تحديد الشخصية والبيئة ذاتها من صنع القوى المادية .

حجة أخرى يحتج بها المنكرون لحتمية أثر الوراثة هي أن قانون الوراثة لا يعدو أن يكون نظرية إذا شابها أبسط خطأ كانت النتيجة لاشك خاطئة . والمؤلف مع تسليمه بذلك يرى أن على الرغم من « الشكل في الأداة » فان علماء الوراثة وعلماء وظائف الأعضاء قد جمعوا ما يصح أن يكون من الاثبات على احتمال أن الظواهر الخلقية والسلوكية التي اتفقنا على أن نسميها « الشخصية » هي ذاتها في الغالب من نتاج الوراثة والاكتساب . هذا إلى أن الاستنتاج الذي تصل إليه بحوث العلميين في تغليب الوراثة وأثرها في الشخصية أمر سلم به الكثيرون أمثال شوبنهور ولابلاس إذ يقول شوبنهور « لا يعمل كل شخص منا تحت ضغط الدوافع الخارجية فحسب ، بل ووفقاً لضروراته الداخلية الملزمة أيضاً » .

ويمضي المؤلف في مناقشة حجج كل من أنصار المادية والمنكرين لها وهو إذ يسلم بترجيح كفة منطق العلم في أكثر القضايا التي تعرض لها ومنها الوراثة نراه يميل إلى رأي المدرسة المثالية Idealist التي تبنى نظريتها على افتراض مؤكد بأنه يوجد وراء جميع الظواهر حقيقة قائمة ، ولكن اتباع هذه الفلسفة يطلقون على هذه الحقيقة أسماء مختلفة كل بحسب هويته فالأسقف بركلي Bishop Berkely يرى أن جميع المدركات الحسية تقوم داخل إطار من عقولنا ثم تتبدد بتفكك الجسم وتحلله ، وهو يعلل عدم قابلية المادة

للفناء بافتراضه أنه يوجد وراء الظواهر كلها : (العقل الإلهي) فهو يقول إن «الكون بجملته موجود في محيط علم الله تعالى وأنه تعالى هو الذي يمدنا بالمدركات الحسية التي بوساطتها وفي نطاقها نستطيع أن نحيا ونتحرك ونظهر وجودنا» ، والعالم الرياضي كنجدون كليفورد Kingdon Clifford يفترض (مادة العقل) ويقول أنها هي التي تقوم وراء مدركاتنا الحسية وتكفل ما بينها من تماسك وارتباط . أما برادلي Bradly فيؤكد أن هذا الكائن المدبر هو (الروح) وهيجل Hegel يطلق عليه اسم (المجرد المطلق) Absolute ، وماك تجارت Mc Toggart ينقل عنه لويس دكنسون في خطاب أورده في تاريخ حياته أن ذلك القائم وراء المحسوسات هو (المحبة) وغيرهم يسمونه (الحكمة) أو (الحق) وج . س . هولدين G.S. Holdane يسميه (الرب) وإن كان هولدن يرفض التسليم بدعوى الصوفية أنها تستطيع الاتصال «بالله» ويصف هولدن هذا الزعم بأنه ظاهرة مرضية .

عقيدة المؤلف كما نستوحيها من مجمل آرائه

إن المؤلف مع تسليمه بالوراثة والبيئة كأسس مادية للشخصية ثم إيمانه بالتطور وبقانون الانتخاب الطبيعي القائم بالوجود يأبى حيال الشواهد التي ساقها في كتابه إلا أن يسلم «بأن وراء الظاهرات ودنيا الحواس توجد حقيقة تربط بين الأشياء وتتخللها جميعاً ، حقيقة لا يدركها إلا من صفت نفسه وتهتكت أمام ناظريه ستائر الظاهر وحوائله الخداعة ، فإلى جوار «أنا» العادية توجد رغبة أو إرادة أخرى غريبة كل الغرابة عنها حتى ليخيل إلى أنها كائن آخر يغاير في كل المغايرة ، أنها إرادة منفصلة عني ، إرادة الخير الذي لا يعود علي وحدي ولا على الجنس البشري فحسب لكنه الخير الموجه إلى الكون الأعظم ، وهو يؤكد أن الاستبطان القائم على استظهار بواطن الأشياء واكتناه أسرارها هو سبيل لا محيص عن اقتفائه للنفاذ إلى جوهر الشيء ويتمثل في هـذا بقول العالم الراحل سير شارلس شرنجتون «إنني عاجز عن فهم معنى العقل برده إلى المخ» و «إنني من بعض النواحي مستبطن متصوف لأن كل تفسير مادي للعقل (يفلت مني ويزوغ)» .

ولعل أشد أوتار بحث العالم «مترام» حساسية في كتابه الذي نعرض له هو مناقشته العلمية لنظرية المصادفة التي يبني عليها الداروينيون الحديثون حكمهم في تطور المادة الميتة إلى المادة الحية ، وهي أساس مشكلة الخلق والخالق فهو يناقش بمنطق العلم وبأساليب الرياضة البحتة قضية كوكبنا وينتهي في بحثه العميق لا إلى التشكيك في صحة النظرية فحسب ، بل إلى هدمها من أساسها ليخرجنا من ظلمة المادية البحتة إلى إشراق الروحانية المستمدة من الإيمان بالخالق إيماناً لا يأتيه الشك من بين يديه ولا من خلفه — وهو يقرر أن «وراء الشخصية التي لا ينكر تأثرها بالوراثة وبالاكتساب (نفساً باطنة) تسمو إلى معرفة (الحقيقة النهائية) بصرف النظر عن الأسماء المختلفة التي يطلقونها على هذه الحقيقة (الله) (الرب) ، (ياهو) Yahweh ، (براهما) ، المجرد (المطلق) ، (المحبة) ، (الحكمة) ، وهذا الشيء المألوف الذي نسميه النفس أو الذات ، ذلك الشيء التحكمي ، الشره الشهواني المزدحم بالأنانية والرغبات الشخصية والانفعالات العاطفية والأهواء الشاذة ، وهو الذي يتميز بالخصائص البارزة التي نسميها (الشخصية) هذا الشيء ليس إلا زيفاً ووهماً . ويعود المؤلف فيدلي برأيه في وضوح مؤكداً ، أن «أنا» الحقيقية وهي قلب كياننا وجوهره ، وهي ذلك الشيء الغريب البعيد عن «أنا» هي جذوة أو ذرة من «جوهرة الحقيقة العظمى في الكون» لكن نشاطها وسعيها مكيف ومشكل ومحدد بآثار الوراثة والاكتساب — أي أن «أنا» الحقيقية تلقى عليها الجينات ، والنشأة شخصية Persona تفرضها عليهـا فرضاً ، وهكذا تصبح شخصيتنا محددة إن هي أذعنت لهذه الجينات واستجابت لذلك المنشأ ، لكن بالرغم من ذلك كله ، إذا حدث تكامل صادق بين «أنا» الحقيقية مع بقية النفس أصبحنا من هذه الوجهة كائنات حرة مخيرة .

ويضيف المؤلف إلى ذلك أنه «لما كان من المعلوم أنه كثيراً ما يحصل صراع هائل بين جوهر الإنسان الحقيقي وبين الشهـوات والمطامع والنزوات والأهواء التي تزينها له نفسه الظاهرة العادية ، فالإنسان حائر منقسم على نفسه ولا يتم تكامله فيصبح كلا كاملا إلا حين يتكامل جوهره الباطن مع ظاهره الشخصي حين تصبح «أنا» العادية و «أنا» الباطنة وحدة غير منقسمة فهل يعسر علينا أن نعتقد أن «أنا» العادية الظاهرة هي نتاج الوراثة والبيئة معاً فهي محددة كل التحديد وأن «أنا» الباطنة هي جذوة أو قبس أو ذرة من الحقيقة العظمى التي تقوم وراء الظواهر جميعها وأنها هي التي تحدد شخصيتنا بالآثار التي تزجيها خلال «أنا» الظاهرة .

وبعد فقد جمع الأستاذ مترام في كتابه إلى مادية الظاهر الملموس جوهر الباطن المحسوس ، وأضفى على الأساس الجسماني للشخصية قبساً روحانياً أكسبها حياة نابضة في إنسان يشهد وجوده وإبداع تكوينه بوجود الخالق المبدع .

على أن الكتاب على ما فيه من مادة غزيرة وعلم دافق يشوبه إغراق المؤلف فيما أسماه بالتجارب الروحية وبينها شطحات يصعب التسليم بصحتها ، وقد يكون في ضعف بنيانه الجسدي وما عاناه في شبابه من قسوة مرض الدرن ما ساقه إلى الخضوع في فترات التأمل لمخاوف المجهول ، ويضاعف من هذا الاستسلام فيما نرى تأصل تعاليم جماعة الكويكريين في نفسه كعضو عامل فيها .

أما المترجم فقد وفق في الترجمة قدر توفيقه في اختيار الكتاب الذي سيضيف إلى المكتبة العربية مؤلفاً جديداً في بابه غنياً بمادته .

محمد عبد الكريم

أخبار الكتاب العربي في العالم

يقدمه مدير التحرير

● كان جميلا من وزارة الثقافة والإرشاد بالجمهورية العراقية أن تعنى بنشر كتاب ألّفه أديب مصرى عن شاعر مصرى ، وهذه العناية برهان ساطع على الوحدة الروحية والفكرية القائمة بين البلدين لتشدّ من أزر الوحدة القائمة بينهما : وحدة الهدف والمصير فى الكيان العربى .

فلقد نشرت « مديرية الثقافة العامة » بهذه الوزارة كتاباً ألّفه الأديب الناقد المرحوم أنور المعدّاوى الذى افتقدناه منذ أشهر عن الشاعر الكبير الذى افتقدناه منذ قرابة خمسة عشر عاماً المرحوم على محمود طه بعنوان « على محمود طه — الشاعر . . . والإنسان » .

وكان المرحوم أنور المعدّاوى الذى شقّ طريقه فى ميدان النقد بقدمين ثابتتين وفكر حصيف ، قد عنى بدراسة هذا الشاعر ونشر فصولا من هذه الدراسة فى مجلة « الرسالة » . ثم ألّف منها كتاباً يتناول فيه عصر الشاعر ، ثم يجلو جوهر شخصيته ، ويتحدث عن شاعرنا فى معرض المقارنة بينه وبين الشاعر الانكليزى بايرون ليقول إن مشكلة التفكير الإنسانى فى المصير وما يتعلق بها من جدل حول « شرعية » الثواب والعقاب مشكلة قديمة ، وأنها سبقت بقدمها أفكار بايرون وأبى العلاء وعلى طه ، وستظل هذه المشكلة القديمة جديدة لأنها مشكلة الأمس واليوم والغد ما دامت هناك فترات قلق تمر بحياة الإنسانية المفكرة الشاعرة ، وتدفعها إلى إطالة التفكير فيما وراء هذه الحياة . . فلا عجب إذا ما التقت أفكار الشعراء الثلاثة حول هذه المشكلة الوجودية ، وأن يعرضها كلٌّ منهم — على فرض وجود التأثر — من خلال وجهة نظره الخاصة فى مجال الفن والعقيدة .

ثم يتحدث عن المرأة فى حياة الشاعر حيث خلت حياته فى أول عهد الشباب من المرأة حتى بدت فى رؤية العين وإحساس القلب وهى حيرة باقية وقلق دائم إلى ذلك الحين الذى وجد فيه المرأة والشهرة ، فبدأ يتلفت حواليه ويخرج من تلك الدائرة الضيقة التى كانت تعبيراً عن وجوده الذاتى إلى دائرة أرحب عبّر فيها عن ذلك الوجود الجماعى الذى يعيش معه فى مضمون إنسانى واحد . . ومن ثم ينتقل الناقد إلى مرحلة الواقعية القومية فيحدثنا عن الشاعر الإنسان ، وبعد ذلك يحلل بعض قصائده تحليلا واعياً ودقيقاً .

● وبهذه المناسبة نذكر أن « المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية » قد نشر فى « مشروع الكتاب الأول » رسالة علمية من تأليف الأستاذ السيد تقى الدين السيد عنوانها « على محمود طه : حياته وشعره » ومن بين فصول هذه الرسالة مناقشته لآراء أنور المعداوى يقول فيها المؤلف : « يرى الأستاذ أنور المعداوى أن على طه شاعر الأداء النفسى وقد برهن على ذلك بنماذج كثيرة من شعر على طه ، وكانت له آراء سديدة وموفقة ، إلا أن الاستنتاج فيما أرى كان غير صحيح . ذلك أن الأستاذ المعداوى كان يقصد بشاعر الأداء النفسى أن على طه يعبر عن انعكاس الحياة فى نفسه ويقدم إلينا صورة أحاسيسه ومشاعره » .

ثم يقول المؤلف : « وفى الواقع أن هذه السمة الذاتية لا يختص بها على طه وحده ، بل هى أولا السمة البارزة لشعراء جماعة الديوان ، ثم لشعراء أبولُّو وروافد أبولُّو ثانياً . وإن تكن لكل نفس علاقتها المختصة بها إلا أن الأستاذ المعداوى كان يريد أولا أن يعرفنا بالطبيعة الفنية عند على طه ، ولعله قد أخفق فى ذلك وإن كان نجح فى تعريفنا بشخصية على طه » .

ويقرر أن الناقد الذى نجح فى تطبيق المنهج الذى أشار إليه هو الدكتور محمد مندور فى كتابيه : « فى الميزان الجديد » و « الشعر المصرى بعد شوقى » بحلقاته الثلاث .

ثم يناقش المؤلف رسالة الدكتوراه التى تقدم بها إلى كلية الآداب بجامعة عين شمس الأستاذ سيد أحمد الهندى وموضوعها « على محمود طه بين شعراء مصر المعاصرين » مناقشة طويلة .

وينتهى المؤلف إلى أن على طه كان من أصحاب الغزل الحسى ، وأنه برع فى تشخيص الطبيعة وتلوينها وأنه يلاحظ اتصال الطبيعة بالمرأة عنده وقد تأثر فى ذلك بابن زيدون والرومانسيين الغربيين وخليل مطران ، وأنه فى المناسبات والاجتماعيات كان يمثل الاتجاه العربى الصاعد، وحديثه عن القومية العربية بهذه الصورة ربما كان ظاهرة فريدة فى الشعر المصرى الحديث .

● وثمة كتاب ظهر فى عالم الأدب فى بساطة وعلى استحياء، وفى غير ضجة أو دعاية أو استعلاء، لأنه يحمل من سمات صاحبه : البساطة التى يتميز بها وفيها العمق البعيد الغور ، والتواضع الذى يلقى به الناس — صغيرهم وكبيرهم — فيقربهم إلى نفسه ، ويلصقهم بروحه، ويعلقهم بأدبه وفنه . وهو يقدم كتابه هذا إلى الناس بهذه الكلمة البسيطة فى مبناها العميقة فى مغزاها فيقول :

« دلق الزنبيل ، أصدق وصف لهذا الكتاب ، فهو خواطر متناثرة ، فى موضوعات شتى ، لا رابط بينها ، ذكريات وأدب وفكاهة ، يمثل كل مقال هوى وقت كتابته ، ومن ورائها جميعاً دافع واحد : عناق الكلمة ، وبحث قلب عمن ينصت لنجواه » .

ولست أدرى حين أقرأ لصاحب هذا الكتاب : أهو فيلسوف يتناول كتابة القصة بنظراته العميقة وتأملاته الدقيقة ، أم هو شاعر — على الرغم من أنه يقول إن لسانه لم ينضح قط بقصيدة — يتناول القصة بأسلوب ساحر جذاب ؛ أقربُ وصف له هو أنه من السهل الممتنع ؟

والحقيقة التى لا مراء فيها أنه قاص ، أديب ، شاعر ، فيلسوف ؛ تجتمع فيه كل هذه المواهب على الرغم من محاولته إنكار ذلك كله ببساطته المعهودة حتى فى عناوين كتبه ، وبتواضعه الجم مع محدثيه ومريديه ؛ وما أكثرهم ! وبفكاهته وسخريته ، وبأسلوبه الفريد المتميز .

هذا الكتاب الذى ظهر للناس على هذه الصورة من التواضع هو كتاب « دمعة . . فابتسامة » للقاص الكبير الأستاذ يحيى حقى .

وليحيى حقى طريقة فى استعمال الكلمة الدارجة بين أسلوبه العربى الفصيح — يشاركه فى هذه الطريقة البارعة أديب عالم قاص شاعر فيلسوف هو الدكتور حسين فوزى — فهما يرصّعان أسلوبهما بالكلمة التى تجرى على لسان الناس بحيث ترتفع إلى سماء أسلوبهما الفصيح المشرق لا أن تهبط به إلى أرضها ، وبحيث تؤدى هذه الكلمة رسالتها سريعة دون أن تطغى أو تتحكم أو تسيطر على جمال العبارة الحسناء الفاتنة المحلوّة . .

وليحيى حقى إلى جانب هذه المزات أسلوبه فى اللعب بالمشاعر والأحاسيس ؛ فهو ينتقل بك بين فصول الكتاب من صور ساحرة ضاحكة إلى صور دامعة باكية ، وهو إذ يحس أن الدمع قد ترقرق أو تأرجح فى محاجرك حين يرثى إنساناً أو حين يصور مشهداً محزناً أليماً يمسح فى رقة وسرعة ما ترقرق أو تأرجح من دمع ، بعبارة ساحرة تبعث الابتسامة أو تفجر الضحك .

وهو دقيق الملاحظة لأدق الأشياء ولأتفهها فيجعل منها شيئاً يثير ضحكك أو حزنك أو دهشتك . إنه ليستولى عليك فتنصت بقلبك إلى نجواه إنصات مسحور ، حين يعانق الكلمة عناق ساحر آسر .



● وفى عالم القصة ظهر فى سلسلة « اقرأ » التى تصدرها « دار المعارف » كتاب صغير للأستاذ إبراهيم المصرى عنوانه « خالدون فى الوطن » يضم ثمانى قصص هى زهور دامية فى تاريخ البشرية لا يمكن أن تذبل ولا يمكن أن تموت . وهذه الزهور الخالدة الرائعة الشبيهة بالمشاعل — كما يقول المؤلف — هى معارك الاستقلال والحرية .

وقد اختار الأستاذ إبراهيم المصرى مادة حوادثها من أقطار مختلفة وصاغها بأسلوبه الشاعرى الجميل ، فقصة « عذراء الوطن » من بلاد الإغريق وهى تمثل روح البطولة والوطنية التى كانت مستولية على الشعب اليونانى أثناء حرب الاستقلال ضد الفرس وملكهم داريوس عام ٤٩٠ قبل الميلاد . وقد وقعت هذه الحرب فى ميناء ماراتون على بعد عشرين ميلا من أثينا وتولى قيادتها الزعيم الوطنى والقائد الأثينى .

و « طريق الشوك » قصة من بلاد فارس وقعت حوادثها عام ٢٢٥ ميلادية حين كانت إيران محكومة بطائفة من الملوك عرفوا باسم « الأرزاس » وانحدروا إلى إيران من شمال غرب آسيا . وقد استبد أولئك الملوك بالشعب الإيرانى وعاملوه معاملة القطيع ، فتشجع أهل مدينة كرمان وأعلنوا الثورة على الملك أرتبان الرابع وذلك بقيادة ضابط إيرانى باسل خرج من صميم الشعب . والقصة تمثل أبلغ تمثيل كفاح شعب وجهاد زعيم وبطولة فنان .

وثمة قصة « المشعل » التى وقعت حوادثها خلال الحرب التى قامت بين روما وقرطاجنة عام ١٤٩ قبل الميلاد وهى صورة حية لكفاح شعب يذود عن حريته . وقصة « قلب وضمير وأشباح » وهى صورة مجيدة لكفاح زعيم من بلاد السويد حرر بلاده من الاستعمار الدانيمركى . وأربع قصص أخرى من إيطاليا ومن روسيا ومن الجزيرة العربية ومن تاريخ الإسكندرية ؛ وكلها تبرز روح الكفاح والفدائية التى تقدم للشباب والشيوخ معاً أروع الأمثلة فى الذود عن الحرية وفى بذل التضحيات مهما كانت غالية فى سبيل الوطن .

● كان الجاحظ كما يقول المسعودي « لا يعلم أحد من الرواة وأهل العلم أكثر كتباً منه » . ولم يكن همّ الجاحظ فى التأليف همّ غيره من المؤلفين فى الجمع والرواية والحفظ ، وإنما كان همّه أن يبتكر وأن يقدم للناس الطريف من ألوان الثقافة والمعرفة .

وكانت كتبه كما قال المسعودي أيضاً — وهو ممن يعدُّ فى خصومه — « تجلو صدأ الأذهان ، وتكشف واضح البرهان ؛ لأنه نظمها أحسن نظم ، ورصفها أحسن رصف ، وكساها من كلامه أجزل لفظ . وكان إذا تخوَّف ملل القارئ ، وسآمة السامع ، خرج من جدٍّ إلى هزل ، ومن حكمة بليغة إلى نادرة طريفة » .

ومن بين كتبه التى ذاع صيتها كتاب « الحيوان » ، وهو يعدُّ دائرة معارف واسعة الأفق ، كما يعدُّ صورة طاهرة لثقافة العصر العباسى المتشعبة الأطراف . حوى طائفة صالحة من المعارف الطبيعية والمسائل الفلسفية ، كما تحدَّث فى سياسة الأقوام والأفراد ، وتكلم فى نزاع أهل الكلام وسائر الطوائف الدينية .

وقد تحدث الجاحظ فى هذا الكتاب أيضاً فى كثير من المسائل الجغرافية ، وفى خصائص كثير من البلدان ، وفى تأثير البيئة فى الحيوان والإنسان والشجر ، وتناول الحديث فى الأجناس البشرية وتباينُها ، وعرض لبعض قضايا التاريخ .

وتحدث عن الطب وعن الأمراض فى الحيوان وفى الإنسان ، وذكر كثيراً من المفردات الطبية النباتية والحيوانية والمعدنية .

ولم يقصر حديثه على هذه الجوانب حسب ، لكنه تحدث كذلك عن العرب والأعراب ، وعن أحوالهم وعاداتهم ومعتقداتهم وعلومهم ، كما أفاض القول فى آى الكتاب العزيز وحديث الرسول الكريم ، وفصَّل بعض مسائل الفقه والدين . وجمع فى خلال ذلك كله الصفوة المختارة من حر الشعر العربى ونادره ، إلى جانب الأمثال السائرة والنوادر الطريفة .

هذا الكتاب القيم كان قد توفر على تحقيقه الأستاذ عبد السلام محمد هارون فرجع إلى النسخ الخطية والمصورة المودعة بدار الكتب المصرية ، ورجع إلى كثير من الكتب لتقويم نص وتصحيح عبارة وتلافى تحريف ونسبة بيت إلى صاحبه وتخريج مصادره حتى استقام الكتاب .

وعنى بتيسير مادة الكتاب على الناس فصنع لها عدداً من الفهارس ، منها الفهرس التفصيلى لأجناس الحيوان ولأعلام الحيوان وأعلام الناس والقبائل والطوائف والبلدان والأماكن والامثال والأشعار والأرجاز واللغة والكتب وأيام العرب ثم فهرس للمعارف العامة .

وقد نشرت طبعته الأولى بهذا التحقيق العلمى منذ أكثر من ربع قرن مكتبة مصطفى البابى الحلبى فى سبعة أجزاء .

ولكن المحقق كان دائباً على مراجعة طبعته ، وأتاحت له فرصة إخراجه وتحقيقه لكثير من كتب التراث العربى أن تظهر فى أثناء ذلك تصحيحات وتعليقات كان يدوِّنها على جوانب نسخته ، ثم انتفع بما ظهر من جديد من مخطوطات للكتاب ، فأعاد نشره فى طبعة جديدة محققة تحقيقاً جديداً ، وستنشره هذه الدار أيضاً ولكن فى ثمانية أجزاء حيث أضاف إلى الفهارس فهرساً جديداً يقع فى حوالى مائة وستين صفحة خاصًّا بالألفاظ المفسرة العربية وما فى حكمها وغير العربية كالفارسية والرومية واليونانية والعبرية والسريانية مما لم يفسره الجاحظ ولم يتضمنه فهرس اللغة الأول الذى قصره على ما فسره المؤلف .

حسن كامل الصيرفى

تيارات في المجلات والصحف



يقدمها
جمال بدران

- إن النقد والنقد الذاتي من أهم الضمانات للحرية ...
- إن الثورة ليست عملية هدم أنقاض الماضي، ولكن الثورة هي عملية بناء المستقبل « الميثاق »

الكتاب العربي في شهر

صناعة الكتابة

« كل صناعة تحتاج إلى ذكاء »، إلا الكتابة . . فانها تحتاج إلى ذكاءين . . جمع المعاني بالقلب ، والحروف بالقلم » .
. . . هكذا قال العرب منذ القدم .

وليس المقصود بالصناعة هنا ما يدخله الإنسان على الجمادات من تعديلات وتشكيلات ، أو ما يجريه ابن آدم على الكائنات من تجارب ومواقف ، أو ما تتفتق عنه الأذهان من بدع وطرائف ، أو ما تقيمه السواعد من هوائل ودقائق ..

وليس المقصود بالصناعة هنا ما ليس طبيعياً . . وإنما هى أقرب إلى الفن كتطبيق منها إلى التصنع أو الزيف .

ولهذا بين العرب أن هذا النوع من الصناعة يتطلب ذكاءين . . أحدهما يتسمع وجيب القلب ، ويترجم نبضاته . . فيبرز معانيها رائقة صادقة والآخر يتلمس الطريق إلى لفظة مطابقة لما يهز القلب من معنى ، وينتقيها بدقة ورقة ، ليخطها على الورق أو يطلقها من بين الشفتين . . سلسة ، واضحة ، تتآلف مع ما سبقها من كلمات ، وتمهد لما يليها من معانى . . محددة ، نابضة ، تشد اهتمام قارئها ، وتهز مشاعر من اهتم بها . . ممهدة ، هادفة ، تهيئ الذهن حتى يعى ، وتؤدى بالواعى تماماً إلى ما استهدفت .

فاذا ما حقق المكتوب مراده أو مراد كاتبه . . عد ذلك مهارة منه . . لأنه استطاع أن يصوغ مكنونه أو يعبر عن معانيه بلغة ذات أسلوب . . لم يفهمه قراؤه فحسب ، بل أقبلوا عليه شغوفين . ولم يلتهموه قراءة فحسب بل يستظهروه جماعات ووحداناً ولم يرددوه مجرد تراشق ألفاظ ليس إلا ، وإنما يغوصون به فى ذواتهم ليتأصل فى أعماق العقول والقلوب .

وفى ذلك قمة النجاح لصانع الكاتب . . لأنه حقق التفاعل والتآلف بينه وبين قرائه بمؤلفه ، ولأنه أزاح حواجز العزل عن قرائه بما قدمه لهم من محتوى المعانى وقالب الأسلوب . . أو ما يسميه المحدثون بالمضمون والشكل .

لكن صناعة الكتابة قد تصرف الذهن إلى ما تحتاجه من مصنوعات . . أولها القلم والورق والمداد ، وثانيها توجيه القلم باليد فوق الورق إلى عدة اتجاهات تشكل حروفاً وتكون لفظات جميلة الخط أو قبيحة ، وثالثها مستحدث الرسائل من آلات كاتبة أو طابعة تسابق العصر فى تقليب الورق وملئه بصفوف الكلمات وسطورها . . ورابعها نهاية الورق المطبوع من طى وتعبئة بين الأغلفة ، وما يصاحبها من تشذيب ولصق وضغط . . وما إلى ذلك من صنوف التصنيع .

فهل يمكننا الفصل أو العزل بين الدورين ؟ دور اعتصار المعنى من الداخل ، ودور معاناة إظهاره للملأ ؟ . . .

هل نستطيع إيجاد حد فاصل باتر بين المرحلتين ؟ العثور على صورة ذهنية والتعبير عنها بكلمات أو بخطوط وألوان ؟ . . .

هل نفرق بين اهتزازات العروق بوجدان القلب وإشراقة الذهن وبين تشنجات الأصابع على القلم أو أزرار الماكينات ؟ . . .

لكى نجيب على هذا . . لا بد أن نفرق بين نوعين من الكتابات . . كتابة أخطأ صاحبها فهم رسالة الآلة وما يصاحبها من سرعات . . فاندفع وراءها لاهثاً يقدم لها كل ما تنسخه يده من خواطر وشوارد ، دون أن تمس فؤاده

أو توخز ضميره أو تحرك عقله فتفيقه . . لأنه اجترها ولا أقول جمعها ونقلها – وهذا أضعف الإيمان برسالة الكتابة وصناعة الكلمة – فيجرى حاملا ما نسخه أو مسخه ليفرغه فى فوهة الآلة الصماء ، لتدور عجلتها سريعاً وتسأله هل من مزيد ؟ فيستجيب لها ملبياً على عجل . . حتى يصبح هو والآلة سواء . .

ألا ساء ما أفرغه ويفرغه . . لأنه ليس من الكتابة فى شىء ، أو هو قد اكتفى بالشق الأول من صناعة الكتابة . . فأوقف قلبه وعقله ووقف عند الذكاء الواحد لا الذكاءين اللذين ذكرهما العرب .

بل هو ذكاء ناقص ، لأنه اكتفى بسلبية النقل . . وليس هذا من إيجابية الصنع فى شىء ، بل قد تقع تحت طائلة العقاب إذا ما تطرفت مشروعية السلبية الناقلة ، إلى لا مشروعية السلب الفاضحة . . وليس هذا من أمانة ولا أصالة الصنع فى شىء .

أما النوع الآخر من الكتابة . . فهو الذى عرفه العرب واختصوه بتعريفهم ، وميزوه عن غيره من الصناعات بما يتطلبه من ذكاءين أو ذكاء مزدوج . . واضح الغاية ، مشرق العبارة ، بديع السبك والصياغة . . رحب الأفق فى غير ما تيه أو تشتت ، بعيد المغزى فى غير ما لف أو غموض . . حتى إذا فاته العصر قفز بأصالته إلى ما يليه . . ومن ثم يخلد على توالى الحقب، واختلاف العصور .

ومن هنا يتضح الفارق بين صناعة بالية وكتابة باقية ، ذلك لأن الكتابة خلق وصناعة فى آن واحد . خلق فى الداخل وولادة . . ثم يأتى دور تسمية الجنين المولود . . وهذا هو دور الصناعة فى الكتابة . . فمن اكتفى بالتسمية على غير مسمى . . صار مهدداً بالمطالبة بمبررات وجوده الوهمى . . وهو طريق سهل المسلك فى البداية ، ووعر شاق مهلك فى نهايته . . لأنه مبتور ومن أراد لخلقه أن يظل قابعاً فى دهاليز دماغه . . فلا ضير . . ما دام قانعاً بحديث نفسه ، لا يريد أن يفيد به غيره ، أو يطلع عليه الآخرين . . لكنه لا حق له حينئذ فى مطالبة الغير بمعرفته أو العرفان بفضله . . لأنه لم يستعن بصناعة الكتابة التى تصله بالقراء ، أو لم يجد – على الأقل – انتقاء الكلمة التى يفهمها المنتظرون .

فهل بعد هذا نجرؤ على الفصل بين نبضات العروق وتشنجات الأصابع ؟ . . . إن الاستحالة تبدو واضحة فى صناعة الكتابة .

• • •

من أكمل العروض للكتب فى المجلات والصحف . . ذلك العرض الذى قدمه لنا محمد عودة لكتاب ألفه الدكتور جلال أحمد أمين بعنوان « مقدمة الاشتراكية مع دراسة لتطبيقاتها فى الجمهورية العربية المتحدة » . . وقد نشرته جريدة . .

الجمهورية

.. ومؤداه .. موضوعية الكتاب .. إذ يعرض لآراء آدم سميث وريكاردو وبنتام ، ثم يعارضهم بآراء المدارس الأولى للاشتراكية المثالية عند روبرت أوين وسان سيمون وفورييه ، ويبين مدى ما قدمه الثلاثة الأول من عون للفكر والعلم الاقتصادى عامة ، ثم يقف وقفة طويلة عند الماركسية . فيرفض النظرة القائلة بأنها مجموعة من الأخطار والتناقضات والضلالات ، ويرفض كذلك القول بأن ماركس مصيب على طول الخط ولم يخطئ قط فى كل ما قاله . ويبرر وجود هذين الموقفين المتضادين بطبيعة الفكر الماركسى نفسه ، فهو لا يستهدف تفسير العالم بقدر ما يسعى لتغييره ، ومن ثم ارتبط بالحركات العمالية والثورة الروسية .. الأمر الذى حول مناقشة الفكر الماركسى من الجدل العلمى إلى المعركة السياسية .

ثم يتناول النظام الاشتراكى وتطبيقاته لدينا بمقاييس موضوعية صارمة ويواجه اشتراكيتنا متسائلا بجرأة .. هل اشتراكيتنا عربية حقاً ، وما معنى وصفها بالعربية ، وهل تنفرد بنظرية أو فلسفة مختلفة عن بقية النظريات الاشتراكية ؟ ..

ويصنف المؤلف ردود كل من أجاب على هذه التساؤلات .. فيجدها تركزت فى ثلاثة اتجاهات .. أو بالأصح ميول خاصة .. أولها ذوو الميول الماركسية الذين يزعمون حتمية المصير الماركسى لاشتراكيتنا ولو أنها لم تبدأ كذلك .. وثانيها من يكرهون التأميم بالطبيعة فلا يطفقون يرددون احترام تجربتنا للقطاع الخاص .. وثالثها أصحاب النزعة الاشتراكية الغيورة على الدين .. فيرون ويؤكدون أن أهم خصائص تجربتنا هى الإيمان بالقيم الروحية التى جاءت بها الديانات .

ويخلص المؤلف بعد هذا إلى أن « ليس هناك نظرية عربية متميزة فى الاشتراكية ، كما أن تجربتنا هى نتيجة الاستفادة من تراث اشتراكى عام هو محصلة تجمع تيارات مختلفة من الفكر الاشتراكى » . ثم يردف قائلا « وإن كان التيار الماركسى قد ساهم فى تكوين هذا التراث الاشتراكى العام بأكبر نصيب » .

• • •

الأهرام

ومن اللغات غير العربية عرضت جريدة ..

.. لكتاب « العسكرية الجديدة فى أمريكا اللاتينية » من تاليف ادوين ليوفن رئيس قسم التاريخ بجامعة نيومكسيكو .. الذى يحاول فيه تفسير ظاهرة النوع الجديد من الحكومات العسكرية الذى حل محل الديكتاتوريات التقليدية هناك ابتداء من أواخر عام ١٩٦١ . وقد قسم المؤلف التاريخ السياسى الحديث لأمريكا اللاتينية إلى ثلاث مراحل .. أولاها بين ١٩٥٠ و ١٩٥٤ التى أطيح فيها بحكام أربع دول هى الأرجنتين وهايتى وفنزويلا وكوبا ، وثانيها بين ١٩٥٤ و ١٩٦١ التى تتسم بالعنف ، فاغتيل حكام أربع دول هى بنما ونيكاراجوا وجواتيمالا والدومينيكان . وآخرها ما حدث من انقلابات

تستهدف العودة للحكم العسكرى . . مثلما حدث فى الأرجنتين وبيرو ، وما حدث فى سبع دول بعد ذلك كان آخرها وأكثرها أهمية انقلاب البرازيل عام ١٩٦٤ .

ويحلل المؤلف تاريخ العشرين دولة التى تملأ قارة أمريكا اللاتينية . . على ضوء هذه المراحل الثلاث ، وما كان ينتظر للديمقراطية والاشتراكية من انتشار بينها لولا خوف الولايات المتحدة الأمريكية من ثورة كوبا ، وما جره ذلك الخوف من كبت كل حركة ديمقراطية مخلصة . .

هذا فضلا عن الفراغ الذى تعيش فيه جيوش هذه الدول ، وعدم استعدادها للاشتراك فى حرب فى الخارج حماية لمصالح الشعوب التى تنتمى إليها . . إما لعدم قدرتها ، وإما لعدم رغبتها فى ممارسة مهمتها الأساسية . . . والأرجح لاعتمادها فى هذه المهام على الولايات المتحدة . . ومن ثم اتجهت منذ أوائل هذا القرن إلى الحكم أو حمايته إن أغدق عليها الامتيازات ، أو إلى التناحر بين مختلف أسلحتها مما يؤدى بالتالى إلى حدوث انقلابات .

لكن المؤلف يؤكد أن هناك ثورة كامنة لم تطف على السطح بعد ، وإن كانت بعض معالمها قد بدأت فى الظهور فى السنوات الأخيرة . . مثل هذا الذى رأيناه فى سانتو دومينجو ، ثم يبشر المؤلف بأن هذه الثورة آتية لا ريب فيها وستجتاح جميع دول المنطقة حتى الولايات المتحدة الأمريكية نفسها .

القصة والمسرح والنقد

القصـة ..

فاقت حصيلة القصة القصيرة هذا الشهر حصيلة المسرح ، وإن أردنا التزام الدقة لقلنا حصيلة المسرح فى القاهرة خاصة ، أما مسارح الأقاليم والنشاط المسرحى فى لبنان فقد حظى كل منها باهتمام الصحافة . . اهتمام إعجاب وتشجيع لا لفتة عطف وتطييب خاطر .

سبع قصص قصيرة من القاهرة استحقت التنويه . . هى على التوالى « السر الدفين » لفاروق منيب ، و « جواز سفر » لسيد جاد ، و « معجزة العصر » ليوسف إدريس ، و « المتهم » لنجيب محفوظ ، و « سنورس » لعبد المعطى المسيرى و « رغيف البتانوهى » لسليمان فياض ، ثم « مولانا السلطان » لعبد الغفار مكاوى .

ومن بغداد قصة « غرفة غير مستعملة » لسركون بولص ، ومن دمشق قصة « قلب ونار » لعبد الغنى العطرى ، ومن نابلس قصة « الخاطب » لعبد الحميد الأنشاصى ، ومن طرابلس لبنان قصة « نفحة الأزل » لفيليب عبد الحق ، ومن بـيروت « الحاج محمد باع حجته » لسميرة عـزام ،

و « الرجال » لسميرة المانع .. أما الكويت فلم تخرج منها قصة قصيرة فى مجلاتها هذا الشهر ..

كذلك صدرت مجموعة من القصص القصيرة بعنوان « حافة الجريمة »، لعبد الحليم عبدالله .. تضم سبع عشرة قصة من أبرزها القصة الأولى التى حملت المجموعة عنوانها وكذلك قصص المخدع ، ولعبة كل يوم ، والعشر ، والساهرون والأم الثانية .

والقصة القاهرية الأولى « السر الدفين » لم يخف فيها مؤلفها ولهه بالريف . فبالرغم من أن مقتل خديجة واتهام ابنها بقتلها لسلب مصاغها هما نقطتا الالتقاء الحوارى بين راوى القصة وبين عبده — الفلاح المكتئب على غير عادته — إلا أن هذا الراوى لا يلبث أن يتحين الفرص التى يضيق فيها باكتئاب صديقه ، فيصف أو يرسم للمسطح الريفى صورة جميلة رائقة تبرز التناقض بينها وبين كآبة عبده وقتل خديجة .. حتى عندما يسوق لنا صورة الكلب الصغير المنتظر عودة أمه غريبة المسلك التى تأتى له برغيف مقدد من قرية بعيدة .. هذه الصورة الموحية بالارتباط وتجسيد التعاطف مع مقتل خديجة المظلومة بابنها .. نجده يتبعها بصورة سرب الحمام المحوم فى السماء ، يعكس ضوءه أشعة الشمس الواهنة مثل قطع الكريستال ، بل يكاد يهتف متحيزاً ليصدر حكماً مطلقاً « عندما يتنفس الإنسان ملء رئتيه هواء نقياً منعشاً يصعب عليه أن يكره مخلوقاً » .. ويؤكد لنا فاروق منيب أن الريف ملئ بالألوان الطبيعية فى هذه اللوحة القصصية المتجانسة فيقيمها على خلفية من اللون الأخضر الذى يتدرج من الباهت إلى الداكن .. فيصفر ويزرق .. لذا نجده يجانس فى ثقة بين لون المانجو ولون الذهب الذى سلب من خديجة وبين الطماطم المغطاة بالقش ، كذلك يجانس بين الشاى الأسود وبين الليل المتسلل بعد مغيب الشمس .. كل هذا فى انسياب أسلوبى تناثرت عليه لفظات عاكسة موحية بلا تكلف أو حشرجة .. لكن استغلال ألفاظ المخاض قد زادت عن معدلها فى قصة قصيرة ممتازة كهذه « كانت الأرض حبلى ، أقوم لأحتضن أشجار البرتقال ، عود المانجو ظل عشر سنوات عاقراً ، وحمله ما يزال فى باطنه لا يريد التخلص منه ، يحتضن كوب الشاى الدافىء بكفه » .. كل هذه الكلمات لم تلد السر الدفين أو تكشف عن قاتل خديجة .. بل خيم ظلام الليل فى النهاية على كل شىء .

أما قصة « معجزة العصر » فعندما قرأتها فى جريدة ..

... وجدت أن فكرة التابع والمتبوع أو « الفرفور والسيد » لا تزال منبع الإلهام لأفكار كثير من قصص يوسف إدريس . فبطل القصة عقلة الأصبع أو « النص نص » كما سماه أديبنا قد نبذته أمه وتنازل عنه أبوه للسلطان الذى احتضنه ورباه وكشف عن عبقرياته الخارجة التى رفضتها كل الناس ، بل رفضوه هو بعد أن مات السلطان بالرغم من أنه قد حصل على أربعة عشر دكتوراه ، ويقدم على الموت عدة مرات لكن ضآلة حجمه تنجيه من الهلاك

الجمهورية

وكأن الموت يرفضه أو ينبذه ، ويقرر الصمود فى وجه الناس والحياة بالعمل والاختراع ، ويتوصل إلى اختراع صاروخ يصل به إلى كواكب أخرى غير المريخ والقمر .. كرة أرضية أخرى فيجد قوماً على شاكلته فى ضآلة الحجم ، ويؤلهه القوم هناك ويعبدوه .. لكنه يحن إلى أرضه ويحن إلى الحياة المنبوذة بعد أن مل حياة العظمة والتأليه .. ويعود إلى أرضنا ثانية ليعيش فى ضياع لم يلتفت إليه إلا بعد أن غزا سكان الأرض الأخرى أرضنا بحثاً عن إلههم الضائع عندنا .. وهكذا تزاحم البشر عند شاطئ الإسكندرية الذى كان يفضله « النص نص » فى شمس الشتاء ، وقد انكفأ الجميع مختلطين على الرمال كمن يبحثون عن إبرة ضائعة .. لكنهم - بلا جدوى - يواصلون البحث عن عقلة الإصبع معجزة العصر .

والقصة بقالبها الذى اختاره يوسف إدريس قد اتخذت إطار العلم والفلسفة فى آن واحد ، ولا نقول الخيال العلمى ، كذلك لا نقول إنه قد اختط نهج رحلات جاليفر أو استلهم فكرة القوم الصغار منها .. وإنما قد أثر ضيق الزحام الشديد على مخيلته .. فتمنى فى قصته لو ضؤل حجم الناس إلى « النص نص » بدلا من هذه الكروش الممتلئة المترامية فى تراخ على شاطئ البحر ..

لكنه انحاز نحو التشاؤم باتخاذه أوصافاً علمية بلغت حد العبقرية فحصل على أربع عشرة دكتوراه .. ومع ذلك فشل فى مجرد إقناع الناس بعبقريته الأمر الذى جعله يلجأ إلى الهرب من الحياة بالموت أولا ثم بالهجرة إلى الأرض الأخرى .. حتى فى العودة يرضى بوضعه الضائع بلا أمل أو حل لهذا الاختناق .

إلا أن لجوء يوسف إدريس إلى هذا الإطار العلمى الفلسفى جعل من قصته القصيرة مقالة بحث عمادها الفروض الجافة لا الخيال المنطلق .. مما أثقل كاهل القصة بالمناقشات الجدلية ، وأثقل كاهل القارئ بالجهد فى استخلاص اللباب .. اللباب القصصى الذى عششت حوله استطرادات بعيدة العمق لكنها شديدة التعقيد والتركيز .

• • •

والمسرح ..

انتهى الموسم المسرحى بعرض مسرحية « النصابين » لمحمود السعدنى ، وقد تناولتها الأقلام كلها بلا استثناء تناولا خفيفاً بلا سبب واضح .. ربما كان رد فعل للجهامة والشدة فى الشهر الأسبق ، أو كان لرقة فى بنائها المسرحى ، أو لأن أقلام النقد فضلت توديع الموسم المسرحى بشىء من الرحمة ، ولم يشذ عن هذه الظاهرة غير فاروق عبد الوهاب .. فى مجلة ..

... فها هو يقول « ولعل ضعف البناء المسرحى فى المسرحية - كما أرجو أن يكون قد اتضح من خلال العرض لنماذج النصابين - يرجع إلى أن يكون السعدنى قد تصور أن معنى كلمة صراع هو « عركة أو خناقة » ...

هذا إلى جانب أن بعض النماذج قد استهوته فصورها فى حد ذاتها مثل كبارة وكاملة دون أن يكون لأى منهما وظيفة حقيقية فى تطوير الحدث الذى افتقدنا

وجوده مسرحياً . . . كذلك أسهم فى ضعف البناء المسرحى أن المسرحية تتوسل بكثير من النكت اللفظية وباللعب بالكلمات » .

لذلك فقد اتجهت أقلام النقاد إلى مسارح الأقاليم فى دمياط وكفر الشيخ لتجد أن تمثيل مسرحية « عسكر وحرامية » لألفريد فرج على مسرح دمياط قد تم بأداء يماثل فرق القاهرة العريقة ، وكذلك فرقة كفر الشيخ التى قدمت مسرحية « الناس اللى فى السما الثامنة » لعلى سالم .

كذلك تعدت الأقلام حدود جمهوريتنا إلى أنحاء العالم العربى لتعرض ما يجرى على خشبة المسرح فى دمشق من محاولات جادة لعبد اللطيف فتحى تحت اسم « أزمة عصبية » ، وكذلك ما تؤديه فرقة المسرح الشعبى ببغداد من دور طليعى فى هذا المجال . . فهى تقوم الآن بتمثيل مسرحية « اللص » لتوفيق الحكيم . . أما المسرح فى بيروت فقد عالجه محمود العالم فى مجلة . .

. . . فبالرغم من أن المسرح اللبنانى كان رائد المسرح فى العالم عامة منذ ما يقرب من مائة وعشرين عاماً على يد مارون نقاش . . إلا أننا نستطيع أن نعرفه الآن بالمسرح الواعد . . لأنه يبدأ الآن فى التحرك والتطور بعد خمول طوال هذه المرحلة الماضية التى انتقلت زعامة المسرح فيها إلى القاهرة . وتتمثل الحركة المسرحية فى لبنان الآن فى ثلاثة مراكز إشعاع . أولها المسرح الوطنى الذى يعرض مسرحية « مريض بالوهم » لموليير ، وثانيها ، مسرح الأشرفية الذى تواصل عليه حلقة المسرح اللبنانى تجاربها المسرحية كمدرسة فنية لا مجرد فرقة مسرحية . وهى تمثل مسرحية « ضاعت الطاسة » المقتبسة عن مسرحية الكاتب الألمانى كلايست « انكسرت الجرة » . أما ثالث المراكز المشعة فهو بيت الأخوين رحبانى وفيروز حيث ينبثق نور المسرح الغنائى من هناك ليبدأ حياة جديدة .

المصور

وقد اتجهت بعض الأقلام إلى التحليل النظرى لبعض الظواهر المسرحية العالمية ، أو إلى إعادة تقييم بعض المفاهيم المسرحية السارية . . مثلما حدث فى مجلة . . .

. . . حيث تناول مصطفى إبراهيم مصطفى فكرة الخلاص عند صمويل بيكيت . . فالمأساة قد استندت دائماً منذ ما قبل المسيحية إلى فكرة الخطيئة الأولى . . لكن إنسان الحاضر يرفضها ويؤمن ببراءته ويعتقد أن حياته حاضرة بالفعل ومن حقه أن يأتى بأى فعل . . فلا غيبيات ولا أشياء غير مؤكدة .

الفكر المعاصر

لأن الكائن الذى سيأتى فيما بعد ليس له وجود أو حضور الآن ، وما سوف يجرى لكائن الحاضر هو الموت والتحلل . . أى عدم الوجود أو الحضور ومن ثم فان الشىء فى ذاته وبذاته هو المستقبل الوحيد .

وما على المأساة التى تريد أن تعيش إلا أن تواجه الموقف الحاضر ، كحقيقة لا مصير بعدها غير الانتهاء . . لا امتداد لها فى اللحظة التالية . . اللهم إلا إذا جرى اكتشاف فلسفى جديد ينزع أهمية وضرورة الحضور على المسرح عن العمل المسرحى . . وحينئذ يكون علينا أن ننتظر ضرورة أخرى فى الطريق .